عبد الإله بن عرفة

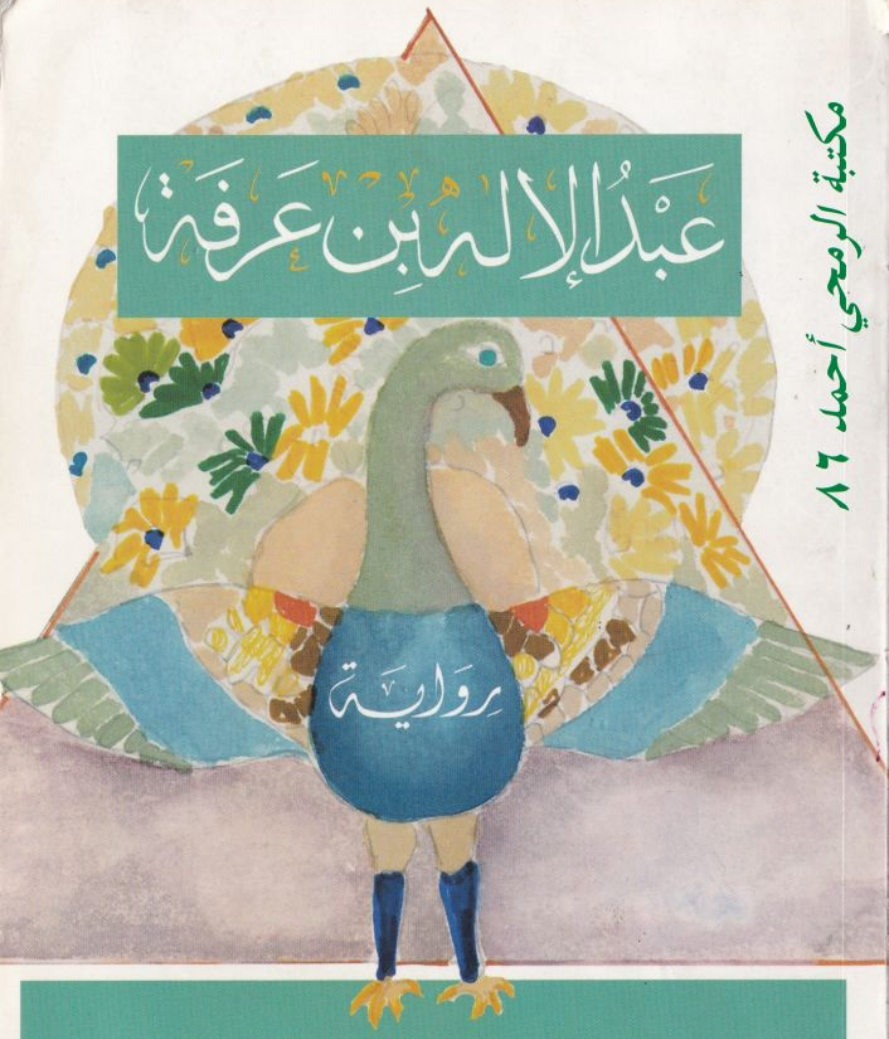

طواسين الغزالي

مكتبة الرمحي أحمد ٨٦

دار الآداب

عبد الإله بن عرفة

طواسين الغزالي

روايـة

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد ٨٦

@ktabpdf تيليجرام

دار الآداب ـ بيروت

طواسين الغزالي
عبد الإله بن عرفة/ روائي مغربي
الطبعة الأولى عام 2011
ISBN 978-9953-89-197-2

إهداء

إلى أبي حامد الغَزَالي الطُّوسِي، نسَّاجِ الأرواح،

وإلى كُلِّ من حذَّقَتْهُ المعارف وهذَّبَتْهُ المعاملات وأدَّبَتْهُ المكاشفات. إلى مَنْ يُولَدُ مَرّتَين، إلى كلّ آدم وكلّ حواء، أهدي هذا العمل، الذي أرجو أن يكونَ نفَسًا من أنفاس بَعْثِ الرُّوح القُدُس، والحياة الحقيقيّة في الإنسان.

بيان أدبي

لم يَشْغَل الناس، قديمًا وحديثًا، أَحَدٌ مثلما شَغَلَهم أبو حامد الغزالي، حتى أَخْمَلَ سيرةَ غيرِه، وأَهْمَلَ ذِكْرَ مَنْ سِوَاه. فهو أَحَدُ العقول الإنسانيّة الكبرى. واليوم، وتَزامُنًا مع مرور الذكرى تسعمائة على وفاته، نستحضرُ مجدّدًا هذا الرجلَ وأعمالَه، لنبعثَ روحَ الإحياء في هذه الأُمَّة باستذكار صاحب الإحياء. ولعلَّنا نَستأنِفُ من جديدٍ حبلَ الوُصْلَة مع القارئ النَّبيه المُسْتَوْفِزِ لمظَانِّ الخَيْرِ حتى نَرْبِطَ معه صِلةَ الرَّحِم العلميّة والرُّوحيّة، بصاحب المضنون به على غير أهله، والمضنون به على أهله، من خلال هذه الرواية. وأَحْسَبُ أنّ الناس قد لَجُّوا قديمًا وحديثًا[1] في نسبة الكتاب له بين مُؤيِّدٍ وجَاحِدٍ.

---

(١) من الذين أنكروا نسبة **المضنون به على غير أهله** للغزالي (بناء على مضمون الكتاب وتأوّلهم بعض الأفكار الواردة فيه، والتي قد تُفيد التصريح بِقِدَم العالم. .)، ابن الصلاح والسبكي، في حين أنّ ابن تيميّة يخالفهم ويثبت أنّه للغزالي. أمّا بالنسبة لكتاب **المضنون به على أهله**، فقد تُدُوولَ النقاش حوله في

مكتبة الرمحي أحمد

وفي تقديري أنّ الغزالي ترك مَناطقَ في الظِّلِّ داخلَ مَشروعِه التَّنْويري، هي ما أسماهُ المَضْنُون به، فما هُوَ يا تُرَى ذاك المضنون؟ وهل ما زالَ مضنونُ الغزالي مَضنونًا اليوم؟ أم أنّ دَائِرةَ المَضْنُونِ تَحَوَّلَتْ بتحَوُّلِ دَوائِرِ المعرفَة؟ وهل تَقبلُ المعرفَةُ الضَّنَّ بها؟ أَمْ أَنَّ الأَمرَ لم يَعُدْ له مُسَوِّغٌ في عصرنا؟ إنّ طرحَ مِثْلِ هذه الأسئلة يجعلُ القارئَ يَتنبَّهُ إلى أهمِّيّة السُّؤالِ أكثرَ من الجواب المقترح، لأهمِّيَّةِ الحُرِّيَّة والرَّحَابَة التي يمنحُهَا لَهُ السؤالُ في اسْتِكْدَادِ وَعْيِهِ وشَحْذِ ذِهْنِهِ. فهل ما زالتِ الأُمَّةُ غير راشِدَةٍ حتى يُضَنُّ عليها بهذا النَّوع من المعارف، أم أنّ المعرفة تَسْتَقْطِعُ دَوْمًا مَناطِقَ للمَضْنُونِ يَسْتَأْثِرُ بها أهلُها عن غيرهم؟ ثم هَلِ الرُّشْدُ مِقياسٌ في تَسْوِيغِ استِحْقَاقِ تِلكَ المعارف؟

وأَجِدُنِي مَدفوعًا لأطرحَ عَنِّي كلَّ هذه الإشكاليّة لِعَدَمِ جَدْوَاهَا في زَمَنِ الفَيْضِ المعرفي والمعلوماتي، وأَعْرِضَ البَحثَ في اتّجاه آخر، ضمنَ قضيَّة الحرِّيَّة والكتابة. فالمضنونُ به يَطرَحُ، في العُمقِ، قضيّةَ الحرِّيّة بامتياز. وفي اعتقادي أنّ الغزالي الذي حارب

= المغرب والأندلس مع ابن طفيل في رسالة **حيّ بن يقظان**، وابن العربي الحاتمي في كتاب **محاضرة الأبرار**. وقد أنكرا نسبة هذا الكتاب للغزالي. وقد ذكر الحاتمي أنّ الكتاب المتداول بين الناس هو **النفخ والتسوية**، وقد عُرِفَ بالمضنون الصغير، وهو لأبي الحسن عليّ بن المسفر السبتي الذي اجتمع بابن العربي في سبتة شمالي المغرب. أمّا آسين بلاسيوس، فقد أثبت نسبة **المضنون به على أهله** للغزالي مع اطّلاعه على تلك الردود. ويعزّز من نسبة هذا الكتاب لأبي حامد ذكرُه له في مقدّمة **المضنون به على غير أهله**، وتصريح الغزالي بأنّه كتبه وأهداه لأخيه أحمد.

باطنيّة الإسماعيليّين من جهة، قد فسح الطريق، من جهة أخرى، أمام علم الباطن ضمن دائرة الإسلام السنّي، إلّا أنّه احتفظ بالمضنون به في زاوية ضيّقة وخاصّة، لأنّه اعتبره من قبيل المسكوت عنه الذي لا يقبل العبارة، أو إنّه بالأحرى، يَبْهَتُ بها. فهناك دومًا في الحياة الروحيّة تجارب لا تَنْصَاعُ اللغةُ لِحَمْلِ دَقَائِقِهَا ولا تَنْطَاع، إلّا مَعَ قَلَقٍ وتكلُّفٍ وعَنَت.

لقد طَوَّرَتِ التكنولوجيا الحديثةُ أشكالاً مَاكِرَةً للتَّجَسُّسِ على الإنسان، حتى أصبحتِ المناطقُ الأكثر حَمِيمِيَّةً تُعْرَضُ بِشَكْلٍ سَافِرٍ على الشبكة العنكبوتيّة. وبَدَا وكَأَنَّ قُرونًا من السَّتْرِ والإخفاء قد وَلَّتْ بلا عَودة. فهل ستَخْرُجُ الحرِّيّة الإنسانيّة سَليمةً من هذا العَرْض السَّافِرِ لِحَمِيمِيَّتِنَا مِنْ دُونِ نُدُوب؟ وهذا التَّحوُّلُ يجعلُ من السؤالِ حولَ الخُصوصيّة سؤالاً مُلِحًّا، فأين يبتدئ الشَّخصي وأين ينتهي العامّ؟ إنّ أخطرَ ما في التكنولوجيا المعاصرة أنّها أَلْغَتِ النسيان، لأنّ كلَّ جزئيّةٍ في حياةِ المَرْءِ يُمكِنُ أن تُعْرَضَ على الشَّاشةِ الكونيّة، حتى مِنْ دُونِ إِذْنِ صاحبِها. لم يَعُدْ في مقدورنا أن ننسى أو نتناسى، وبالتالي تقلَّصَتْ مظاهرُ الرَّحمةِ في الإنسان، لأنّ النسيانَ أحدُ مُؤَشِّراتِ الرحمة. كان من الممكن سابقًا أن يَكتُبَ المرءُ بحرِّيّة أكبر، لأنّ عددَ من يقرأونَ له محدودٌ، وَهُمْ عَادَةً مِنْ ذَوِي الأَهْلِيَّة، أمّا اليومَ فإنّ جيوشَ الرَّقابةِ تُقيمُ المحاكمَ الافتراضيّة في كلّ مكان، حيث لم تَعُدْ تلك الرقابة حَكْرًا على الدولة أو السلطة، بل تشكَّلَتْ سُلَطٌ تائهة مُنْشَطِرَةٌ في كلّ مكان. وأضحى الوسواسُ المرَضِي لأيٍّ كانَ رأيًا من الآراء، يُمْكِنُهُ أن يَتَكَتَّلَ مع

نُظرائِهِ ليُسْكِتَ صوتَ الحرِّيّة باسم الحرِّيّة، في أَبْعَدِ نقطةٍ على وجه المعمور. ولعلّ كثيرين يَنْخَدِعُونَ بِسَرَابِ هذه الحرِّيّة الشكليّة، فلْنَحْذَرْ مِنَ الخطابات الغوغائيّة التي تريدُ إقناعَ البُسَطَاءِ بأنَّ فَضَاءَاتِ الحرِّيّة قد تَوَسَّعَتْ، لأنّها لا تُدافِعُ في نهاية الأمر إلّا عن استبداد الكثرة الجاهلة على القِلَّةِ العالمة. إنّ مَكْرَ التكنولوجيا الحديثة قد أَوْهَمَ الناس أنّهم أصبحوا أَحْرارًا، ولَعَمْري إنّها مَصْيَدَةُ الهَوَامّ ومَكِيدَةُ العَوَامّ. كيف يكونُ المرءُ أديبًا وكاتبًا حُرًّا ومُثقَّفًا مُلتزمًا ضِمْنَ هذا الاستبداد الجديد؟

لقد عاش الغزالي في مرحلة حَرِجَةٍ، وكان عليه أن يختار، فاختار الحرِّيّةَ، وناظرَ جميعَ التيّارات الفكريّة في عصره بدون مُهادَنة. لم يَرْهَبِ الاغتيالات ولاَ اسْتِبْدَادَ السلطات. بل واجه كلّ ذلك، وعانقَ الحرِّيّة الحقيقيّة، نَبَّهَ عليها في صفحاتٍ مِنْ رَوائعِ ما كُتِبَ في أدب السيرة الذاتيّة في كتابه **المنقذ من الضلال**. لقد كان مَدخلُ الغزالي إلى الحرِّيّة من باب الخوف خلال أزمته الروحيّة، ثم ترقَّى بعده إلى المحبّة فالمعرفة، التي هي أسمى مظهر للحرِّيّة. إنّ الكتابةَ على المحو هي غيرُ الكتابةِ ابتداءً مِنْ دُونِ مَحْوٍ. لم تكن الأنا النرجسيّة هي التي تُوَجِّهُ عمل الغزالي، بل كان لَوْحًا تَشتَغلُ عليه ثلاث حضرات أُسَمِّيها: الإنْفِكَار والإنْذِكار والإنْكِتاب. كانت هذه المعاني القائمةُ به هي التي تُفَكِّرُ فيه، وتَنْذَكِرُ به، وتَنْكَتِبُ منه. لكلّ هذا كان الغزالي، وسيبقى دومًا، قمّةً إنسانيّةً مُتَحَوِّلَة، تُتَرْجِمُ عن شيء عميق في الإنسان. ولا غَرْوَ أن يَكونَ الناطقَ الرَّسمي والاِسْمِي عن هذا العُمْق. وحين نَستحضِرُ الغزالي

اليومَ، فإنّنا نَفْعَلُ ذلك لِنَمْكُرَ بالتاريخ، ونقولَ له إنّ الغزالي ليس من التاريخ المنتهي لأنّه بَاقٍ معنا، وسيبقى هكذا دومًا لأنّه لحظةٌ حرِّيّة تُفَسِّرُ ما قبلها وما بعدها.

لقد قال يوسف إدريس يومًا مَا: «إنّ كمِّيّةَ الأوكسجين في العالم العربي لا تكفي كاتبًا واحدًا». ولعلّنا نقولُ اليوم، نيابة عن الغزالي والعقول الكبرى، إنّ مادّةَ الوجود كُلِّهِ تَضِيقُ أمامَ فُسْحَةِ ذَرَّةٍ واحدة من الحرِّيّة. لقد كان الغزالي طَاوُوسًا وبازًا في الآن نفسه. وحيثُما خَطَرَ الطاووس على الأرضِ انْجَحَرَتِ الهَوَامُّ والحَشَرَات، وحَيْثُمَا حلَّقَتْ خَواطِرُ البَازِ الأَشْهَبِ في سماء الحرِّيّة انْخَرَسَتْ عَصَافِيرُ الطَّريقِ فما عَادَ لها صَفِير.

فما معنى الحرِّيّة اليوم في عالم الكتابة والأدب؟ لقد أضحى سؤال العالميّة يُؤَرِّقُ الكثير من الأدباء، وأصبحوا يَلهثون وراء ترجمة أعمالهم إلى لغات أخرى، ظنًّا منهم أنّ مقياسَ الكونيّة يكمن في ترجمة أعمالهم إلى لغات أخرى. وكلّ ذلك لا علاقةَ له بالأدب ولا الحرِّيّة عمومًا، بل إنّه في الغالب الأعمّ يأخذ شكل اسْتِرْقَاقٍ مُذِلٍّ ضِدَّ قِيَمِ الشَّرَفِ والانتماء. فالمؤسّسات الغربيّةُ جعلتِ الشرطَ لاستحقاقِ الكونيّةِ تمجيدَ السخافةِ والشذوذِ والخيانة باسم الحرِّيّة، وأضحى ثَمَنُ النجوميّة، في أغلب الأحيان، أن يَدوسَ المبدِعُ على مبادئه وانتماءاته الثقافيّة. وقد وجدنا البعض امتهنَ هذه الدَّعَارَةَ القَذِرَة، وبضاعَتُهُ من الأدب والفكر والفنّ هزيلة. ومن مظاهر هذا الجُنُوحِ إلى الشهرة الجَوائزُ الأدبيّة والثقافيّة

التي أصبحَتْ، في أغلب الأحيان، مَوبوءةً بأمراض غريبة مثل القطريّة والوجاهة والنفوذ والمال، والأذواق الأدبيّة الضيّقة، والاعتبارات غير الأدبيّة. إنّنا نحتاج اليوم إلى إعادة تنظيم واجهتنا الثقافيّة بشكل مسؤول. ولقد خَطَتْ بعض الدول العربيّة القليلة نحو تَصدير ثقافتنا بفضل إمكانيّاتها الماليّة، إلّا أنّ المشروعَ لا زال في البداية، ويحتاجُ إلى تقوية وحماية حتى لا تَنْسَلَّ إليه عَقاربُ الفساد. نحتاجُ إلى نظام للتوزيع يَكْفَلُ وُصولَ أعمال المبدعين العرب إلى القرّاء في كلّ مكان، ونحتاجُ إلى أن تتولّى مؤسّسات عربيّة كبرى ترجمةَ الإبداع العربي والعكس، لأنّ الترجمة أصبحت قضيّةَ أمن ثقافي، تُحَتِّمُ علينا عَدمَ تَرْكِ الأَمْرِ لِلمؤسّسات الغربيّة، أو إفرازاتها المَسِيخَة في بُلداننا، تُمْلِي علينا إملاءَاتِهَا واختياراتِهَا، وتُقرِّرُ فِيمَنْ يَستَحِقُّ أن يُتَرجَم. وإن لم يَتِمَّ الأمرُ قَريبًا، فسوف نُعَاني من هجرة الإبداع المكتوب بالعربيّة، إلى لغات أخرى، كما هاجرَتْ من قبلُ الكفاءات العلميّة.

إنّ عنوانَ الحرِّيّة والعالميّة الحقيقيّة، اليومَ، يَكمُنُ في الالتزام بالكتابة بلغة عربيّة رفيعة، أمام تَدَنِّي الذَّوق والإبداع وشُيوعِ النَّعَرَاتِ العِرقيّة والتَّطَرُّفِ والغُلُوّ، فلا وجودَ للأدب بدون هذا الشرط. ولا نُحَاوِلْ أن نُوهِمَ أَنْفُسَنا بالشِّعارات الغوغائيّة عن الكتابة بلغة الشعب، لأنّ **الأدبَ والإبداعَ مَسافةٌ جماليّة عن كُلِّ مَسَافَةٍ**. واللغةُ العربيّة اليومَ هي طَوْقُ النجاة من عَوْلمةِ التَّنْمِيطِ والانتماءات القُطْرِيَّةِ الضيِّقَة. إنّ الحرِّيّة التي نُنادي بها وندعو لها هي أن لا تَسْتَرِقَّنا الأكوانُ اللغويّة مهما كانت. وإنّ لُغَةً مقدّسة مثل

العربيّة تمنحُ الكاتبَ بها، من الأدبيّة والحرّيّة والكونيّة ما لا مثيلَ له في أيّ لُغَة أخرى، شَرْطَ أن يُعانِقَ المبدعُ التجربةَ الأولى لكلّ قَوْلٍ وكلامٍ انْفَلَقَ عنه الوُجودُ. إنّ الكتابةَ بلغة مقدَّسَة امتيازٌ خاصّ، وعالميّة لا نظير لها، ولا يستحِقُّ ذلك إلّا مَنْ كابدَ تجربةَ الوُجود. ونحن لا نَكادُ نَجِدُ مثلَ هذه التجربة إلّا عند آحاد. وليس في تَعْتَعَاتِ الألسن وبَلْبَلَتِهَا ما يُمكنُ أن يُطْفِئَ غُلَّةَ هذا الظَّمَأ الوجودي والبياني الذي تَحْمِلُهُ هذه اللغةُ المقدَّسَة. والأديبُ الذي يَكتبُ (أو على الأَصَحِّ يَنْكَتِبُ) اليومَ بهذه اللغة، ويؤمن بهذه القدسيّة إيمانًا حقًّا، قد يُضَحِّي بشُهرة زَائفة مُستَعارة وموقّتة، لكنّه على يقين من أنّه سَيَكسِبُ، من جهة ثانية، خاصّيّةَ الكونيّة الوجوديّة، وسَيَبْتَلُّ بِرَذَاذِ قدسيّة اللغة التي يكتب أو ينكتب بها. فكم هو جميلٌ أن يبلغَ الأديبُ الكونيّةَ وهو يَكتُبُ بِهذه اللُّغَةِ المقدّسة! وكم هو وَاهِمٌ من يعتقد أنّه سيصلُ إلى العالميّة من داخلِ لُغةٍ أخرى، بدون أن يَفْقِدَ هويّته وقداسته، لأنّ الأديبَ العربي حقًّا هو من يكتب بلغة عربيّة، ولو كان غير عربي! كما أنّ الأديب الذي يَدَّعِي أنّه عربي، ويكتب بلغة غير العربيّة، ليس محسوبًا ضمن دائرة الأدب العربي على الإطلاق مهما ادَّعَى، لأنّ اللغةَ العربيّة وطنُ الأدب وتجربةٌ وجوديّة وانتماء حضاري، قبل أن تكون أداةَ تواصل. وهي إن أَعْطَيْتَهَا كُلَّكَ، أَعْطَتْكَ بَعْضَهَا، وكما قال الروائي الفرنسي ألبير كامو: «إنّ وطني حَقًّا هو اللغة الفرنسيّة».

وها نحن نستأنف، من جديد، المَشْرُوعَ الإبداعي، والرابطةَ الأدبيّة والروحيّة فيما أسميناه في بيان سابق **الكتابة بالنور**، مع هذه

الرواية التي تحملُ عُنوانَ: **طواسين الغزالي**. ولعلَّ القارئَ يُسائِلُنا عن عِلِّيَّةِ هذا الربط بين الطواسين والغزالي. لقد حاولتُ تَبْدِيدَ الإجابةِ عن هذا السؤال في أعطاف الرواية، وضِمْنَ مَشاهِدِهَا (طواسينها)، لكنّي أعودُ فأقولُ إنّ لكلِّ اسمٍ حُكمًا، وحُكمُ اسم «**الغزالي الطوسي**» أن يرتبط بغَزْلِ ثوب أنوار طاسين. هذا على مستوى اللفظ. أمّا على مستوى المعنى، فالفتى الطَّاسِينِيّ هُوَ المُتَحَقِّقُ بصفةِ الكَلام الأَزَلي. وقد كان الغزالي الطوسي مُتمكِّنًا في هذه اللغة الأزليّة المقدّسة. وأفضل ما يُناسبه من المنازل هو سورة النَّمل المفتتحة بـ: **طس**. ولكون هذا المنزلِ يُشْهِدُ صاحبَه نُورَ الأنهار حين يَطْلُعُ النجْم، فإنّ تلكَ الأنهارَ تقعُ في أربعةِ أَبْحُرٍ (كُتُبٍ): بحرِ الأرواح (عيسى عليه السلام)، وبحرِ الخطاب (موسى عليه السلام)، وبحرِ المزمار (داود عليه السلام)، وبحرِ الحبّ (محمّد عليه الصلاة والسلام). ثم تجتمعُ تلكَ الأبحرُ لِتَصُبَّ في البحر المحيط. وقد تنازعتِ السَّواحلُ حولَ تلك الأبحر، فَكُلٌّ يَدَّعِي بها مَدًّا وجَزْرًا، وهي عن تلك الصفة عارية، ولغير تلك الشُّطْآنِ سارية، لأنّها من عَيْنِ البحر المحيط نابعة. فالسواحلُ هم الوَرَثَة لعلومِ أمواج أولئك الأبحر، وهم الرسُل، أصحابُ تلك الكُتبِ. أمّا البحرُ المحيط فهو علمُ الله الذي تَنْبُعُ منه كلّ تلك الأبحر، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وقد كان الإمام الغزالي كلمةً من كلمات الله، حتى فَسَحَ له الحَقُّ السطوةَ في الحُجَّةِ والبَيَانِ، والبَسْطَةَ في العِلْمِ مِنْ دَاخِلِ مِشْكَاةِ الأَنْوَارِ المحمَّديّة، حتى لقد

حُكِيَ واشْتُهِرَ عن الشيخ العارف أبي الحسن الشاذلي، أنّه رأى النبي (عليه الصلاة والسلام) في المنام، وقد باهى موسى وعيسى (عليهما السلام) بالإمام الغزالي، وقال: «أَفِي أُمَّتَيْكُمَا حَبْرٌ مِثلُ هذا؟ وأشار إلى الغزالي، فقالا: لا». لقد كان الغزالي من أهل الصدِّيقيَّةِ العُظمى الذين رَأَوا البحر المحيطَ، وشعارُهُمْ «ما رأيتُ شيئًا إلّا رأيتُ الله قَبْلَهُ». وكتاب الإحياء للغزالي مشروع مُتَجَدِّدٌ[1] لأنّ بَعْثَ الحياة في جسم الأُمَّةِ عمليّة تحتاج اليومَ إلى خوض غِمَار **الفَجْوَةِ المعرفيّة** في ثلاثة اتّجاهات متداخلة: اللغة، والعقل، والتعَلُّم. لكنّنا نُضيف بُعدًا رابعًا، هو القطب الناظم للأبعاد الثلاثة السابقة، وهو البعد العرفاني الروحي الذي يُكَذِّبُ ذلك أو يُصَدِّقُهُ، لأنّه المبدأ المحتَكَمُ إليه دومًا.

بين المُحْيِيَيْنِ، أبي حامد والحاتمي، وشائجُ كبيرة في المعارف الإلٰهيّة، وأَسُوقُ على تصديق هذا الزعم حادثتين من عالم الملك والشهادة، أَجِدُنِي أُقاوِمُ نفسي حتى لا أَضِنَّ بِتَقَاسُمِهما مع قارئِ هذا العمل.

قبل شروعي في كتابة هذه الرواية بخمسة أيّام[2]، حصل لي حالٌ عجيبٌ[3] لدى مطالعتي لكتاب الإمام الغزالي **المنقذ من**

---

(١) نعتبر محاولة الدكتورة سعاد الحكيم، إعادة كتابة الإحياء تحت عنوان: **إحياء علوم الدين في القرن الواحد والعشرين** (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٤)، داخلة في نسق التجديد والإحياء الذي نتحدّث عنه.

(٢) وذلك يوم الخميس ٤ ربيع الأوّل ١٤٣١/ الموافق ١٨ ـ ٢ ـ ٢٠١٠.

(٣) حصل لي حال مماثل قبل الشروع في كتابة رواية **جبل قاف** (انظر الإهداء).

الضلال، إِثْرَ حَديثِه عن الأزمة الرُّوحِيَّةِ التي مَرَّ بها، واعتقالِ لسانه تمامًا عن الكلام في بغداد سنة ٤٨٨ هـ، إذ رأيتُ، في مَشهدٍ بَرزخي، الإمامَ أبا حامد يُلبِسُني رِدَاءَهُ ثم يدعوني لكي نَطير معًا إلى بلاد الصِّدِّيقِيَّة، ولم تَمْضِ خمسةُ أيّام على هذه الرؤية المباركة حتى شَرَعْتُ في كتابة هذه الرواية.

أمّا الحادثة الثانية، فهي أَطْرَفُ من سابقتها لكنّها تُؤَكِّدُهَا. يوجد بالقُرب من محلّ سكناي شارع يُعْرَفُ بـ «شارع الحاتمي»، وغالبًا ما أسلكُ منه للوصول إلى بيتي، إلّا أنّه لمّا شَرَعْتُ في كتابة رواية الطواسين، استبدَلَتِ المصالحُ البلديّة المختصّة لمدينة الرباط اسمَ هذا الشارع، ليصبحَ «شارعَ الإمام الغزّالي». أَسِفْتُ وسَعِدْتُ لهذا التغيير المفاجئ في الآن ذاته. فللحاتمي مكانةٌ في قلبي، وللغزالي مَكانةٌ لا تَقِلُّ عنها، لكنّي استَبْشَرْتُ خيرًا لأنّ هذا التَّغيير «وَافَقَ» شُروعِي في كتابة هذه الروايةِ المخصَّصَةِ للغزالي في الأسبوع نفسه. وفي اليوم الموالي، تبيَّن لي أنّ الشارعَ في بدايته يحملُ اسمَ الغزالي، ثم يستمِرُّ بعد المنعطف تحتَ اسم «شارع الحاتمي». تحوَّلَ أَسَفِي الفَارِطُ سَعادةً غَامِرَةً، وحَمِدتُ الله الذي جمعَ لي في الشارع نفسه بين رجلين أُجِلُّهُمَا، لأنّهما خَاتمةُ نُورِ المشرق وسِرِّ المغرب.

وفي هذه المُوافَقَاتِ الرَّبَّانيّة إِشَاراتٌ، أَجِدُنِي أَصُبُّهَا في سَبَائِكِ هذه العِبارات، حتى لا أَضِنَّ بها على مَنْ رَزَقَهُ الله حُسْنَ الفهمِ عن الله.

وأختم هذا البيان بما تجلّى عليَّ من نفائس منزل طاسين على صُورَةِ رُوحِ حَوَّاء في هذه السِّينِيَّة الغزليّة:

قد سَبَانِي مِنْ بني العُرْبِ رَشَا ... مَثْنَوِيُّ الصَوْتِ مُلْكِيُّ النَّفَسْ
قَد نَغَى حَرْفًا وَلَفْظًا بِالمَسَا ... فاسْتَوَى في الصُّبْحِ لَحْنًا إذْ هَمَسْ
سَاحِرُ العَيْنَيْنِ عَسْلِيُّهُمَا ... نَاعِمُ الوَجْنَةِ شَهْدِيُّ اللَّعَسْ
قَامَ يَمْشِي فِي دَلاَلٍ بَهِجًا ... فَاعْتَرَى عِطْفَيْهِ بُطْءٌ وَمَيَسْ
وانْثَنَى يَلْوِي قَضِيبًا لَيِّنًا ... خِلْتُ مِنْ رُؤْيَاهُ ثُعْبَانًا عَبَسْ
وَاعْتَرَتْنِي دَهْشَةٌ مِنْ طَرْفِهِ ... أَقْصَدَتْ قَلْبِي بِنَبْلٍ قَدْ نَهَسْ
قُلتُ مَا لِي يَا حَبِيبِي مَلْجَأٌ ... غَيْرَ صَدْرٍ يَحْتَوِينِي بِالكَيَسْ
قَالَ مَهْرِي يَتَحَامَاهُ الوَرَى ... يَتَفاداهُ الذي يَخْشَى الفَلَسْ
قلتُ مَالِي وَمَتَاعِي والحَشَا ... كُلُّهَا مَهْرٌ يَسِيرٌ يَا قَبَسْ
فَرَمَى الزُّنَّارَ والخَيْطَ لَنَا ... قَالَ خُذْ عُرْبُونَ وُدٍّ في غَلَسْ
يا غَزَالِي قَدْ غَزَانِي عُنْوَةً ... جَيْشُ نَمْلٍ نَاطقٍ رَغْمَ الخَرَسْ
نَاسِجٍ غَزْلاً رَقِيقًا سَاطِعًا ... مِنْ سَنَا طَاسِينَ، نُورًا قَدْ لَبَسْ

د. عبد الإله بن عرفة

الرباط، المغرب

﴿طَس تِلْكَ آيَاتُ القُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾

وطَاسِنُ جَاءَ مُقْتَبِسًا لِنارٍ وكلَّمَهُ المهيمنُ بالوُجودِ

ابن العربي الحاتمي

طاسين التكوين

طَسَّ البِشْرُ إلى طوس بقرب ولادة نجم حُجَّةِ الإسلام.

في سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م دخل البساسيري، حليفُ الفاطِمِيِّينَ الشِّيعة إلى بغداد، وأمر الخليفةَ العبّاسي القائم بأمر الله أن يكتب وثيقة خطِّيَّةً يعترف بأنْ لا حقَّ له أو لأحدٍ من بني العبّاس في الخلافة الإسلاميّة، وأنّ الحقَّ للفاطميّين وحدَهُم. أخذ البساسيري من الخليفة ثوبَه وعمامته وشبّاكه (كرسيَّه) وأرسلها إلى المستنصر، خليفة الفاطميّين في مصر. خرج الخليفة من بغداد وأعلن البساسيري من فوق منبر جامع المنصور الدعاء للخليفة الجديد، وأصبحت بغداد تابعة للقاهرة الفاطميّة لأوّل مرّة في التاريخ.

مكتبة الرمحي أحمد

في ليلة باردة مِنْ شِتاء هذه السنة، كانَ أَحدُ بيوتِ قريةِ غَزَالة في مدينةِ طوس بخراسان يَشهدُ ولادةَ طفلٍ صَغِيرٍ، هاجر أَجدَادُهُ من جزيرة العرب واستَقرُّوا في خراسان.

وكان مُؤَسِّسُ دولةِ السَّلاجقة السُّنِّيّة طغرل بك يستعدّ لدخول بغداد وإعادة الخليفة القائم بأمر الله إلى قصره.

تسارع الطَّلقُ بزوجة محمّد الغزَّال وخرج منها الماء، فأسرع المسكين خارج البيت ليأتي بجارتهم القابلة. وصل إلى بيتها وحبَّاتُ المطر تُبَلِّلُ ثيابَه، وشُعلَةُ السِّراج الذي يحمِلُه تُقاوم الريحَ من داخل المشكاة الزجاجيّة. طرقَ بابَ القابلة قرعًا متسارعًا فأجابته امرأة مُسِنَّةٌ قائلةً:

مَنِ الطَّارِقُ؟

فأجاب: أنا جَارُكِ محمّد الغزَّال.

سارعَتِ المرأةُ إلى التَّلَفُّع في مُرْطِها وهبَّتْ مسرعةً لِتَفتحَ البابَ، ثم قالت: ما الذي أتى بك في هذه الساعة المتأخّرة يا غَزَّال؟

فقال: أَدْرِكِيني يا أُمَّ أيمن، لقد خرجَ الماءُ من زوجتي وتَسارعَ بها الطَّلْقُ، وقد أَوشَكَتْ على الوَضْعِ ولا أدري كيف أَصْنَع.

فأجابت المرأة: أمهلني لحظةً حتى آخُذَ أغراضي.

ثم إنّها تذكَّرتْ شيئًا فأضافتْ: بل اسبِقْنِي وأَوقدِ النارَ لِتَسخينِ الماء، وحَضِّرْ مجموعةً من المناديل، وسألحقُ بك سريعًا.

فأجابَ وهو منطلقٌ نحو بيتِه: حاضر.

أَسْرعَ الغزَّالُ إلى بيته ليجدَ زوجتَه تدفعُ بكلِّ ما أُوتِيَتْ من قوّة لِيَخرجَ الولد. ومع أنّ الفصلَ باردٌ إلّا أنّها كانت تتصبَّب عرَقًا. أَمسكَ محمّد بيدها، ومسح جبينَها وقبَّلها بين عينيها، ثم صلَّى في خشوعٍ من أجل تَيَسُّرِ ولادَتها. وهنا تذكَّرَ أنَّ عليه أن يضعَ الماءَ لكي يَسْخُنَ، فقام مُسرعًا بعد أن ابتسمَ لزوجته. رمى بعضَ الحطبِ على النار، وملأ قِدْرًا بالماء، ثم أخذ بعضَ المناديلِ ووضعَها قربَ السَّرير. وما هي إلّا لحظاتٌ حتى دخلَتْ أمُّ أيمن. عاينتِ القَابِلةُ الماءَ الذي خرج من المرأة فقالت: لقد وصلتُ في الوقت المناسب، ولن يتأخَّر أمرُ الوضع بإذن الله.

جلستِ المرأةُ بجانب الحامِل، ومسحَتْ جبينَها وطيَّبتْ خاطرها بكلمات ممّا تقوله القابلات في هذه المناسبات. ثم التفَتَتْ إلى محمّد وقالت له: هل جهَّزتَ الماء والمناديل؟

فأجاب: ها هي المناديل، والماء على النار، وقد بدأ يَسْخُن.

فقالت له: ائتِني بآنيةٍ أُخرى وصُبَّ لي فيها ماءً.

ثم أضافت: والآنَ أرجوكَ أن تترُكَنا بمفردنا حتى أُناديك.

خرجَ محمّد وبدأتِ المرأةُ في مُباشَرَةِ عمَلِها، فأزاحَتِ الأغطيةَ عن الحاملِ، وغَسلتْ يديها في الآنية وهي تُردِّدُ الصلاة على النبيّ. ثم أدخلَتْ يدَها في رَحِم المرأة وأخذتْ تُعاينُ وضعَ الوليد فلَمَسَتْ رأسَه الصغير. أخرجَتْ يدها، ثم أخذَتْ تُلقِّنُ الحاملَ كيف تتنفَّس نفَسًا عميقًا وتُزامِنُ ما بين الشَّهيق والزَّفير، لتدفعَ الوليدَ إلى

الخارج. لم تكنِ الحاملُ تَعرفُ كيفَ تَصنعُ، لكنّها أخذت تُقلِّدُ القابلةَ. وما هي إلّا لحظات قليلة حتى أطلَّتْ هَامَةُ رَأْسِ صَبِيٍّ مَليح. زَغْرَدَتِ القابلةُ، وصلَّتْ مرّةً أُخرَى على النبيّ. لم يَطُلِ الوقتُ كثيرًا حتى دَفعَتِ المرأةُ دفعةً كبيرة فهَلَّ صارخًا بصرخات ضعيفة، ثم خرجَ بالكامل. زغردتْ مرّة أخرى، ولم تَكُفَّ عن الصلاة على النبيّ. أخذَتْ منديلاً مَسَحَتْ به الجِسْمَ الهَشَّ، وناوَلَتْهُ لأُمِّهِ بسرعة.

نظرَتِ الأُمُّ إلى وليدِها فابتسمَتْ وجَرَتْ دموعُها في صمت. انشغَلَتِ القابِلَةُ بقَطْعِ السُّرَّة وإزالَةِ المَشِيمَة، ثم غطَّتِ المرأةَ مرّة أخرى، ونادتْ على زوجِها الذي كان وراء الباب ينتظرُ إشارتَها، دخلَ المسكينُ مُسرِعًا، ودمعَتَانِ يتيمتان حاول إخفاءَهُمَا فضَحَتا فرحتَه، لكنّه تقدَّم باتّجاه زوجته ووليده واحتضنَهُما برفق. اختلطت الأنفاس بالأنفاس وغاب الكُلُّ في الكُلِّ، حتى نبَّهتِ القابلة محمّدًا لكي يأخذ وليده ويُؤَذِّنَ في أذنه اليمنى ويُقيمَ في الثانية. أخذ الرجل ابنَه وهو يحاذر في الإمساك به مخافةَ إيذائه. فلم يسبق له أن عالج جسمًا صغيرًا كهذا من قبل.

أدنى شفتيه من أُذُنَيْ وليده الصغيرتين وأخذ يهمس فيهما. وأثناء نطقه بالشهادتين فَتَرَتْ شفتا الصبي بنغنغة لطيفة، وحاول فتح عينيه تجاه والده. سُرَّ الوالد بهذه الحركة الجميلة واستبشر بها خيرًا، ثم أكمل المطلوب. وبعد أن أكمل العهد الأزليّ بين والد وولده، أعطته القابلة تمرة طيّبة، وطلبت منه أن يَلُوكَهَا ثم يُحَنِّكَ بها الطفل الصغير ففعل.

وبعد ذلك غسلت القابلة الوليد بماء دافئ ومسحتْ جسمه البضَّ الذي زال عنه امتِقاعُ الوَضع. ثم صنعتْ له فراشًا بسيطًا قرْبَ والدته. لكنّه تحوَّل برأسه إلى جهة أُمِّهِ كما لو أنّه يطلب لبنها. أخذته المرأةُ فانقاد إلى ثديها الأيمن في حركة عفويّة، فَدَرَّ الحليب في فم الصبي الذي بدأت حبَّاتُ عرَقٍ تَرْشَحُ من جبينه جرَّاء الجهد الذي يبذله في امتصاص الحليب. وبعد أن استوفى من الرضاع تحوَّلَ إلى ثدي أمّه الأيسر، تُهَدْهِدُهُ نبضاتُ قلبها حتى نام.

بقيت القابلة مع الأمّ تؤانسها وتعتني بشؤونها طول الليل. أمّا محمّد الغزّال فقد دَلَفَ إلى غرفة ثانية وأمضى ليله في الدعاء والصلاة والعبادة. وفي الصباح عَلِمَ الجيران بالخبر فصنعوا طعامًا بالمناسبة، وحضر أهل الحيّ وفرحوا بهذا الوليد الجديد.

وُلد محمّد في قرية غَزَالة من أعمال مدينة طوس بالطابران في إقليم خراسان. فرح الوالدان بهذه الزيادة فرحًا بالغًا لأنّه كان أوَّلَ بِكْرٍ يُرزَقانِه. كان محمّد الغزّال سعيدًا ودعا أصدقاءه من فقراء البلد لحضور الوليمة التي أقامها في سابع المولد. ذبح خروفًا أهداه إليه أحد أصدقائه من شيوخ البلدة. لقد كان محمّد كثيرًا ما يُسارع إلى خدمة الفقراء والفقهاء، ويصرف عليهم من ماله القليل. وفي هذه المناسبة وصله خروف في ليلة العقيقة من أحد الشيوخ الذي كان يوزّع ما يأتيه من ساعته ويَبْقَى على الكَفاف. كان الكبش ممّا أهداه أحد القرويّين للشيخ الصالح بعد أن شفاه الله من مرض

أَلَمَّ به حتى يئس الأطبّاء من علاجه، فَدلَّهُ أحد الأخيار على الشيخ الصالح فدعا له بالشفاء فشُفي من مرضه. وبعد نقاهته أتى بالكبش للشيخ، فصادف ليلةَ عقيقة ابن محمّد الغزّال، فصرفه لمن هو أَحْوَجُ إليه آنذاك، وهو صاحبهم الغزَّال. كان دور الشيوخ هو إعادة توزيعِ الفُتوح لمن هو أَحَقُّ بها في الوقت.

فرح محمّد بالهديّة وسأل الشيخَ الصالحَ الدعاءَ لولده، فدعا له قائلاً: اللهمّ اجعله حجّة على العالمين وأحْيِ به الملّة والدين.

سمَّى الغزَّالُ وزوجتُه ولدَهُما محمّدًا، ونسباه إلى القرية التي ولد فيها، فقالا «الغَزَالي» بالتخفيف. مرَّت أيّام الاحتفال وعاد الوالد إلى دكّانه لغزل الصوف وبيعه. وعادة ما كان يأتي إليه بعض أصدقائه من الفقراء يحدّثونه عن طريق الإرادة. ومن بين هؤلاء صديق صوفي كان من جملة جلسائه. سأل ذلك الرَّجلُ الغزَّالَ قائلاً: كيف حال ابننا محمّد الغزالي؟

ـ لقد بدأ يحبو وينطق ببعض الكلمات القليلة، وإنّي أتوسّم فيه علامات الخير، لكنّي قلق عليه بعض الشيء.

فقال الصوفي: ولماذا أنت قَلِقٌ؟

فقال الغزَّال: لقد امتهنتُ غزلَ الصوف وبيعَه، وأنت تعلم أنّي أحبّ مجالس أهل العلم والصلاح. وأرغب إلى الله أن يتمكّن ابني من سلوك هذا الطريق، لكنّي رجل فقير، ومدخولُ هذا الدكّان لا يكاد يكفي لإعالة أسرتي الصغيرة، فكيف بالإنفاق على التدريس.

فقال الصوفي: لا تقلق يا أبا محمّد، وأَسقِط التدبير مع صاحب التدبير.

قال أبو محمّد: كم هو لطيف هذا الكلام! هل هو من كلامك؟

فقال الصوفي: العبارة لي والمعنى لأستاذي.

أبو محمّد: ومن هو أستاذك؟

فأجاب الشيخ: إنّه أبو القاسم القشيري.

فقال أبو محمّد: وهل هو بطوس؟

فقال الشيخ: لا يا أخي، ولو كان بطوس لذهبت إليه. لقد حلَّت بنا المحنة. فقد كان الشيخ يُدَرِّسُ بنيسابور ويَعقِدُ مجالسَ التذكير. وحَصلتْ له شهرة واسعة أثارت الحقد والحسد في نفوس بعض المتكلّمين والفقهاء، فسعوا إلى الحَطِّ منه لدى الناس وعند السلاطين السلجوقيّين.

سأل أبو محمّد: ومن هم هؤلاء؟

قال الشيخ: إنّهم من بعض المعتزلة والحنابلة. فقد أشاعوا عنه تهمًا واهية وأكاذيب زائفة، حتى حلَّت به المحنة، فأمر عميد الدين الكُندري، وزيرُ السلطان طغرل بك الذي كان كثير الوقيعة في الشافعي، أن يُلْعَنَ الأستاذ من فوق المنابر وأن يُقبَضَ عليه. ثم أرادوا إجبارَه على لَعْنِ الشافعيّة والأشعريّة، فأبى. وأخيرًا، انتهى به الأمر إلى الخروج من نيسابور مُشرَّدًا طريدًا بعد أن تفرَّق شمل

أصحابه، وأُلغِيتْ مجالس التذكير والوعظ التي كان يعقدها، فوصل إلى بغداد. وقد خرج من خراسان على إثر هذه المحنة كثير من العلماء، من أبرزهم الإمام عبد الملك الجويني.

فسأل أبو محمّد: وما هو مذهب الشيخ حتى يُعامَلَ هذه المعاملة؟

فقال الصوفي: لقد كان مذهبه وسطًا بين تجريد المعتزلة وتشبيه الحنابلة. ولقد كان يميل إلى الأشعريّة في العقيدة والشافعيّة في الفقه.

أطرق أبو محمّد مليًّا وتوقَّف عن غزْل الصوف بِنَوْلِهِ، ثم التفتَ إلى صاحبه قائلاً: وماذا حلَّ بشيخك الآن؟

فقال الصوفي: إنّه ببغداد، وقد أكرمه الخليفةُ القائم بأمر الله إكرامًا كبيرًا وقرَّبه وأدناه. كما عقد له مجلسًا في قصره. وقد صدر الأمر من هناك بإعزازه وإكرامه، فعاد إلى نيسابور عاصمة إقليم خراسان. ويأتي عليه زمن يختلف فيه إلى مدينتنا طوس.

فقال أبو محمّد: بالله عليك يا أخي إلّا أخبرتني حينما يأتي إلى طوس حتى تُعرِّفَني به، وأَشهدَ أحد مجالسه.

فأجاب الصوفي: يفعل الله خيرًا، وادعُ الله معي أن يرفع عن بلادنا حكم هؤلاء العمَّال الطغاة، حتى يعود الشيخ إلى التدريس كما كان. ثم قام الصوفي وودَّع صاحبه.

أمضى أبو محمّد يومه في دكّانه يغزل الصوف ويبيعه. كان

همُّه أن يُوفِّرَ المال حتى يدفع بابنه محمّد إلى مجالس العلماء الصالحين. لقد كانت مهنتُه شاقّة، غير مُدِرَّةٍ للربح. فلكي يُمَكِّن ابنَه من التَّعلُّم كان لا بدّ أن يجمع مالاً كافيًا.

في المساء، عاد الرجل إلى بيته، فدخل على زوجته وولده وقبَّلهما، ثم أسرَّ إلى أمّ محمّد بما في نفسه.

* * *

مرَّت سنوات قليلة، ورُزِقَ أبو محمّد بولد ثان سمَّاه أحمد، لكن زوجتَه تُوفِّيت بعد مدّة قصيرة من إنجابها. حزن الرجل حزنًا شديدًا على فقدان زوجته وتحيَّر في أمر كفالة ولديه والعناية بهما. لقد كان رجلاً مؤمنًا مُسقِطًا للتدبير ممّا تعلَّمه من أصحابه الصوفيّة، تلامذة الأستاذ أبي القاسم القشيري.

درج الصَّبِيَّان، أحمد ومحمّد، يتيمين، لا أُمَّ لهما، فحزن محمّد على غيابها، رغم أنّه كان في غَضاضة الصِّبا ورَيعان الطفولة، لكنّه أحسَّ بفقد أمّه الصالحة التي كانت تبثُّ فيه الرغبة في التعلّم، لكيلا يسلك مسلك زوجها المُعدِم.

كان والده مهمومًا كاسفَ البال مُطرق الرأس، ولطالما تساءل الولد الصغير عن سرِّ تلك الطأطأة، فيحدِّثُ نفسَه قائلاً: لماذا يُطْرِقُ الإنسان برأسه إلى الأرض؟ هل يبحثُ عن شيء ما؟ هل يحنُّ للعودة إلى أصله؟ ولماذا كان والده يأخذ ذلك الوضع؟

هل لأنّ عمله في غزل الصوف يفرض عليه هذا الوضع أبدًا، أم أنّ تَواضُعَهُ وفقرَه يَشُدَّانِه إلى الأرض؟ لماذا ليس من حقِّنا أن ننظر إلى أعلى؟ لماذا كُتِبَ على الفقراء من أمثالنا أن ينظروا فقط إلى الأرض؟ ولماذا ينظر الأغنياء وأبناؤهم دومًا إلى أعلى؟ أليس لنا حقّ في السماء وفضائها؟ تلك بعض الأسئلة التي كانت تُراوِدُ الصبيّ، فيَطْفَقُ يُقلِّبُ نظرَه في السماء ثم يَهوي به إلى الأرض في حركات مُتتالية، لكنّه كان يَتْعَبُ من كِلا الوضعين فلا يأنَسُ بالنظر إلى السماء طويلاً، كما لا يأنس بالإطراق إلى الأرض. خَلُصَ من ذلك إلى أنّ السعادة والراحة هي في هذا الانتقال من أرض إلى سماء، والعكس. فأين الأرض في الإنسان وأين هي السماء؟ بل ما هي أرض الإنسان وما هي سماؤه؟ تخيَّل الصبيُّ أنّه أصبحَ أرضًا تَنْبُتُ بكلّ شيء، ويَطرَحُ عليها الناس قذاراتِهم. ثم تخيَّلَ أنّه أصبحَ سماءً تُمْطِرُ الجميعَ بالماء وتُلْهِبُهُم بشمسها المحرقة. كان يحاول أن ينتقمَ من هذه السماء المتعالية فيُصَوِّبُ نحوها أحجارَه الصغيرة الناقِمة، لكنّها تَكِرُّ فتعودُ إليه، فلا يفهمُ سِرَّ رجوعِ تلك الأحجار. بدأ أخيرًا يَفهمُ أنّ الأرض تقبل منه كلَّ شيء، لكنّ السماء لا تقبلُ منه أشياءَه وتَرُدُّها عليه. الأرض أَرأَفُ به من السماء، لهذا كان والدُه يُطْرِقُ نحوَها، أمّا السماء فلعلَّها لا تَقْبَلُ إلّا بعض الأشياء التي لا يَملِكُها. وعليه أن يَجْهَدَ في امتلاكها. لقد قرَّر أن يَطلُبَ أمورَ السماء. ولْتَكُنْ حياتُه بحثًا عن الأمور التي تقبَلُها السماء. لم يكن يَعْرِفُهَا بَعْدُ، لكنَّه سيسعى لاكتسابها وتَعلُّمِهَا. لقد قَبِلَتِ الأرضُ جُثمانَ أُمِّهِ ولم تَقْبَلْهُ السماء، فهل في أُمِّه بعضٌ ممّا سَتَقْبَلُهُ

السماء؟ لقد أخبرَهُ والدُه أنّ رُوحَها صَعِدَتْ إلى السماء. لكنّه لم يَعلمْ معنى هذه الروح، هل هي شيء يُدرِكُهُ الكبار فقط، لأنّه لم يَرَ روحَ أُمِّه لمّا وُورِيَ جُثمانُها الثَّرى؟ سيسعى في تحصيل هذا الروح ومعرفتِه. وهل له روحٌ كما لأمّه؟ لعلّ في الإنسان أشياءَ غير ظاهرة تَقْبَلُها السماء ولا تقبلُها الأرض. كانت هذه هي خلاصةَ ما انتهت إليه أفكارُ الصبي المكلوم بفقد أمّه. لقد حاول أن يبعثَ روحَه لتلحقَ بأمّه. وحدَّث أباه بالأمر، فنهاه عن ذلك وضمَّه إلى صدره، وأخبرَه أنّ الروحَ لا تُفارقُ صاحبَها إلّا عند موته حين ينتقلُ من هذا العالم إلى العالم الآخر. ولشَدَّ ما كانت رغبةُ الصبيِّ عارمةً في السفر إلى ذلك العالم. لقد كان فضولُه قويًّا في اللَّحاق بأُمِّه. لكنّه استنتجَ أنّ سفرَه إلى هناك يعني عدمَ عودته إلى هنا، لأنّ أمَّه لم تعد بَعْدُ، وربّما لن تَعودَ أبدًا.

كانت هذه الأفكار تَتزاحمُ في ذهن الصبي وتُؤَرِّقُه، لكنّه قرَّرَ أن يَسْتَكْنِهَ أمر الروح وتحقيقَ السعادة والسفر في العوالم كلِّها. سيتعلَّمُ من أبيه سِرَّ الغَزْل، ويَصنعُ حبلاً يرتقي به في السماء. سيصبحُ حدَّادَ نفسه في الأرض، وغزَّالَ روحه في السماء. لقد سمع من أبيه أنّ الغَزَالَةَ هي الشمس، فله حقٌّ في السماء التي تتوسَّطُها الغَزَالة لأنّه معروف بالغَزَالي، فلعلّه يَغزِل غزلاً رقيقًا كخيوط الغَزَالة ليرتقي به إلى وطن الأرواح.

* * *

في رمضان من سنة ٤٥٥ تُوفّي السلطانُ طغرل بك بعد اجتماعه في بغداد بالخليفة القائم بأمر الله. ولمّا غادر بغدادَ قصد الريّ، واستصحب معه أرسلان خاتون، ابنةَ أخيه وزوجةَ الخليفة. وقد تُوفّي عن سبعين سنة. وبعد وفاته أجلس وزيرُه عميدُ الملك الكُندُري في السلطنة، أَخَا السلطان سليمان بن داود. لكنّ الأمراءَ اختلفوا عليه وخطب بعضهم للأخ الثاني للسلطان، عضد الدولة ألب أرسلان، صاحب خراسان ومعه وزيره نظام الملك. ولمّا توطَّدَ الأمرُ للسلطان ألب أرسلان، طلب من وزيره نظام الملك أن يمسكَ بالكندري، الوزير السابق ويَقتُلَهُ، فَفَعَل.

استبشر علماء خراسان من موت الكندري الذي سامَهُمُ الخَسْفَ والعذاب والنَّفي واللَّعن، وصدر الأمرُ بإعادتهم إلى بلدانهم مُعزَّزين مُكرَّمين. ومن بين هؤلاء الإمام الجويني والإمام القشيري. عاد أبو القاسم إلى نيسابور ووصل إلى طوس، فجاء

الصوفي إلى صديقه أبي محمّد الغزّال ليَحضُرَا درسًا سيلقيه الأستاذ في المسجد بطوس. فرح أبو محمّد بلقاء الأستاذ وقرَّر اصطحاب ابنه الصغير محمّد إلى الدرس حتى ينالَ من بركة الشيخ ودعائه له.

بعد الصلاة جلس الشيخُ على كرسيّه، وتكلَّم في التوحيد فقال: قال إمام الطائفة الجنيد رحمه الله «التوحيد إِفْرَادُ القِدَمِ مِنَ الحُدُوثِ». ثم ذكر أقوالهم تباعًا وعلَّق عليها. كما حمد الله على رَفْعِ المحنة التي حصلَتْ له ولأصحابه ولأهل خراسان.

كان كلام الأستاذ يَعْلَقُ بقلب الغزَّال عُلوقًا خاصًّا، بحيث كان يَنْفُذُ إلى لُبابه بسرعة متناهية، فيدركُ المقصودَ من أدنى إشارة. أمّا الصبيّ محمّد، فقد كان حظُّهُ من الفهم سرورَه بالجلوس في هذا الجَمع المَهيب.

وبعد أن أنهى الأستاذ درسَه قام إليه الناس يُقبِّلونَ يده، يتبرَّكون به ويلتمسون منه الدعاء. بقي الغزَّال وصديقُه ينتظران حتى خفَّ الناس عن الشيخ فتقدَّما إليه. كَبَّ الصوفي على يد الأستاذ يُقبِّلها، فقلَّدَه محمّد الغزَّال في صنيعه وأخذ اليدَ المباركةَ يَلْثِمُها. في هذه الأثناء لمحَ الأستاذُ الصبيَّ إلى جانب والده فتفرَّس فيه وحصل له حال عجيب، ثم عاد إليهم فَرِحًا مستبشرًا، وأخذ الصبيَّ وقبَّلَهُ بين عينيه ودعا له وقال لوالده: أُوصِيكَ خيرًا بابنك هذا، وَاحْرِصْ على تعليمه إن استطعتَ إلى ذلك سبيلاً، وَاصرِفْ عليه مالَك، فسيكونُ له شأن عظيم. ثم أخذ كيسًا به بضعةُ دنانير وسلَّمَه للوالد وقال: هذا قسطُ أَهْلِ الإرادَةِ في تعليم ابنك. وهو كلُّ ما

لديَّ فاصرِفْهُ على تعليمه، وأَدْخِلْهُ إحدى هذه المدارس، سواء في جرجان أو نيسابور. وإنّي أسأل الله أن أُدرِكَ عَصْرَ ولدِكَ هذا حتى أنصُرَهُ، فإنّه الحُجَّة الناطقة لهذه الملّة.

شعَّ بريقٌ عجيبٌ في عينَي الأستاذ، ومسحَ بيده على رأس محمّد الصغير ثم انصرف. أقبلَ الصوفي على صاحبه يهنِّئُهُ بهذه البشارة التي أَتَتْ من الأستاذ لولده، فقال الغزّال:

أسألُ اللهَ أن يرزقني الصِّحَّةَ وطولَ العمر حتى أقومَ بخدمة ولديّ وأرسلَهُمَا لطلب العلم، لكنّك تعلَمُ قِصَرَ يدي وضُعْفَ حيلتي ويُتْمَ صِبْيَتِي.

فقال الصوفي: لا عليك يا أخي، فسَيُدبِّرُ اللهُ أمرَهما، وإن كان بإمكاني أن أساعدَك فلن أَدَّخِر جُهدًا، فلا تقلَقْ بشأن أمرهما، وثِقْ بالله فإنّه الرزّاق ذو القوّة المتين.

فقال الغزّال: أرجوك يا أخي في الله أن تواعدني على أن تَتكفَّلَ بولديّ هذين إن حصل لي مكروه. وإنّي أضع بين يديك هذه الدنانير وشيئًا ممّا ادَّخَرْتُه، حتى تَتوَلَّى الإنفاق عليهما متى ما أخذني الله إليه.

فأجابه الصوفي: ما لي أراكَ تجنحُ إلى الآخرة ومُهِمَّتُكَ على الفانية لم تَنْتَهِ بعدُ. اِحْتَفِظ الآنَ بدنانيرِكَ، فلا أَمْلِكُ أنفاسي إذْ هي كلُّها لله. وما يُدريني أَنْ أُقْبَضَ بين نفَسٍ وآخر، وتبقى في ذِمَّتي دنانِيرُكَ وهي أمانةٌ لأولادِك. يا أخي نحن قوم لا نملكُ إلّا قوتَ يومنا ولا نَدَّخِرُ، فكيفَ لي أن أدَّخِرَ دنانيرَك، سوف يبقى قلبي

مُعَلَّقًا بكيفيّة تدبيرها، وستشغلني عمّا أنا فيه، ممّا بعثُه لله. ألا ترى أنَّ في دنانير، دُنُوَّ النِّيرِ، وأنت تعلم أنّ أدنى شيء إلى أعناقنا هو نِيرُ حَبْلِ الوُصول، وهي سُبَحُنَا هذه.

فأجاب: إنّني أحتاطُ لآخرتي فَقَطْ، وأُبْرِئُ ذِمَّتي أمامَ الله إذا ما أخذني إليه. فأنت تعلمُ أنّي وحيدٌ لا عصبيّةَ لي. وأنت صديقي العزيز وبيننا أُخُوَّةٌ روحيّة، فلعلّك تَقبلُ أن تعتني بالولدين إن أصابني مكروه.

فردّ قائلاً: لا تُفكِّرْ في هذا الأمر، ورغم أنّي رجل فقير أقضي وقتي في العبادة والعلم، فإنّي أُعاهدُك على العناية بهما جُهْدَ استطاعتي. ولنتحدَّثْ في أمر الدنانير مرّة أخرى، فاحتفِظْ بها الآن، فسُبحَتي أدنى لِنِيري من تلك الدنانير.

فقال أبو محمّد: باركَ الله فيك.

ثم نظر إلى ولده محمّد واستشعرَ الحزنَ في عينيه من هذا الحديث، حيثُ أدركَ الصغير بفِطرته البريئة أنّ هذا الحديثَ يَخُصُّه.

* * *

مضتْ بضعُ سنوات، والغزَّالُ يجتهد ويدَّخر جُلَّ ما يَكسبه لولديه. وفي الأيّام الأخيرة أحسَّ بتعَب شديد، عدا الفراغ الذي أحدثَهُ غيابُ زوجته الصالحة. فقد كان يَقضي يومَه في العمل، ثم يعودُ للبيت فيقومُ بأمور أخرى في خدمة ولديه اللذين كانا يقضيان الوقت في الكُتَّاب لحفظ القرآن.

وفي أحد مساءات طوس، صلّى الوالد العِشاء في بيته، ووقف الولدان محمّد وأحمد خلفه يصلّيان. رفع كفَّيه إلى السماء ودعا لهما دعاء قلبيًّا خالصًا. وجلس يسألهما عن الكُتَّاب والفقيه ومدى حفظهما:

كم حَفِظْتَ لحدِّ الآن يا محمّد؟

ـ لقد وصلتُ إلى سورة **النمل**.

فرح الوالد بولده وطلب منه أن يبدأ في قراءة السورة، فتلا الولد بصوته الجميل ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ القُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ هُدًى

وبُشْرَى لِلْمُومِنِينَ الَّذِينَ يُقيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. توقَّفَ الولدُ يَأخذُ نفَسه فبادرَهُ والدُه قائلاً: حقَّقَكَ الله بكمال الحقيقة المحمّديّة التي تتجلّى في هذه السورة. أَمَّنَ الصبي على دعاء أبيه. ثم سأل الوالدُ ابنَهُ أحمدَ: وأنتَ يا بنيّ، ماذا حفظتَ لحدِّ الآن؟ فأجاب الصبي:

ـ لقد وصلتُ بالحفظ إلى سورة النجم. ثم أسرعَ يتلو ممّا حفِظَهُ ﴿والنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلّا وَحْيٌ يُوحَى﴾. فقال الأبُ: وأنت يا أحمد، حقَّقكَ الله بجمال الحقيقة الأحمديّة اللائحة في هذه السورة.

طرِبَ الوَلَدانِ لهذه الجلسة التي جمعتهُما بوالدهما، وتحدَّثا عن أشياءَ كثيرة، فقال الأبُ: إِبْنَيَّ العزيزين، أريد منكما أن تطلبا العلم مهما كانت التضحيات، والله يعلم أنّي ما قصَّرتُ في تربيتكما بعد غياب أُمِّكُمَا، رحمةُ الله عليها. لقد كانت لي نِعْمَ العَوْنُ والنَّصير. لقد هُدَّ رُكنٌ عظيم بغيابها. لكنّ الأمرَ للهِ يحكمُ بما شاء. ولعلّ في غيابها فضيلةً، وهي أنّكما استطعتما، ولله الحمد، أن تتحمّلا المسؤوليّة على صغركما، وتَسْعَيَا في قضاء مآربكما، على خلاف الأطفال في مثل سِنِّكُما وإنّي مطمَئِنٌّ من هذه الناحية، فقد أكسبَكم اليتمُ نضجًا كبيرًا. وإنّي أريد منكما أن تَدْأَبَا على هذا النهج، وأن يُؤازِرَ كُلٌّ منكما أخاه.

لم تَرُقْ هذه النَّبرةُ لمحمّد الذي فَطِن إلى ما فيها من مُقدِّمات غير مُرْضِية، فقال لوالده: إِيهٍ أَبَتِ، أنت تعلمُ أنّنا نحبُّ

بعضُنا بعضًا ونسعى في قضاء أغراضنا ونَدْأَبُ على ذلك، كما نَجِدُّ في الحفظ والتَّعلُّم، ولكأنّي أفهمُ من كلامِكَ أنَّك عَزَمْتَ على سَفَرٍ.

أطرقَ الوالدُ يُفكِّر قليلاً، ثم رفعَ رأسَه ونظر إلى ولدِه البِكْر وقال له: هل تَذْكُرُ اللِّقاءَ الذي جمعنا بالأستاذ أبي القاسم القشيري؟ رفعَ الفتى رأسَه ثم خفضَه، تأكيدًا على الأمر. فاستأنفَ الوالدُ: لقد دعا لك بدعاء لن أنساه، وأمرني بأن أعتني بك لِأَنْ سيكونُ لك شأنٌ عظيم، إن شاءَ اللهُ تعالى، لكنّ قِصَرَ ذاتِ اليَدِ وضُعْفَ حالِنا يجعلني مُتخوِّفًا على مستقبلكما في حالِ أصابني مَكروهٌ أو مَرَضٌ. وأقصى غايتي أن تَتَعلَّمَا وتَشِبَّا ويَصْلُبَ عُودُكُمَا حتى تُواجِهَا الحياةَ بالاستعداد التّامّ. إنّك يا وَلدِي لا تعلَمُ أنّ أمورَ السياسة مُتوتِّرةٌ، فَاحْرِصْ أن تبقى بعيدًا عنها إن واتَتْكَ الفرصةُ في المستقبل. ثم إنّ بلادَنا تَعرِفُ الكثير منَ القلاقلِ والفُرْقَةِ، فأهلُ السُّنّة في بلادنا مُختلِفُونَ بين شافعيّة أشعريّة، وحنابلة. كما أنّ الشيعةَ متفرّقون إلى طوائف عديدة. ومهما انتصر المرءُ لفريقٍ استَعْدَى الفريقَ الآخر، وأوَّلُ المتلبِّسِينَ بالضَّرَرِ العلماءُ، حينما يَنفُخُ السَّاسَةُ في نار الفتنة ويُجَيِّشونَ فريقًا ضدّ آخر. والدُّوَلُ لا تقومُ إلّا على ثَوابِتَ عَقَدِيَّةٍ، فكلّما أَتَتْ دَولةٌ نَسَخَتْ حُكمَ سابقاتها، فقرَّبتْ وأبعدَتْ. فمن كان من العلماء في حزب دولة لقي من العَنَتِ ما لَقِيَهُ، بمجرَّدِ انتقال الأمر إلى غيرها. لذا، على اللبيب الحصيف أن يبتعدَ عن أهواء السلاطين والحكّام، ويطلبَ العلم لله ويُؤَدِّيَهُ كما طلَبَه.

كان الفتى يستمعُ إلى والده بِفُضولٍ مُتزايد، وهو يحاول أن يُدركَ حقيقةَ التجَاذُبِ بين الحاكم والعالم، وبدا له أن يسألَ فقال: من يَنْصُرُ مَنْ؟ هل الحاكم هو الذي يَنصُرُ مذهبَ العالم؟ أم أنّ العالمَ هو الذي ينصرُ عقيدةَ دولةِ الحاكم؟

ـ إنّه سؤال بعيدُ الغَور، ولستُ أدري إن كنتُ أستطيعُ الإجابةَ عنه، لكن يظهرُ لي أنّ كلَّ علمٍ جَديد يُؤَسِّسُ لِعُمْرَانٍ جديد، وهذا بدوره يؤدّي إلى ظهور تدابيرَ علميّة جديدة، فالأمرُ مُسَلْسَلٌ أبدًا.

ـ ولمنِ المَزِيَّةُ إذن إن كان الأمرُ كما تَقولُ؟

ـ اختلفَ الناسُ في ذلك، والصَّوابُ هو الجَمْعُ في ذات الواحد لحقيقة العالِم ـ الحاكم، إذ الحكمُ إذا كان على مقتضى العلم كان أوفرَ حظًّا في تحقيق السعادة ونَشْرِ الفضيلة، وإن كان بينهما انفصامٌ، تَبِعَ الحاكمُ هواهُ، ورَكَنَ العالمُ إلى عُزلته، فتضرَّر العُمران العامّ. فهذا نبيُّنا، عليه الصلاة والسلام، ومِنْ بَعْدِهِ الخِلافَةُ الراشدةُ قد جَمعَا بين الأمرين، ثم انفصلَ الأمرُ من جديد، ونَصَرَتِ الدوَلُ المتتاليةُ مذهبًا بعينه لغياب الجمعيّة الكاملة، فَحَدَثَتِ الفِتنُ وتصارعَتِ الفِرَقُ. لكنْ دعنا الآنَ من هذا الحديث مع ما فيه من الأهمّيّة. لقد دَلَلْتُكَ على العلم مع أنّي عَاطِلٌ عن تلك الحِلْيَةِ، وأريدُكَ أن لا تنسى العمَلَ. تَذَكَّرْ أنّه مهما بلغَ عِلْمُكَ ولم يُفِدْكَ، فليس لك به حاجة، نعوذ بالله من علم لا ينفع. صَحِّحِ العملَ بالعلم، واقْطِفْ ثمرةَ العِلْم بالعمَل الصالح. يا ولدي،

صاحِبْ أهلَ الآخرة واهجُرْ أهلَ الدنيا، فإنّك إن صَحِبْتَ أهلَ الصَّلاحِ فُزْتَ في دنياكَ وآخرتِكَ، وإن صحبتَ أهلَ الفانية خَسِرْتَ الأخرى وعَمِيتَ في الأولى.

يا أبتِ لماذا كلُّ هذه النصائح، هل عزمتَ على سَفَرٍ؟

الحياةُ كلُّها سَفَرٌ يا ولدي، فكلُّنا مسافر، وعلى المرء أن يَتَجهَّزَ لسفره بالزَّاد النافع.

فإلى أين أنتَ مُيَمِّمٌ بحول الله؟

إلى حيثُ يَنشَأُ النسيم.

فإلى الشرق إذن.

نعم، إلى حيث تُشرق شمسُ المعرفة ويَخْمَدُ دخانُ الغفلة.

لكأنّي بك تُريدُ أن تُخبرني عن شيء ما.

أَيْ نَعَم، سوف أَضطجعُ هذه الليلةَ بعد تهجُّدي، فإذا أهلَّ صباحُ النَسَمات، سيأتي صاحبي الصوفي للزيارة، فناوله هذا الكيس واقرأ عليه منّي السلام، وقل له: «لا تنسَ الأمانةَ التي في عنقِكَ، وخُذْ دَنَانِير الصبيان وَالْبَسْ نِير حَبْلِ الوصول».

سمعًا وطاعة يا أبت.

أخذ الوالدُ قطعةً جلديّة وفكَّها، ثم أخرجَ منها ريشتين، إحداهما لنسر والثانية لطاووس، وقال مخاطبًا ولديه:

خذا هاتين الريشتين. ثم سلَّم ريشةَ النسر لأحمدَ، وريشةَ

الطاووس لمحمّد، وأضاف: كونا يا ولدَيَّ كالنسر والطاووس، تُحلِّقانِ في الأعالي، وتَزْهُوَانِ بِحُلَّةِ العِلم في الأَدَاني.

تأمَّلَ أحمدُ ريشَتَهُ فأُعجِبَ بها، ولعلّه ظنَّ نفسَهُ في صورة النسر فبدا منه شبهُ اعْتِدَادٍ على أخيه محمّد. فَطِنَ محمّد لِمَا جَالَ بداخل أخيه فقال له: يا أخي، لقد أراد الوالدُ أن يُنبِّهَنَا أن نكونَ بعضُنا لبعض نسرًا وطاووسًا. ملوكًا على الأرض وفي السماء.

نظر الغزَّال إلى محمّد وابتسم له لحُسْنِ فهمه، ثم أخذ ولديه وعانقهما عِناقًا طويلاً، وقبَّلَهما بين جَبينيهما ومَسَحَ على رأسيهِمَا، وسَالَتْ مِنْ عَيْنَيْهِ دَمْعَتَانِ لَفَحَتَا بِحَرِّهِمَا وَجْنَاتِ الولدين. ذُعِرَا من تلك الحالة فازْدَادَا عِناقًا لوالدهما، وذَهِلا عن زُهْمَة رائحة جُبَّةِ أَبِيهِمَا الصُّوفيّة. أخذ أحمد يجهش بالبكاء لمّا رأى والدَه يبكي وهو يعانقه هذا العناق، وزادت حرقةُ دموعِه، جرَّاءَ رَائِحَةِ الصُّوف القويَّة.

استمَرَّ الحالُ ساعةً من الزمن، حتى استوفى ذلك الشعورُ غايتَه، وترك المحلَّ لشعورِ السكينة الذي أتى بعده. دَلَفَ الطفلان إلى سريرهما وهما لا يعلمان شيئًا عن وجهة سفر والدهما الطيّب، لكنّهما كانا مُتيقِّنان أنّ ذلك لمصلحتهما، فلم يُعَوِّدْهُما إلّا خيرًا. أمّا الغزَّال فإنّه بقي مُتهجِّدًا تلكَ الليلة، سائلاً ربَّه، ضَارِعًا إليه أن يَكلأ ولديه بالرعاية والعناية اللازمة. وعند السَّحَر صلَّى الصبحَ مع ولديه، واضطجع على جَنْبِهِ الأيمن فأخذَتْهُ سِنَةٌ، فرأى طَيْفَ زوجتِه يَنْسَلُّ تحت سرير الولدين، ويقبِّلُهُما بل ويَلُفُّهُما بالنُّور. ثم إذا

بذلك الطَّيف يضعُ غطاءً صوفيًّا على الولدين ويعودُ إلى الغزَّال يأخذُ بيده ويَسحَبُه إلى أعلى. طَسَّ الروح النوراني يقطع السماوات حتى فارقتِ الغزَّالَ مَوادُّ جُثمانيّته وتحلَّلتْ إلى قِطَعٍ نوارنيّة، ثم أشرفا على بلاد عجيبة فوجد الغزَّال نفسَه روحًا مع أُمَّةٍ من الأرواح تغدو وتروحُ، وأحسَّ بسعادة بالغة، ثم انقطعَ عن حواسّه هذا البَثُّ.

قام الصبيّان من فراشهما ليجدا والدَهُمَا جثَّةً هامدة. حاولا تحريكَه فلم يتحرَّك، فَفَطِنا إلى معنى السَّفر الذي كان يحدِّثُهُما عنه. بقي محمّد الصغير رابِطَ الجَأْشِ، على خلاف أخيه أحمد الذي بكى بكاء طويلاً سمع الجيرانُ بالأمر فَهَبُّوا للبيت وأَتَى الصوفي مَعَ مَنْ أَتَوْا فرأى صديقَهُ مَغْشِيًّا عليه مُسَجّى. ورأى لُمْعَةً بيضاءَ على جبينه فابتسمَ. تَوَلَّى الصوفي تَغسيلَ صديقِهِ وتجهيزَه للدفن. وحضر أربابُ الحِرَفِ المختلفة من الصوفيّة في جنازة صاحبهم وصَلَّوْا عليه صلاة الظهر ثم وَارَوْهُ الترابَ.

رجع الصبِيَّانِ مع الصوفي إلى بيتهما، وحدَّثَهما حديثًا طيّبًا وأخبرهما بجَلِيَّة الأمر وانتقال والدهما إلى دار البقاء، وذكَّرهما بأداء نصيحة والدهما لهما، كما سألهما عن تركة والدهما.

في هذه الأثناء تذكَّر الفتى محمّد الكيسَ الذي سلَّمه لهما أبوهما، والعبارةَ التي أمرهما بتبليغهما لهذا الرجل الصوفي فقال:

لقد ترك والدنا صُرَّةً أمرنا بتسليمها لك وطلب منّا أن نُبَلِّغَكَ

بهذه العبارة «لا تنسَ الأمانةَ التي في عنقك، وخُذْ دَنَانِير الصبيان وَالْبَسْ نِيرَ حبل الوصول».

تبسَّم الصوفي لمّا فَاهَ الصبي بتلك العبارة وقال: لا بأس، سوف أعتني بكما وأرسلكما لطلب العلم في طوس وسأصرفُ عليكما من هذه الدنانير حتى أستوفي ذمّتي، وبعد ذلك يقضي الله من أمره ما شاء.

* * *

تعلَّم الصَّبِيَّان ما يلزم لمثلهما، وحَفِظا القرآنَ وبعض المتون اللازمة. وكان الصوفي يرعاهما رعاية كبيرة وينصحهما، ويَدْأَبُ على تَتَبُّعِ خُطواتهما. كما كان يَزرعُ فيهما حُبَّ الصوفيّة وأهلِ الصلاح، ويذكِّرُهما بالزهد في الدنيا والإنابة إلى الآخرة، وطَرْحِ النفس والتواضع للضعفاء والمساكين، والإنفاق ممّا في اليد، ولو عند الحاجة، لمن هو أحوج في الوقت. تعلَّم الصبيَّان الفقهَ في طوس على يد الفقيه أحمد الراذكاني.

مرَّتْ سنوات قليلة شبَّ فيها الولدان. بدأَتْ مَخَايِلُ النباهة تَظهرُ عليهما، وخاصّة لدى محمّد، وبدا للصوفي أنّ طوس لم تعد كافية لكي يتعلّما، فجلس إليهما ذات يوم للحديث واستفتح قائلاً:

ولديَّ العزيزين، لقد لبستُ نِير العِناية بكما، كما أوصى بذلك والدكما، رحمة الله عليه، وقمت برعايتكما والإنفاق عليكما ممّا تركه والدكما في تلك الصُّرَّة. وقد حفظتم كتاب الله وتعلَّمتم ما يلزمكما من القيام بشأنكما، ثم إنّ حبلَ الصُّرَّة المعلومة قد

استرخى حتى لم يَبقَ بها دينار واحد. واليوم، بعد أن استوفيتُ الأمانةَ وأدَّيت ما عليَّ من حقِّكما، أَخْلَعُ رِبْقَةَ النِّيرِ الذي وضعه صاحبي في عنقي، وألبسُ نير سبحتي كما كنتُ في سابق أمري. لكنّي رأيتُ أنَّ أَفْضَلَ ما يصلُحُ لكما أن تَلْجَآ إلى إحدى المدارس التي بدأَتْ تنتشرُ في خراسان مع دولة آل سلجوق الفَتِيَّة، وتأخُذا العلمَ وتتخصَّصا فيه. وإنّ الحكّام قد أوقفوا الأوقاف على هذه المدارس، وصَرَفوا الأموالَ على نفقة الأساتذة والطلبة. وإنَّ لي صُحبةً في جرجان قد كتبتُ لهم بشأنكما فأجابوني إلى ما طلبتُ، ويَظهَرُ أنّ المقامَ سيستَقِرُّ بك يا محمّد هناك، ولعلّ أخاك أحمد يلحق بك بعد حين. وسوف أُرسِلُك إلى صديق لي هناك حتى يتدبَّرَ أَمْرَ إقامَتِك. أمّا أنا فسأستَقِلُّ بنفسي في مرضاة ربّي.

تكلّم محمّد مع الصوفي وشكره على صنيعه. كانت نفسه تَتوقُ إلى السفر، فقد تعلَّم في طوس، وأخذ منها ما يلزمه وتربّى على صوفيّتها ويلزمُه اليومَ أن ينتقلَ إلى مرحلة أعلى. لكنّه تكلّم نيابة عن أخيه الذي بَدأَتْ دموعُه تنهمر، فقال: يا سيّدي، جزاك الله خيرًا على ما أَسْدَيْتَ لنا من معروف، وسنبقى نَدِينُ لك بهذا مدى الدهر. فإنّنا لم نجد بعد وفاة والدنا من يقوم بشأننا سواك. لكنَّ لي طلبًا أرجو أن لا تَرُدَّهُ في وجهي. فهذا أخي الأصغر أحمد هو كلّ أهلي وما تبقَّى لي، فأرجوك لا تُفرِّقْ بيننا. فلن أستطيعَ السفر بمفردي وأترُكَه لوحده هنا. إنّ هذا ممّا لا أستطيعُه، فأنا حريص عليه أكثرَ من حرصي على نفسي، فدَعْنَا نُسافِرْ معًا لجرجانَ وسأَقْتَسِمُ غرفةَ نومي الصغيرة وطعامي القليل معه، حتى يُدَبِّرَ الله لنا

أمرًا. لقد مررنا من تجربة اليُتم، وكلُّ آمالنا نبنيها معًا.

نظر الصوفي إلى الولدين، وسالت من عينيه دمعة كَفْكَفَهَا بسرعة، ثم أَطْرَقَ يُفكِّرُ وقال بعد حين: لا بأس يا بنيّ، لن أُفرِّق بينكما رغم خوفي على أحمد من السفر. إنّ والدَكُما قد أوصاني بكما فلن أتركَكُما تواجهان السفر بمفردكُما. وحتى أُيَسِّر استِقْرارَكُمَا في جرجان سَأُسَافِرُ مَعَكُمَا بإذن الله، فأَبْشِرَا خَيْرًا.

ارتمى الولدان على الصوفي يعانقانه ويشكرانه.

أخرجَ الصوفي ورقةً فيها جداولُ وأعدادٌ، ينظر فيها، فسأله محمّد عنها، فأجابه قائلاً: يا ولدي، هذه الورقة تَضْبِطُ التَّواريخَ بِشَكْلٍ دَقِيقٍ، إنّها التَّقْوِيمُ السَّنوي الذي صنعه عمر الخيّام، الشاعر الصوفي، والرياضي الفلكي للسلطان ملك شاه. وهو أَدقُّ ما عَمِلَهُ الإنسان لحدِّ الآن. وإنّي أَنظرُ فيها لترتيب رحلتنا، ومواعيد وصولنا إلى جرجان، وابتداء الدراسة في مدرستها

تعجَّبَ محمّد من أمر الورقة وسأل الصوفي أن ينشده بعض أبيات لعمر الخيّام، فأنشده قائلاً:

لَبِسْتُ ثَوْبَ العُمْرِ لَمْ أُسْتَشَرْ وَحِرْتُ فِيهِ بَيْنَ شَتَّى الفِكَر
وَسَوْفَ أَنْضُو الثَّوْبَ عَنِّي وَلَمْ أُدْرِكْ لِمَاذَا جِئْتُ أَيْنَ المَفَر؟

* * *

شَهِقْتُ مِنْ رَوْعَةِ هذه الأبيات وطَلَبْتُ مِنَ الصُّوفي أَنْ يَزِيدَنَا فقال:

لا تَشْغَلِ البَال بِمَاضِي الزَّمَان ولا بِآتِي العَيْشِ قَبْلَ الأَوَان

وَاغْنَمْ مِنَ الحَاضِرِ لَذَّاتِهِ فَلَيْسَ فِي طَبْعِ اللَّيَالِي الأَمَان

فقلت: ما أعمَقَ هذا الشِّعْرَ وأَرَقَّه! لكنْ، يبدو أنّ رُوحَ الرَّجل مُتأَرْجِحَةٌ بين الشَّكِّ واليقين.

فقال الصوفي: وكذلك كلُّ كَامِلٍ، لا يَأْمَنُ المَكْرَ، فهو في حَيْرَةٍ تَامَّةٍ، وتلك هي أعلى مراتب المعرفة. اللَّهُمَّ زِدْنَا فِيكَ تَحَيُّرًا وَبِكَ افْتِتَانًا، وغَيِّبْنَا فِيكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاكَ، حَتى لاَ نَكُونَ إِلَّا بِكَ وَلَكَ.

ثم أضاف: ينبغي أن تَضَعَا في حُسبانِكُمَا أَنَّ الصوفي ابنُ وَقتِه، فَادْأَبَا على هذه القاعدة، ولا تَغْتَرَّا بالزمان، فإنّه غَادٍ ورَائِحٌ.

سافر الثلاثة إلى جرجان، وهي مدينة إلى الغرب من طوس، قريبة من بحر الخَزَر. مَرُّوا في طريقهم بعدّة مدن وقرى تركمانيّة، منها جناران وقوجان وشروان وبوجنرد. ومن بوجنرد تركوا إسفرايين إلى الجنوب ودخلوا غابة كبيرة حتى وصلوا إلى كلالة ثم أزاد شهر، وأخيرًا جرجان، ومعناها بالفارسيّة الذئاب.

المنطقة التي تحيط بجرجان خصبة من قبل الساحل، وبها زراعات متنوّعة مثل القطن والحوامض والكروم والزيتون وغيرها. كما أنّ القوافل التجاريّة تَمُرُّ عبر المدينة فتربط بين الشرق والغرب. وصل الثلاثة إلى جرجان فأخذهم الصوفي إلى بعض أصحابه وتحدَّث معه بشأن الولدين ودراستهما. وبعد أن استراحوا عند

الرجل تناولوا طبقًا محلّيًا من الدَّجاج المُعَدِّ بالبَهارات الحِرِّيفَة يدعى «كِمير ألشاد» وآخر يُسمُّونه «رَمِير ترونجا» مع لَبَنٍ به مُلوحَةٌ لذيذةٌ يُدعَى «أَيْرَان»، ثم ذهبوا إلى مسجد مدرسة الصفارين بالمدينة.

دخلا المسجد وجلسا إلى حلقة الإمام أبي نصر الإسماعيلي. فلمّا رآهما رحَّب بهما، وأمرهما بالجلوس ومتابعة الدرس الفقهي الذي كان يعطيه. بعد نهاية الدرس نادى الأستاذ على الولدين فامتثلا ورافقهما الصوفي وصاحبه، فسألهما أبو نصر قائلاً:

ـ من أين أنتم؟

ـ من طوس.

ـ وما الذي أتى بكما إلى جرجان؟

ـ تولّى الصوفي الإجابة بدلاً عن الولدين فقال: يا سيّدي، إنّهما يتيمان وقد أتيتُ بهما للعلم. ثم حكى له قِصَّتَهُما.

رقَّ الأستاذُ للولدين وطلب من أحد أتباعه أن يتدبَّر أمر إقامتِهِمَا في المدرسة ويعتني بشؤونهما ويُوفِّرَ لهما الزاد. ثم ودَّعَهُمَا

بعد أن اطمأنَّ الصوفي على الولدين ورافقهما إلى غرفتهما، تركهما وانصرف مع صديقه بعد أن وعدهما بزيارتهما في الغد.

* * *

تعلّم الولدان العلم وفَقَهَا أقرانهما، وخاصّة محمّدًا الذي أصبح السارد في درس أبي نصر الإسماعيلي. كانت دروس هذا الأستاذ مفيدة ونافعة. كان محمّد شعلة من الذكاء في حلقة أستاذه، لا يَكُفُّ عن السؤال. وكان يكتب عنه ممّا يمليه علينا في يوم السبت الذي كان يُخَصِّصُه للأمالي. ومن المسائل التي كانت تَشغلُ محمّدًا تاريخ هذه المدينة ورجالاتها فسأل الأستاذ قائلاً: يا سيّدي، هل وصل بعض الصحابة إلى جرجان؟

فأجاب الشيخ: نعم يا ولدي، إنّ نورَ الصحابة قد وصل إلى بلادنا؛ حيث فُتحت في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب بعد فَتْحِ نهاوند. وقد فتحها سويد بن مقرن. وقد دخلها من الصحابة أبو عبد الله الحسين بن علي، رضي الله عنهما. ويُقال إنّ الحسن رضي الله عنه قد دخلها أيضًا في حياة والده سيّدنا علي كرّم الله وجهه.

لاحظ محمّد أنّ الشيخ بدأ بذكر الحسن والحسين، فلم يَفُتْهُ

مكتبة الرمحي أحمد

أنّ الرجل ربّما كان يُخفي تَشَيُّعَهُ، خاصّة أنّه يُدعى بالإسماعيلي، وأسرتُه كلُّها تُعرف بالإسماعيلي، وغالبًا ما يُسمُّون ذكورَهم إسماعيل، لكنّه لم يَنْبِسْ بشيء. وأكملَ الأستاذُ قائلاً: ودخلها عبد الله بن عمر وحذيفة بن اليمان وسعيد بن العاص وأبو هريرة وعبد الله بن الزبير.

ومن دخلها من التابعين يا أستاذ؟

دخلها أبو خالد يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة. وقد ولّاه عليها سليمان بن عبد الملك بعد وفاة أبيه، المهلّب بن أبي صفرة، فافتتح يزيد جرجان ودهستان سنة ٩٨ للهجرة. وبنى سورَها واختطَّ بها نحوًا من أربعينَ مسجدًا، لكلِّ قَبيلةٍ من القبائل التي سكنتْها مسجدٌ، سواءٌ في القصبة أو خارجَ الأسوار في الرَّبَض التي أمامها.

وما قصّة قول الفرزدق في أبياته الشهيرة؟

دعاني إلى جُرجانَ والرَّيُّ دونَهُ أبـو خـالـدٍ إنّـي إذًا لَـزَؤورُ
لآتـيَ مِـنْ آل الـمـهـلَّـبِ ثـائـرًا بـأعـراضِـهـا والـدَّائـراتُ تَـدُورُ
سَـأَبَى وتَـأْبَى لـي تـمـيـمٌ ورُبَّـمـا أَبَـيْـتُ فَـلَـمْ يَـقْـدِرْ عَـلـيَّ أَمـيـرُ

فأجاب الشيخ: كتب يزيد بن المهلب حين فتح جرجان، إلى أخيه مدركة أو مروان: احمل الفرزدق ليقولَ في آثارنا، فإذا شَخَصَ فَأَعْطِ أهلَهُ عشْرةَ آلافِ درهم، فقال الفرزدق: ادفَعْهَا إليَّ. قال: اِشْخَصْ وأَدفعُهَا إلى أهلِكَ. فأبى، وخرج فأنشد تلك الأبيات.

ثم ذكر الأستاذُ مَنْ دخل من الخلفاء إلى جرجان فقال: ودخلها هارون الرشيد الذي وصل إلى طوس ومات فيها ودُفن. ثم دخل جرجانَ المأمونُ ليترحَّمَ على والده في طوس. ويقال إنّه دسَّ السُّمَّ للإمام الرضا بعد أن كان قد أكرمه وقرَّبه وجعل له ولايةَ العهد. وقد دُفِنَ الإمام بجانب هارون الرشيد.

طاسين الحبّ

مرَّت سنوات في جرجان تعلَّم فيها محمّد كثيرًا، وتعرَّف خلالها على طالب في حلقة الدرس يُدعى عليًّا، دعاه إلى وليمة بمفرده من دون أخيه.

انطلق محمّد مع صديقه حتى دخلا مسجد بني تميم، قرب باب اليهود، ويعرف ببحر السواق. جلس الصديقان ولاحظ محمّد أنّ المصلّين يسجدون على حَجَرٍ صغير فارتاب في الأمر، ثم أُقِيمَتِ الصلاة وصَلّوا مع الجماعة. وبعد ذلك خرجا وكان في ذلك الحيّ أُناسٌ من الخَزَر، وهم من القبائل القوقازيّة التي تهوَّد بعضُها، واستوطنتْ هذا الحيَّ من جرجان. دخل الولدان بيتًا قريبًا من المسجد وجلسا يتحدَّثان، وقُدِّمَتْ لهما حلويات ومُرَطِّبات. ثم ما لَبِثَ أَنِ الْتَحَقَ بهما فتيانٌ آخرونَ. وبينما هم في لهو وضحك إذ دخل عليهم كهل في الأربعين، مَهيبُ الطلعة، فجلس في وسط المجلس فقام إليه الفِتيان يُحَيُّونه ويخدمُونَه. وما إِنْ جلس حتى

دَخَلَتْ صَبَايَا في عُمْر الزهور تَخْطُرُ في ثياب رفيعة، مختلفة الألوان، وبدأنَ يرقُصْنَ على وقع طَارٍ ودَرْبَكَةٍ وعَزْفِ آلةٍ وتريّة. افتتحَتْ فتاةٌ خراسانيّة غناءَ المقام فَسَلَبَتْ بغنائها الحاضرين. كان محمّد لا يُصدِّقُ ما يحدُثُ، لم يسبقْ أن حضر حفلاً كهذا، ولا تنعَّمَ بمثل هذه الأطايبِ من قبل. فمنذ أن كان يَذْكُرُ وهو يعيشُ عيشةً ضَنْكًا، لا يعرفُ إلّا الخشونةَ في الأكل واللباس. ولكم كان سعيدًا بقدر ما كان فضولُه يدعوه إلى معرفة سرِّ هذه الجلسة وهؤلاء الناس، وذلك الكهل الذي كان ينظرُ إليه نظرات ثاقبة ويتفرَّسُ فيه.

اِلْتَفَتَ محمّد إلى صديقه عليّ وسأله قائلاً:

من يكون هذا الرجل؟

إنّه **الأخ الفاضل الكريم**، حسن الصبّاح الملقّب بالكِيَا، وقد عاد للتوِّ من زيارة المستنصر، الخليفة الفاطمي في القاهرة. إنّه عالم بالطبّ والتنجيم والفلك. ولولا محبّتي فيك ما دعوتك لحضور هذا المجلس البهيج. وهؤلاء الفتيان والصبايا **إخوان أبرار رحماء**.

فقال محمّد: إنّني ممتنٌّ لك، فلم تر عيني مثلَ هذا الجمال، ولم أَطعَمْ مِنْ قَبْلُ هذه الأطايب، ولا سمعَتْ أذناي مثل هذا الغناء، ولا تنسَّمتُ عَرْفًا أطيبَ من هذا.

فقال عليّ: إنّك لم تر شيئًا بعد، وإن أحببتَ أن تنضمَّ إلينا أطلعتُك على المزيد.

فقال محمّد: ومن أنتم؟

نحن ندعو إلى إمامة أهل البيت الذين سُلبوا الحقَّ في خلافة الأمةّ.

فقال محمّد: كلّ المسلمينَ يحبُّونَ أهلَ البيت. ثم، ألم تقل لي قبل قليل إنّ هذا الرجل، الحسن بن الصبّاح، قد أتى للتوّ من عند الخليفة الفاطمي؟ فهم الآن في الحكم.

كلامُكَ صحيح، لكنّنا نريدُ إقامةَ حقِّهم على كلِّ الأُمَّة. فهناك خلافة أخرى في بغداد، وقد أصبح ألب أرسلان، السلطان السلجوقي هو الآمر الحقيقي.

هل أنت من الشيعة يا صديقي؟

ليس الشيعة إلّا من شايعوا عليًّا رضي الله عنه وقالوا بإمامته وخلافته، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجتْ فَبِظُلمٍ يكون من غيرهم.

لكنّ النبي عليه الصلاة والسلام، لم يعيِّن أحدًا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

إنّ الإمامة ليست قضيّة تتعلّق بالمصالح وتُناطُ باختيار العامّة، بل إنّها قضيّة أصوليّة وأحد أركان الدين. فلا يمكن للرسل إغفالها وإهمالها أو تفويضها إلى العامّة.

يا صاحبي، هذا الحديث ممتع، لكن دعني آخُذْ نَهْمتي من هذه الأطايب ولْنُكمِل حديثَنا في المدرسة.

معك الحقّ، فقد أنساني الدفاعُ عن الحقِّ القيامَ بحقّ الضيافة. لكن قل لي، يظهرُ أنّك سُلِبْتَ بتلك الفتاة الخراسانيّة.

والله يا صاحبي، لقد سحرني جمالها وصوتها.

هل تريد أن تتعرَّف إليها؟

وهل أملكُ أن أقولَ غير مُا يطلبُه قلبي وكياني بأجمعِه.

عُثمان الطنبرجيّ، إنّها صديقة لأختي، وربّما التقينا بها في بيتنا. ثم قام إلى جانب الكهل وكلَّمه قليلاً ثم عاد إلى جوار محمّد وقال له:

إنّ الحُجَّة يدعوك لتجلس بجانبه.

ارتبك محمّد من هذه الدعوة، ومن لَقَبِ الدَّاعي، لكنّه أبدى استعداده، فقام الصديقان معًا، وتقدّم عليّ فقدَّم صديقه إلى الحسن الذي رحَّب به وبشَّ في وجهه. كان رجلاً لطيفًا هادئًا مُتوسِّمًا، لباسُه الصوف. أحسَّ محمّد بأنّ الرجل قد توسَّم فيه بعلمه فأدرك ارتباكَه. طلب الحسن من الصديقين أن يجلسا بجانبه، ثم ناول الغَزَالي بعض الفاكهة التي كانت بين يديه. أخذ محمّد الهديّة وشكر الحسن فتبسَّم له. ثم أخذ مِرَشَّةَ عِطْرٍ ونَضَحَ منها على محمّد. لم يكن الرجل يُفَوِّتُ فرصة إلّا ويُظهِرُ فيها اهتمامَه وتِرْحابَه بجليسه. فكان هذا من دواعي انبساط محمّد واطمئنانه. وبعد أن أمضوا فترة من الاستمتاع بهذه الأطايب، صرف الرجلُ الجميعَ من المجلس وبقي منفردًا مع الصديقين. وبعد عبارات الشكر

والمجاملة، استفسر الحجّة عن محمّد وعيشته وأسرته، فأخبره بأنّه يتيم، وأنّ قُوتَه وسُكنَاه تَكْفَلُهُمَا له المدرسة التي سعى أستاذه أبو نصر الإسماعيلي في ضمّه إليها. فقال الحسن:

إنّني أعرف أبا نصر، فهو أحد شيوخنا في خراسان، والعلم مسترسل في أسرته منذ أجيال. ثم سأله عن طوس ووالده وأصحاب والده، فأجاب محمّد:

لقد كان لوالدي دكّانٌ يغزل فيه الصوف في مدينة طوس. كما كان يحبّ مجالس العلم والعلماء، وله صحبة من الصوفيّة الصالحين. وأحد هؤلاء هو الذي قام بشؤوني مع أخي أحمد بعد موت والدنا رحمة الله عليه، فصرف جُلَّ المال الذي تركه لنا الوالد في تعليمنا وبعد أن أنفق كلّ ذلك المال أخبرنا بأنّه لم يعد باستطاعته الإنفاق علينا، وأتى بنا إلى جرجان حيث تولّت المدرسة الإنفاقَ علينا

إنّني أعرف ذلك الصوفي **المأذون** أيضًا.

استغرب محمّد من معرفة هذا الرجل لصديق والده ولأستاذه أبي نصر، لكنّه لم يُبْدِ استغرابَه لمُحاوِرِهِ.

لا عليك يا بنيّ، إنّك قد تعلَّمتَ في جرجان ما تحتاج إليه، وأظنّ أنّه من مصلحتك أن تُكمِلَ تعليمَك في نيسابور، ففيها مدرسة كبيرة، ولا بدّ أنْ تَبْلُغَ مرتبةَ العلماء الكبار إنِ اجْتَهَدْتَ. ولا تنس أن تزورَنا بعد استكمال تعليمك. ثم أخرج صُرَّةَ مالٍ من بين ثيابه، عليها رسمُ طاووس، ودفعها لمحمّد وقال له: استعِنْ بهذه. ثم دعا

له: جعلك الله من **الإخوان المستجيبين** كالغزالة في كبد السماء، ونَصَرَ بِكَ آلَ بيتِ النُّبُوَّة.

أمَّنَ الغَزَالي على دُعاء الحَسن، الذي صرف الشَّابَّيْن وقام من مجلسه. التفتَ عليٌّ إلى صديقه وقال له: لقد حَظِيتَ اليومَ بشرف كبير، فكل واحد من أولئك الفتيان يتمنّى أن يَحْدِبَ عليه الداعي الأكبر والرفيق مثل حَدبِه عليك وعنايَتِه بك.

فقال محمّد الغزَالي: سنرى في أمر أستاذك الحجّة لاحقًا، لكن أخبرني كيف الوصول إلى الفتاة الخراسانيّة التي طارت بلبّي.

ضحك عليّ ضحْكةَ الظَّفَر، فقال لصاحبه: الشرط في الوصول إليها أن تنضمّ إلينا وتُشايعَ طريقتنا، وإلّا فلن تقبلَ بك.

فقال محمّد: أرجوك، دُلَّني على كيفيّة الوصول إليها، ولك منّي عهد أن أنظر في هذا الأمر.

سأحاول أن أكلِّم شقيقتي بهذا الشأن، فإن رضيتْ باللقاء بك أخبرتُك.

شكر الغزَالي صديقه عليًّا على سعيه.

وفي الأيّام الموالية كَثُرت محاورات محمّد وعليّ حول الفرقة التي ينتمي إليها، فعلم محمّد عنها الشيء الكثير تدريجيًّا.

لقد أخبره عليّ أنّها الإسماعيليّة، ثم سأله محمّد: ولماذا تُدعى بهذا الاسم؟

فقال عليّ: نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق عليهما السلام.

فاعترض محمّد قائلاً: ألا يقولون بأنّ جعفرًا الصادق، رضي الله عنه قد نزع الإمامة من ولده إسماعيل وأعطاها لولده الآخر موسى الكاظم.

ظهر بعض الغيظ على وجه عليّ، لكنّه التزمَ الأدبَ وردَّ على صديقه قائلاً: إنّ الإمامة منصوص عليها للولد البكر وهو إسماعيل.

فردَّ عليه محمّد قائلاً: لكن، يقال بأنّ إسماعيل توفّي قبل والده، فتحوَّل النصُّ إلى موسى الكاظم. ثم هناك قول شائع بأنّ جعفرًا قد نزع الإمامة عن إسماعيل بسبب أخلاقه.

فقال عليّ: إنّنا نعتقد أن ليس من حقّ أحد نقل النصّ، والإمامة بعد الحسن والحسين لا تنتقل من أخ لأخيه، بل تكون فقط في الأعقاب. أمّا عن نزع جعفر الصادق لإمامة إسماعيل، فلأنّه خاف عليه فغيَّبه عن الناس، فهو أوّل **إمام مستور**.

فقال محمّد: فهل معنى هذا أنّه لم يمت؟

فأجاب عليّ: صحيح، فهو **الإمام القائم** وسيرجع من غيبته. وهذه هي الإسماعيليّة الخالصة. ثم آلت لولده محمّد في انتظار عودته من غيبته.

لم يكن محمّد مرتاحًا لهذه المعتقدات، رغم محبّته لآل

البيت، لكنّه كان فُضوليًّا بالطبع، ولم يُرِدْ أن يُفسدَ مودَّته مع صديقه، خصوصًا أنّه كان يُؤَمِّلُ أن يسعى عليّ في تقديمه إلى محبوبته، فقال سائلاً: دعنا الآن من هذا، وأخبرني عن الفتاة الخراسانيّة.

فقال عليّ: لقد قلت لك إنّها لن تقبلَ بك ما لم تطمئنّ لولائك، فهي حفيدة لأحد كبراء الطائفة من العلويّين، فلا تَطمَعْ بالظَّفَر بها ما لم تُصبحْ واحدًا مِنّا.

فقال محمّد مُتَوَدِّدًا: اجمَعْ بيني وبينها واترك الحديث عن هذا إلى ما بعد. فقد بَرُّوا بي وتكفَّلوا بدراستي وأعانوني، فكيف لا أنحاشُ إليهم وأَنْصُرُ بيتَ النبوّة!

فقال عليّ: بورك فيك يا أخي، الآن فقط تستطيعُ أن تَسْلُبَ الطاهرة، الفتاةَ التي أولعَ قلبُك بها

تهلَّلتْ أساريرُ محمّد لمّا سمِعَ اسمَ فتاتِه، فصار يُقلِّبُه ويُردِّدهُ بمجاميع ذاته، محاولاً أن يمتلكَ هذا الاسم. فمتى ما ضَمِنَ ذلك حَلَّ له الباقي، كما في الاعتقاد السائد. ثم أخذ يردِّدُ: طاهرة، طاهرتي، لقد صيَّرها في مِلكه بحيث كانت تَنهيدَتُه تعبيرًا وجوديًّا عن كلّ البؤس والحرمان الذي عاشه، سواءٌ مِنْ فَقْدِ والديه أو من خُشونَة العيش وشَظَفِهِ. وبينما هو سَابِحٌ في هذا الخيال، إذا بصديقه عليّ يخاطبه مرّة أخرى:

إذا أردتَ أن تَظْفَرَ بقلب الفتاة فَطالِعْ رسائل إخوان الصفا.

ومن أين لي أن أَظْفَرَ بهذه الرسائل؟

إن كنتَ كاتمًا للأسرار سَعَيْتُ في إِطْلاعِكَ عليها

ولماذا تَنصَحُني بذلك؟

لأنّ بها خلاصة تعاليم الحكماء، وتلك **الأخت البارَّة الرحيمة** تكاد تحفظها.

سبحان الله، فلها من العلم ما يضاهي ما لها من الجمال. إذا سمحتَ سأرافقك الآن لكي تعطيني إيّاها فسأحفظُها بدوري، وألتهمُ ما بها من معارف، حتى لا أُقابلَ حِبّي إلّا بما ترضاه منّي. ثم قل لي، هل شيخنا أبو نصر الإسماعيلي هو أيضًا من إخوان الصفاء؟

معناه في اسمه، لكنّه لا يُظهر ذلك، وجلُّ علماء بلادنا متعاطفون مع آل البيت. بل إنّ كثيرًا من الشافعيّة في الفقه والأشعريّة في العقيدة لهم هذا الولاء.

ترافق الصديقان حتى بيت عليّ الذي أحضر رسالة من الكتاب المذكور إلى صديقه محمّد، وأوصاه بالمحافظة عليها والتكتّم بشأنها، فقال: إيّاك أن تُبدي هذا الرسالة لعامّة الطلبة فإنّهم لا يدركون مراميها، وما أسرعَ الجُهَّال في معاداة ما يجهلون!

فأجاب محمّد: ولماذا لا تطلعني على الكتاب بأكمله؟

فقال عليّ: هذا شرط في التلقين، فلا يُعطى منه إلّا قَدْرُ الرسالة.

امتعضَ محمّد من أَثَرَةِ صديقه، لكنّه قال: كن مطمئنًّا، لا بدّ للحسناء من نقاب. ثم أخذ الرسالة وبدأ يطالع فيها، متناسيًا حضور صديقه الذي بجانبه، حتى نبَّهه. خرج محمّد قاصدًا غرفته، وما إن دخلها حتى أقفلها وجلس يطالع ضالَّته بنَهَمٍ شديد. فأوَّلُ ما وقف عليه قولُهم «اُدخلِ البستان وكلْ ما شئتَ، وشُمَّ ما شئت، واخترْ ما شئت، وانظر كيف شئت، وتنزَّهْ كيف شئت، وجِئْ من أين شئت، وتلذَّذ وتنعَّم وتطيَّبْ وتَنَسَّمْ». ذَرَعَ محمّد الرسالة طولاً وعرضًا وأُعجب بسماحة الخطاب، وقبول هذه الطائفة من الإخوان لكلّ لبيب أريب مهما كان مأتاه وغايته. ثم إنّ الخطاب يَدَعُ لك الحرِّيّةَ في أن تلجَ من أيّ باب أردتَ لهذا البستان الأريج الخَضِرِ النَّضِر، لتستروحَ في دنيا المعارف وتستطيبَ في سماء الحِكم. ورأى أنّها تتحدَّثُ عن صفوة من الخلق وقفوا أنفسهم على خدمة الحكمة، فثار في ذهنه سؤالٌ محيِّر: تُرى أما يزال هؤلاء يعيشون بيننا؟ وهل أجد في أبناء جيلنا من ينتسب سِرًّا إلى إخوان الصفاء وخُلّان الوفاء؟ وألحَّ عليه هذا السؤال حتى رغب في أن يصبح واحدًا منهم، لكن كيف الوصولُ، والبابُ مُوصَدٌ والطريقُ إلى البستان مجهول. لكنّه تذكَّر أنّه لم يكنْ ليعلمَ لولا أن وضعَ الله في طريقه هذا الصَّديق، ولعلّ الحسن بن الصبّاح أحد هؤلاء، لكنّه لم يطلعه على شيء من ذلك. وبينما هو يجادل نفسَه ويَعرض عليها هذه المعرفة الجديدة، وقف على أصناف الطالبين، أو الإخوان كما تذكر الرسالة. فهناك مرتبة ذوي الصنائع، وتكون من الشباب الذين أتمّوا الخامسة عشرة، لِما هُمْ عليه من صفاء جوهر النفس،

وجودةِ القَبول وسرعة التصوّر، ويُسمَّون الإخوان الأبرار والرحماء. والثانية مرتبة الرؤساء ذوي السياسات، وتكون من الذين أَتَمُّوا الثلاثين، وعُرفوا بالحكمة والعقل، ويُسمَّون الإخوان الأخيار والفضلاء. والثالثة مرتبة الملوك ذوي السلطان، وتكون من الذين أتمّوا الأربعين، وعُرفوا بالقيام على حفظ الناموس الإلٰهي، ويُسمَّون الإخوان الفضلاء الكرام. والرابعة هي المرتبة العليا وتكون من الذين أتمّوا الخمسين، وأشبهوا الملائكة بقبول التأييد ومشاهدة الحقّ عيانًا، والوقوف على أحوال الآخرة.

وفجأة تذكَّر كيف قدَّم صديقُه إليه أولئك الفتيان ووصفهم بالأبرار الرحماء. كما أنّه نعت الفتاة الخراسانيّة بالبرَّة الرَّحيمة، فهم إذن من إخوان الصفاء. كما لم يَفُتْهُ أن يستحضر الوصفَ الذي خلعه على الحسن الصبّاح بقوله الأخ الفاضل الكريم. لكنّه ما لبث أن تذكَّر أنّ هذا الأخ نصحه بالسفر إلى نيسابور لاستكمال التعليم. ألم يكن يدعوه إلى الأخذ عمَّنْ هم في مرتبة عليا من هؤلاء الإخوان، وزاد هذا اليقين رسوخًا في قلب الشابّ، وحُبِّبَ إليه السفر إلى نيسابور، لكنّه كان يُمَنِّي نفسَه بالاجتماع بفتاته الخراسانيّة. وكيف السبيل إلى الدخول إلى مدرسة نيسابور وليس له عصبيّة ولا معارف يتوسّطون له؟

وفي اليوم الموالي التقى محمّد بعليّ وأخبره أنّه وقع في حُبِّ الفتاة، وأنّه منذ رآها علِقَتْ حَبَّةُ العِشق في قلبه بها، وأنّها أكسبَتْهُ نحولاً وامتناعَ نوم وأكل. واعتذر عن مصارحته بهذا الأمر لأنّه لم

يعد يُطيق حملَه بمفرده، بل كان يرغبُ في البَثِّ والشكوى ممّا يعانيه.

فقال له الصديق: رويدك يا محمّد، فلكلّ شيء أَوان، ثم إنّي علمتُ من شقيقتي أنّ الطاهرةَ ستسافر مع أسرتها إلى نيسابور. وأرى أن تهتمّ بدراستك أوّلاً، وتُقبِل على قراءة ما اتَّفقنا عليه من رسائل إخوان الصفاء، حتى إذا أَظَلَّتْكُمَا سماءُ اللقاء وجَدْتَ ما تُنفِقُه في حضرة الحُبِّ والتَّداني.

عضَّ محمّد شفتيه من الأسى، وتأكَّد لديه العزم على السفر إلى تلك المدينة. ألم يطلب منه الحسن بن الصبّاح أن يسافر إلى هناك ليُكمِلَ تعليمه؟ لا بدّ أنّ هذه المدينة مركز للحكمة ومهوى أفئدة الطالبين، وما سفر الفتاة إليها إلّا لأنّ بها ما يستوجب السفر. ثم إنّه قد سمع أنّ الوزير السلجوقي نظام الملك، راعي العلم والعلماء، قد بنى بها مدرسة عجيبة، فلعلّه يدخلها بتوصية من أستاذه.

هشَّ محمّد بوجهه لعليّ، وطلب منه مزيدًا من الرسائل بعدما أخبره بما انتهى إليه علمه من قراءة الرسالة الأولى. ابتهج الشابّ بصديقه ووعده بأن يطلعه على مزيد من تلك الرسائل شيئًا فشيئًا. ثم ذهبا إلى الدرس معًا. وحاول محمّد أن يشتَمَّ من كلام أستاذه بعض ملامح وآثار انتماءاته الفكريّة. كان الدرسُ هذا اليوم بعيدًا عن المقرَّر للطلبة حول العلوم الفقهيّة، وارتأى الشيخ أن يُحدِّثَهُم عن علم لم يسمعوا عنه من قبل، ويتعلَّق بمعرفة المبادئ الروحانيّة

والجسمانيّة ومراتبها. ابتدأ الأستاذ درسه بسؤال فقال: كيف سرى الوجود في الموجودات؟

اضطرب الطلّاب ولم يُجِبْ منهم أحد، فقال الأستاذ: اعلموا أيّها الإخوان الأبرار الرحماء. وهنا تعجَّب محمّد كيف أنّ الأستاذ يخاطبهم بهذا الوصف الذي صادفه عند اطّلاعه على مراتب الإخوان الأربعة، فأدركَ أنّه كان في محفل الإخوان من غير أن يدري.

أكمل الأستاذ حديثه عن سريان الصفات بالموصوفات، وكيف تسري القدرة في المقدور؟ والمحبّة في المحبوب، والعلم في المعلوم.

لم يسبق للأستاذ أن تحدّث إليهم عن هذا النوع من المعرفة. وهنا أدرك محمّد أنّه كان لحدّ الآن يتعلّم المعلومات، أمّا الآن فهو بصدد علم آخر يعلِّمه كيف يفكِّر في المعلومات. لم يكن مُعتادًا على مثل هذا التمرين الذي أظهر له ما كان مستترًا من جهله. حاول أن يجيب، فلم يجد ما به يجيب على تلك الأسئلة. كيف يَحُلُّ الوجود في الموجودات؟ صار يسأل نفسه: وما هي طبيعة هذا الوجود حتى نقول فيه إنّه حَلَّ في الموجودات؟ هل هو الحياة؟ وما هي الحياة؟ هل هي النفس أو الروح القائم بالإنسان؟ وإن كانت هيَ هِي، فأين التمييز بين المراتب؟ وبدا له أنّ أسئلته بدأت تنغلق عليه أكثر ممّا تفتح له مزيدًا من الآفاق، إذ كلُّ سؤال يرتفع ليعود من حيث بدأ، فيقع الدَّوْرُ وتنغلق الدائرة، فأدركَ أنّه

ربّما لم يكن يحسن طرحَ السؤال الذي ينبغي. ثم إنّ السؤال كان عن الكيفيّة وليس عن الماهيّة، فما باله لا يميّز بينهما؟ اختلطت الأمور في عقل الشابّ، وأدرك أنّ عليه تحصيلَ هذه العلوم، وضَبْطَ كيفيّة السؤال وأنواع المطالب كما في علم المنطق. كان درسُ الأستاذ ذلك اليوم أسئلةً أكثر منه تقديمًا لأجوبة. لم يكن يَعنيه أن يُقدِّمَ قناعات نهائيّة لطلبته، بل كان يَهُمُّه استِنْفَارُ فُضولِهم ورغبَتِهم في التفكير والعلم. فمتى أدركوا هذه المنطقة، استطاعوا أن يُواجهوا كلّ شيء بهذه الطاقة الكبيرة على التمثّل والتصوّر، انطلاقًا من السؤال. لقد أدرك محمّد أنّ فنَّ طرحِ الأسئلة هو مقياسُ النباهة والذكاء، وليس فقط تجميع المعلومات كما كان يعتقد من قبل.

ثم إنّ الأستاذَ بدرت منه بادرة، فأومأ إلى أنّ طريقَ الجواب عن مثل هذه الأسئلة يوجد في رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، كما أنّ الظفرَ بتلك الطريقة في الفهم منوطٌ بالالتزام بآدابهم، والدخول في شروطهم وتوسيع دائرة السماحة. فالحقيقة ليست حَكْرًا على أحد. كان هذا من آخر الدروس التي سمعها من شيخه أبي نصر، بعد أن علَّق عليه التعليقة في الفقه. لقد أراد الأستاذ أن ينبّه النابهين أنّ وراء علوم الفقه علومًا أخرى، عليهم أن يجتهدوا في طلبها عند أصحابها

وعند نهاية الدرس ألحّ محمّد على صديقه بإعطائه المزيد من الرسائل، فأجابه إلى ما طلب، بعدما رأى رغبَتَهُ العارِمَة في

التعلُّم. لقد كان محمّد نابهًا فَقَهَ أقرانه عِلمًا. خرجا من المدرسة واتّجها إلى بيت عليّ الذي أخرج لصديقه مجموعة من تلك الرسائل الملفوفة في أغشية جلديّة سميكة، وأَتْبَعَ التسليمَ بعبارات الاحتراز والتحفُّظِ في مطالعتها، والتكتُّم في إطلاعِ أحد عليها. ثم كلَّمَه عن مراتب الإسماعيليّة السبع، وحَضَّهُ على السعي للوصول إلى المراتب العليا. علم محمّد من عليّ أنّ الإسماعيليّة تُقسِّم جماعَتَهُم إلى سبع، أوّلها، مرتبة الحجّة وعدد أفرادها سبعة، والمرتبة الثانية خاصّة بكبار الدعاة، ولا يجاوز عددهم ثلاثة، والمرتبة الثالثة خاصّة بالدعاة، ثم مرتبة الرفاق ومهمّتهم الإعداد، ومرتبة الفداويّة، الذين كانوا يُضَحُّون بأنفسهم في سبيل الدعوة فداء للحجّة، ومرتبة اللاصقين أو المنتسبين، ثم أخيرًا المرتبة السابعة للمستجيبين، وهم عامّة الناس أو مَنْ لهم عطف وإيمان بالدعوة. ارتبك محمّد من هذا التنظيم السرّي الخطير، وساير صديقه في ضرورة أن يصبح يومًا ما أحدَ أركان الدعوة.

وبينما كان عليّ يرافق محمّدًا لخارج البيت، إذ لمح عليّ أختَه مع قرينة لها فسلَّم عليهما، ثم قدَّم لهما صديقه قائلاً: هذا محمّد الغزّالي أَنْبَهُ طالب في مدرستنا. لاحت من الفتاتين إيماءةُ إعجاب، فتبسَّم لهما محمّد عِرفانًا ثم نظر إلى صديقه عليّ كما لو أنّه يستفسره، وفَطِنَ الصديق بسرعة إلى دلالة تلك النظرة فقال: هذه شقيقتي فاطمة، ثم توقَّفَ مُتردِّدًا، ففحَصَهُ محمّد بنظرة أخرى. ثم أكمَلَ عليّ قائلاً: لعلَّ الفتاة إحدى صُويحباتِ فاطمة. امتعض محمّد من هذا التقديم إذ كان يرغب في مزيد إيضاح، لكنّ عليًّا لم

يُسعِفْهُ بالبيان المرتَقَب. وهنا تكلَّمتْ فاطمة بصوت رخيم: أهلاً بكما، ثم أردفَتْ: هذه صديقتي الطاهرة، قد جاءت تُودِّعُني. لم يملِكْ محمّد نفسَه حتى قال: أهلاً بكما ثم توجَّه إلى الفتاة: وإلى أين السَّفَرُ إن شاء الله؟ أَزَالَتِ الطاهرةُ طَرَفًا من خِمارها وسلَّمَتْ على الشابّين، ثم ألقتْ نظرةً خاطفةً إلى محمّد وقالت: إلى نيسابور. وفجأة توقَّفَتْ حين لمحتِ الرسائلَ التي كان يحمِلُها فقالت: ما هذه الكتبُ؟ فقال عليّ: إنّ صاحبي مُهتَمٌّ برسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء. وقد ألحّ عليّ حتى أعطيتُه بعضها ليقرأها فقالت الفتاة: إنّ هذا كنز ثمين، فعليك بالحفاظ عليه حتى تكون أهلاً لأن تصبحَ في عِدادِ الإخوان.

انشغل عليّ بالحديث إلى أخته فاطمة، وترك فرصة لمحمّد لينفرد بالطاهرة والحديث إليها.

وحصلتْ لمحمّد شبهُ غيبوبةٍ لَمَّا عاينَ الفتاة وجمالَها عن قرب، وحديثَها الرائقَ العذبَ. تباطأ في الإجابة عن كلامها لغرقه في معاينة ذلك البهاء. ثم بدا له فجأة أن يتكلّمَ حتى لا يُفسدَ فرصتَه فقال: أيّتها الأخت البارّة الرحيمة. وهنا ابتسمتِ الفتاة لمحمّد، فطار قلبُه لمَّا فَتَرَتْ شفَتَاها الحَمْرَاوَانِ عن شِبْهِ الدُّرّ. حاول أن يَضبطَ نَفَسَه لكنَّ وَجِيبَ نبْضِ قلبِه ارتفَعَ، وعَلَتْهُ حُمْرَةٌ كَشَفَتْ عن ارتباكِهِ، وتَلَعْثَمَ في الحديث بعدما كان قد أَبانَ عن قُوَّةِ استِحْضَارٍ لمّا نَعَتَ الفتاةَ بوصفٍ حبيبٍ لها لا يُطلَقُ إلّا بين أُنَاسٍ تَوَاطَأُوا على مِثْلِهِ فيما بينَهم. ثم عاود امتِلاكَ نَفَسِه بِعُسْرٍ وقال:

وهل قَرأتِ هذه الرسائل؟ فقالت الفتاة: نعم، لقد قرأتُها مَرَّاتٍ عديدة حتى إنّي حفظتُ ما بها من مسائلَ وقضايا وآراء. وهنا سَنحتْ لمحمّد سانحة ظنَّ أنّ عليه أن يلتقطها فقال: وكيف السبيلُ إلى تَعلُّم هذه الرسائل أيّتها الرحيمة البارّة؟ فَطِنَتِ الفَتاةُ أنّ الشابَّ تَجَنَّبَ مُناداتَها بـ «الأخت». فأرادت تصحيحَ الأمر، لكنّه قال لها: وهل هذه الأُخوَّةُ التي بين الإخوان من قبيل القَرابة التي بين المحارم؟ أدركَتِ الفَتاةُ بذكائها ما كان يَرمي إليه محمّد، فقالت: إنّ هذه الأخوّةَ قرابةٌ علميّة فقط، ولا يترتَّبُ عليها ما قد يَترتَّبُ على القرابة الطينيّة. تنفَّس محمّد الصُّعداءَ وأدرك ذكاءَ الفتاة. فلو كانت أُخْتًا لما حَلَّتْ له، ولَذَهَبَ هَواهُ بها سُدًى. لقد كَشَفَ للطاهِرَةِ حُبَّه بطريق الإشارة، ففهِمَتْ عنه وأجابَتْهُ إلى ما يُريد. وهنا بدا لمحمّد أن يُضيفَ: لقد علَّقتُ التَّعليقة[1] في الفقه على أبي نصر الإسماعيلي، ولم يبق لي إلّا أن أُسافرَ أيضًا إلى نيسابور بعد أن أَمُرَّ على بلدي طوس أوّلاً، فهل يمكنني رُؤيَتُكِ مجدَّدًا هناك؟ ابتسمَتِ الفتاةُ وقالت له: ألا يَرِفُّ لك جَفْنٌ ممّا تَتَجاسَرُ به أيّها الشابّ؟ فانقَضَّ محمّدٌ عليها بالسؤال: وكيف يَرِفُّ لي جفنٌ وبيننا قرابةُ الإخوان؟ فقالت الفتاة: لا أظُنُّكَ بَعْدُ من الإخوان الأبرار الرحماء، لكنَّ همَّتَكَ عالية، فقد علَّقْتَ التعليقة فأنت مستجيب.

---

(١) نوع من الدفاتر الكبيرة يكتبها الطلبة، تتضمّن تعليقات الأساتذة في كلّ صنوف العلم على الكتب المقرّرة، وهي مثل الشروح. وقد تصبح مشروعًا لكتاب مثل «المنخول من تعليقات الأصول» لأبي حامد للغزالي على أستاذه إمام الحرمين أبي المعالي الجويني. أمّا التعليق عند الإسماعيليّة فهو إحدى درجات تبليغ دعوتهم التسع، للمستجيبين.

فقال لها محمّد مستغربًا: ومن هو المستجيب؟ فأجابت: إنّه المبتدئ في الدعوة الإسماعيليّة. فإن واظبْتَ على هذه الرسائل ربّما قُبِلْتَ في هذا المحفل. فقال لها: وما علاقة التعليقة بالمستجيب؟ فأجابت: إنّها الدرجة الرابعة من الدرجات التسع في الدعوة. وصاحبها يبقى ينتظر ورودَ السرّ عليه، بعد تقديم التوبة والإكثار من الصلاة والصوم. فإن كان أهلاً أُخِذَ عليه العهدُ بالكتمان والحَلْفِ على عدم الإفشاء والتضييع. فقال محمّد: لقد أَقْسَمْتُ على تَحمُّل العلم بحضور شيخي أبي نصر، وأظنّ ذلك كان كافيًا لإحرازي التعليقة. لكن، أرجو أن تسمحي لي بزيارتك في نيسابور. ابتسمتِ الفتاةُ لهذا الإطراء، وشكرَتْ محمّدًا ثم قالت له: حضورُ محافِلنا مَنوطٌ بمدى اجتهادك وتكتُّمك، فَادْأَبْ على التخلّق بأخلاق الحكماء يا مستجيب، ولك منّي وَعدٌ بأنْ نلتقي في نيسابور. فهل لك قلم وورق لتُسجِّلَ عنوانَنا هناك؟ أدخلَ عليّ يده بين ثيابه بحثًا عن قلم كان يحمِلُه معه دائمًا، وبينما هو مُتعجِّل بإخراج القلم، جَرَحَ رَأْسُ القَلمِ كفَّهُ فسال منه الدَّمُ. أسرعَتِ الطاهرةُ وأخرَجَتْ منديلاً وأعطته له. أخذ محمّد المنديل وحاول تَنَشُّمَهُ خِلسة حين الْتَقَطَهُ من بين أنامل الفتاة، حتى إنّه حَرصَ على لمسها، فأخذته رعدة لطيفة، سَرَى إلى الطاهرة معناها فَابتسمتْ من الخَجَل، ثم وضع المنديلَ برفقٍ على جرحه البسيط، لكنّه لم يُحسنْ لَفَّه، فتقدَّمتِ الطاهرة وعقدَتْهُ له على كفِّه. وكم كان سعيدًا بلمسها له وعنايتها به. ارتبك ولم يَنْبِسْ بكلمة، لكنّ الطاهرة فَطِنَتْ لحاله فأخرجَتْهُ من حيرَتِهِ وذُهوله وقالت له: ألا تكتبُ عنواننا في

نيسابور؟ وهنا عاد له رشده من جديد فأجاب متردّدًا: بلى، بلى، فكلّي سمعٌ يا سيّدتي. فهمت الفتاة ما كان عليه من الحرج، فقالت له: من الأفضل أن أكتب لك العنوان بسبب جرحك. ثم أخذت قلمَ الغزالي، وهو ريشةُ طاووس تنتهي برأسٍ رَفِيعِ القَطِّ للكتابة الدَّقيقة. وسألته عن المداد، فأخرج كرة حبر جافّ داخل قارورة صغيرة صبَّ عليها من ماء نافورة البيت فتحوَّلت سائلاً وناولها للطاهرة، فأخذت في كتابة العنوان على لُفافَة صغيرة. سألته الطاهرة عن سرِّ اتّخاذه ريشةَ طاووسٍ للكتابة، فأجابها قائلاً: لم يتركْ لي والدي بعد مماته سوى هذه الريشة، وأوصاني بالعلم والتعلُّم حتى أصبح طاووسًا بين الطيور. فبادرَته الطاهرة قائلةً: ألا تخشى أن ينالك من الغرور في طلب العلم، كما هو حال الطاووس حين يزهو بريشه على بقيّة أبناء جنسه؟ فقال: لم يكن مقصود والدي من طلب العلم الزهو والغرور، بل حصول الشرف لأنّه لا أشرف من العلم. لكنّ الطاهرة تمادت في السؤال فقالت: ألم يكن والدك يقصد شيئًا آخر سوى ما حدَّثْتَنِي عنه؟ فقال: لا أدري، ولا أعتقد ذلك، وإلّا لماذا سيخفي عنّي أمرًا، أنا أوّلُ مَعنيٍّ به؟ فقالت: ربّما لأنّك كنتَ حدَثًا ولم يحصل لك علم بكلّ ما ترمز إليه الأشياء، ربّما كان الطاووس يشير إلى شيء آخر. فقال: ربّما، ولكنّي متيقّن من شيء واحد، وهو أنّ هذه الريشةَ تصلح للكتابة. وقد رأيتِ أنّها مكَّنَتْنا من حفظِ عنوانك، فإن لم يكن لهذه الريشةِ فَضلٌ سوى إبقاء حبل الصِّلة بيننا، فذلك يكفي.

ابتسمتِ الطاهرة لمحمّد فارتبك قليلاً، وحاول أن يَفكَّ

العقدة، ليُعيدَ المنديل إلى الطاهرة بعد أن توقَّف نزيفُه، لكنّها قالت له: أظنّ أنّه ينبغي عليك الاحتفاظُ به ملفوفًا على كفِّك حتى لا تتأذَّى من انفتاح جرحِك ووصولِ بعض الأوساخ والسُّموم إليه. فهذا المنديل هديّة منّي لك، وفيه سِرٌّ عليك بفكِّ إعجامه، فهو عينُك التي لا تنام يا فتى طوس. شكر الغزالي الفتاة، ولم يُصَدِّقْ أن تجودَ عليه بقطعة خالطتْ أنفاسَها، هديّةً له، فقال: سأحتفظ بهذا المنديل عُربونًا على صداقتنا الغالية وعنايَتِكِ بي، وأُقدِّرُ لك لُطفَكِ ونُبلَ مشاعِرِكِ، فأنت حقًّا طاهرة اسمًا ومسمّى، فها قد طهَّر مِنديلُكِ جُرحي، وسأحتفظ به في صدري لعلَّه يُطهِّر جُرحًا آخر داخليًّا. قال هذه الكلمات الأخيرة بصوت خافتٍ مرتبك. نظرت إليه الطاهرة نظرة خافتة ملؤها المكر والدلال والغَلَبَةُ النسويّة، ثم طرحَتْ عينيها إلى الأرض، حتى تترك له فرصةً للخروج من المشهد بانتصار رجولي لا يَجْرَحُ كبرياءَه. ثم بدا له أن يُهديها شيئًا فسارع قائلاً: وأنا بدوري أهديك هذه الريشة عربونًا على صداقتنا. أخذت الفتاة الريشة ودَسَّتها بين ثيابها. وفي هذه الأثناء عاد عليّ مع أخته لينضمّا إليهما، لكن محمّدًا لم يكن يُريد أن يفطنوا إلى ارتباكه، فسلَّم على الجميع وخرج مسرعًا إلى غرفته، حيث أمضى يومه وليلته في استنشاق عَرْفِ ذلك المنديل الذي اختلط ببقعة صغيرة من دمه، وراعَهُ وجود طرز بديع لمثلَّث غريب على أحد أضلاعه. حاول أن يتبيَّنَ ما بداخل خانات المثلّث فرأى أنّها حروف في غاية الدقّة لا تَكاد تُرى، بله أن تُستَبان، إذ كان عبارةً عن جدول به خطوط أفقيّة وأخرى عموديّة مائلة بحيث تُشَكِّلُ

خانات. دار بخلده أنّ تلك الحروف توقيعٌ باسم صاحبته، وعَزَمَ على الإمعان في المنديل لاحقًا لِيَفُكَّ لُغزَ إعجام تلك الحروف كما ذكرت له الطاهرة. كان سعيدًا بلقائه الذي جمعه بها، وكان أسْعَدَ بجُرأتِه التي باغتَتْهُ هو الآخر، ولم يَدْرِ لها سببًا سوى الحبّ. لقد أصبحَ المحبُّ فيه أشجعَ من الفتى الذي كان دائمًا يَعرِفُهُ، المُكِبِّ على الدراسة والتحصيل. لقد تثنَّى في ذاته، فلم يسبقْ له أن شعر بمثل هذا الشعور الذي يتشَظَّى فيه المرءُ إلى كيانات مُتعدِّدة، لا يبدو أنّ هناك رابطًا بينها لكنّه لم يكن متضايقًا من هذا التشظِّي المفاجئ، بل على العكس، كان سعيدًا لأنّه رأى أنّ بعض ذاته كان أوفى في قضاء أَرَبِهِ من بعضه الآخر. فلو خُيِّرَ، قبل أن يحصل هذا، لكان نفى وجود مثل هذا التعدّد في الذات الواحدة نفسها، لكنّه أَقرَّ الآنَ أنَّ الحبّ تنشأ عنه ذوات متعدّدة، متآزرة أو متصارعة، قد تُفضي إلى تحقيق الغرض نفسه، أو قد تتصارع فيما بينها. كان هذا الذوق الجديد في المحبّة أمرًا لم يَقرأ عنه من قبل، فحاول أن يستوفي نهمَه من هذا الشعور الجديد، وهذه التركيبة المستحدثة في ذاته، فلم يجد أوفى بين يديه سوى أن يعود إلى رسائل الإخوان. وزاد في طلبه ما اشْتُرِطَ عليه في الظَّفر بالمحبوبة، وهنا بدأ الاطِّلاعَ على ما يقوله إخوانُ الصفاء في الرسائل. فكان من بين ما وقف عليه رسالة في ماهيّة العشق، إذ كان العشق والمحبّة مُحَفِّزين له على أمرين: التعلُّم، والاجتماع بالحبيبة. كان عليه أن يعرف سبب هذا الانجذاب الذي لم يعرفه من قبل. لقد كان يعرف لماذا يُقبل على العلم تبعًا لوصيّة والده،

وتحقيقًا لبعض الوجاهة في الحياة والعيش الهانئ. أمّا حُبُّ هذه الفتاة فلم يكن يَعلم له سببًا سوى أنّه حَصَلَ مِنْ أوَّلِ نظرة، فَهَوَى حبُّها في قلبه وسقَطَ، ثم أخذَ بمجاميعه. فَلْيَبْدَأْ في معرفة كيفيّة نشوء الحبّ، ليعرفَ سِرَّ انجذابِه المفاجئ للطاهرة. لقد اجتمع لديه حافزان أساسيّان في استكناه كيفيّة السؤال، ومَسْكِ أجزاء المسائل من خلال إنزالها على ذاته. فقد كان مُحِبًّا، وهي حالةٌ تستدعي معرفةَ هذا الحبّ ومنشئه ومَبدئه وسِرِّه. كان يرغب أن يعرف شيئًا عن ماهيّة هذا الهوى في نفسه، ولماذا تسعى أجزاءُ المرء إلى الاتّحاد بأجزاء مَنْ يُحِبّ. لقد كان مُصِرًّا على تعلُّم كيفيّة مبدَإِ العشق، كما نبَّههم إلى ذلك الأستاذُ في درسه. حاول قبل أن يُطالع أقوال الحكماء والفلاسفة في هذا الموضع، فَفطِنَ إلى أنّ مبدأه نظرةٌ وقعتْ منه على الحبيبة، فصادفَتْ منها نظرًا. وحين الْتَقتِ النَّظرتان تولَّدتْ نُطفةُ الحبّ في قلبه، ولعلَّها نبتَتْ في قلب حِبِّه أيضًا، لكنّه لم يكن متأكّدًا من هذا الظنّ.

فماذا قال الحكماء عن المحبّة والعشق؟ يُعَرِّجُ إخوان الصفاء في رسالتهم حول هذا الموضوع على ذكر اختلاف آراء الحكماء حولَه، فيحصرون تلك الآراء في خمسة. فمنهم من ذمَّ العشق، واعتبره رذيلة. ومنهم من خالف هذا الفريق واعتبر العشق فضيلة. ومنهم من ألحقه بالأمراض النفسانيّة لمَّا لم يُدرك طبيعتَه وحقيقته. ومنهم من اختار أن يَنعتَه بكونه جنونًا إلٰهيًّا. وآخرون اعتبروه هِمَّةَ نفْسٍ بَطَّالَة فارغة.

لقد كان محمّد يميل إلى الجمع بين هذه الآراء المختلفة، فالعشق قد يتحوَّل إلى رذيلة إن كان موضوعُه رذيلة من الرذائل، وهو، على العكس، يصبح فضيلة إن سَمَا موضوعُه فيما يتفاضل فيه الناس. كما أنّه قد يُورِثُ في الإنسان حزنًا، فإذا طال أصبح مرضًا نفسانيًّا وقد يتمكَّنُ الحبّ من المرء فيستفرغُ كلَّ ذاتِه فيه حتى يصبحَ جنونًا إلٰهيًّا، أي أنّه يستتر عن شكله العارض ليعانق جوهرَه الثابت. وأخيرًا، إنّ الحبَّ، إذا تمكَّنَ، تَرَكَ النفسَ فارغةً من أيّ شيء سوى حُبِّ المحبوب وكثرةِ الذِّكر له والتفكُّر فيه، والوَلَهِ به والحُرقَة لما يُذَكِّر به. فلمّا مرَّت هذه الأفكار بفكر محمّد أدرك أنّ بعض من تكلَّم في المحبّة والعشق لا ذوقَ له فيها وليس الخبر كالعيان، بل ليس الخبر كالذوق والهَيَمَان. فإلى أيّ صِنفٍ هو محسوبٌ بعد أن وقف على هذه الأقوال؟ لقد كان يميل إلى اعتبار العشق هَتْكًا للأستار وكشْفًا للأسرار. كان يرغب في الوصول إلى التوحُّد بالنور المنبعث من مصدر شمس الحبّ، الطالع من مَفْرِقِ جَبينِ حبيبته. ثم ثار في ذهنه سؤال: أيّهما أسبقُ وجودًا: المعرفة أم المحبّة؟ حاول أن ينطلق من ذاته ليجيب على هذا السؤال، فتبيّن له أنّ المعرفة أسبق من المحبّة، فقد تعلَّم قبل أن يحبّ. ثم بدا له، بعد حينٍ، أنّه أقحم الزمان في مَعانٍ هي فوقَ الزمان، فاختلَّ الأمر لديه وبقي يُقلِّب جميعَ الأوجه. المحبّة أسبق وجودًا من المعرفة. ثم يعدو فيقول: بل المعرفة أسبق من المحبّة. ثم استوى لديه الأمر. وفجأة طلعت في ذهنه بارقة، فأنشأ يقول: المحبّة أسبق في الوجود ثم تليها

المعرفة، فإذا ترسَّخت تحوَّلتْ بدورها إلى محبّة أعلى. وظهر له أن يعكس فقال: المعرفة أسبق في الوجود من المحبّة، فإذا رَسختْ أثمرَتْ محبّةً في القلب، وتلك المحبّة بدورها تَزيدُ في المعرفة، فَتَتَحَصَّل لدينا معرفة ثانية هي غير الأولى، أو بالأحرى هي أكملُ منها وطَفِقَ يُقَلِّبُ كلَّ هذه الأوجه، فلم يَظفرْ بحلٍّ سوى أنّها من المعاني المتشابكة المرتبطة. والجواب عنها إمّا بالحال والذوق، أو بالعلم أو بالسمع. فاختار أن يُؤجِّلَ أمر الحَسمِ فيها إلى أن يَظهر له البرهان على أنّ الواحدَ منها فرعٌ للآخر، والثاني أصل له. فماذا يقول المعلّم في هذا: هل المعرفة فرع المحبّة؟ أم المحبّة فرع المعرفة؟ وحتى يدرك ذلك، عليه أوّلاً أن يعرف طبيعة كلّ واحد منها لقد أدرك محمّد أنّه بدأ فعلاً يفكّر بطريقة جيّدة. لم يحصل له اليقين ولكنّه ظَفِر بشيء ثمين. لقد بدأتْ تتَّضِح له معالم الطريق، على الرّغم من الغيوم المتلبّدة الحائلة دون الحسم في المواضيع. لقد شارف على تلك البلاد التي تمنحُه القدرةَ على مُساءلة المعاني، وقَلْبِ كلّ اليقينيّات إلى موضوع للمعرفة المتجدّدة. لن يقبلَ بغير هذا، لقد انتهى الزمن الذي كان يُصدِّق فيه قولَ القائل، بل عليه الآن أن يُعمِل فكرَه جَهْدَ طاقته حتى يستوليَ على الموضوع المفَكَّر فيه. ليست هناك مناطقُ محظورة، بل عليه أن يستقطع من مجال الفكر كلَّ المناطق اللامُفَكَّر فيها

كانت سعادة محمّد بالغة حين وصوله إلى هذه الحقيقة المؤرِّقة، وهي أنّه عليه الاعتماد على نفسه للوصول إلى الحقائق.

لن يرضى بغير هذا مستقبلاً لقد انتهى العهد الذي كان يطمئنّ فيه إلى قول الآخرين من دون مساءلتهم. حمد الله على هذه الخواطر السليمة، وشكر، بكلام نفسي، أستاذَه الذي دلَّه على هذه الطريقة المبتكرة في التفكير لقد أدرك أخيرًا معنى الحرِّيّة. ولعلّ درس الأستاذ الأخير الذي كان عبارة عن أسئلة هي لبُّ اللُّباب، ودعوتَه إلى استكمال هذه الدراسة عند مَنْ هُمْ أعلى من ذلك الأستاذ في نيسابور.

جالت الفكرة في ذهن الشابّ، وعزَم على أخذ الرسائل كاملة من صديقه. وبالفعل، فما إن اجتمعا في الأيّام المقبلة حتى حدَّثه بما توصَّل إليه، فازداد عليّ إعجابًا بصديقه وحبًّا، وحرَّضه على السفر إلى نيسابور. بل لقد أخبره أنّه سيكون من جملة المسافرين إلى هناك. ثم تواعدا على قراءة الرسائل معًا فقرآها قراءة من ينتمي إلى طائفة من الإخوان الخواصّ الذين لا يُظفَر بمثلهم في سائر الأزمان. وبعد أيّام قليلة أتمَّا الرسائل واستفاد منها محمّد استفادة عظمى، وانطرحَتْ في ذهنه المعلومات التي كانت لديه سابقًا. أو على الأصحّ أخذت وهجًا جديدًا بفضل آلة التفكير التي كانت مُعطَّلة من ذي قبل. كانت المعلومات التي يتلقّاها أشبه بجزر عائمة وسط بحر من المعارف، أمّا اليوم فقد أضحت هذه المعلومات منضبطة داخل نظام موحَّد، جعل من تلك الجزر مجموعًا متجانسًا. لقد كانت تلك الرسائل ثلاثًا وخمسين رسالة، والأخيرة هي الرسالة الجامعة لزبدة الرسائل الباقية. إنّها رسائل مبناها على التربيع كما يذكر أصحابها

استعدَّ الأخوان محمّد وأحمد للسفر، وقرَّرا الذهاب إلى نيسابور بعد المُكث في طوس. شجَّعهم أستاذهم على ذلك، وسلَّم الغزالي رسالةَ توصيةٍ إلى أبي عليّ الفضل بن محمّد الفارمذي الخراساني، زاهد خراسان، وقال له: احرص على إعطاء هذه الرسالة إلى أبي عليّ، فإنّ له دالَّة على الوزير السلجوقي نظام الملك، باني المدرسة النظاميّة في نيسابور، فإنّه لن يَرُدَّ له طلبًا. أخذ محمّد الرسالة والإجازة العلميّة من أستاذه وشكره كثيرًا وسأله الدعاء ثم ودَّعَه.

كان حادي الشوق يحثُّ الخطى بمحمّد ليصل إلى هناك، لكنّه كان مُضطرًّا للذهاب إلى طوس أوّلاً، للِّقاء بأبي عليّ الفارمذي الزاهد. لقد استكمل الرسائل، ونهمُه المعرفي والعشقي قد بلغ مداه. لقد انفتح طاسينٌ جديد أمامه، وعليه أن يصل إلى المنتهى.

طاسين الوصال

ودَّع الغزالي الأصدقاءَ والزملاء والإِخْوَان في جرجان، رجاءَ أن يجتمعوا بعد ذلك في نيسابور. خرج مع أخيه أحمد، ويمَّما صوب طوس بمفردهما كانت الطريقُ إلى طوس محفوفةً بالمخاطر؛ حيث قُطَّاعُ الطرق يتربَّصون بالمسافرين في الغابات الكثيرة هناك. كما كان الشابّان خائفين من اعتراض هؤلاء الفُتَّاك لهما. ورغم حَذَرِهِمَا الشديد، فإنّ هؤلاء العَيَّارين كانوا على علم بالمسالك. لكن كيف للمرء أن يتجنَّبهم وهم بين الأشجار أو خلف الصخور والأحجار؟ وبينما هما يَقْصِدَانِ في مِشْيَتِهِمَا ويُحاذِران، إذ طَلعتْ عليهما كتيبة من هؤلاء الفُتَّاك وأحاطتْ بالشابّين. انسحبَ الدمُ من وجهيهما وامتقعَ لونُهما. بقي محمّد صامدًا يُظْهِرُ من أَمْرِهِ الرجولةَ والإقدام. أمّا أحمد فقد جَثَا على رُكبتيه ضارعًا لمولاه. لم يكن يخشى شيئًا، فليس بحوزته شيء يُخافُ عليه، إذ كان يُخالط الصوفيّة والزهَّاد والفقراء، فأكسبَتْهُ تلكَ العِشْرَةُ تقليلاً مِنْ حُطام الدنيا. حَدَجَ مُقَدَّمُ العيَّارينَ الشابَّيْنِ بنَظرةٍ شَرِسَةٍ وقال لهما: ٱخْرُجَا عن كلِّ ما

تَمْلكانِ ثم ضَعَاهُ جانبًا. امتثل الأخوان لأمر زعيم الفُتَّاك. سألهما مرّة أخرى: هل معكما سلاح؟ فأجاب محمّد: يا سيّدي، ليس معنا أيُّ سِلاح، فنحن من طلبة العلم الفُقراء. نظر إليه الفاتك وانتهرَه: أتسخرُ منّي؟ أسرع محمّد بالإجابة: معاذَ الله يا سيّدي. فأضاف اللصّ: وكيف تدَّعي الفقر؟ إنّ من يتعلَّم في بلدنا هم أبناء الميسورين. فقال محمّد: صدقت يا سيّدي، لكنّنا حقًّا من أبناء الفقراء، ونحن أيتام، ولم ندرس إلّا بفضل عناية الله بنا، فقد تكفَّلتِ المدرسةُ بقُوتِنا وإيوائِنا. سكتَ اللصُّ لحظةً، ثم قال: سنرى. ثم أمر بعض غلمانه ليُفتِّشوا الأخوين. بحثوا بين ثيابهما، فلم يعثروا على شيء ذي بال سوى صُرَّةٍ فيها بعض الدراهم كانت مع محمّد، وأَشَاروا إلى الزَّعيم بذلك. غضب هذا الأخير لأنّ رحلةَ صيده لم تكن مكلَّلةً بالنجاح، فأزبد وأرغى، وانتهر وأَوْعَد. أخذ الصرّة ثم ظهر له أن يتركَ الأخوين ويذهبَ بِرُزَمِهِمَا. أمر رجاله بالمغادرة وطلب من الشابّين أن لا يُفَكِّرا في تَعَقُّبِ الجماعة. وفي طَرْفةِ عينٍ اختفى اللصوص من حيث أَتَوْا.

رجع الأخوان لرُشْدِهِما وتبيَّن لهما أنّهما فقدا كلَّ ما كانا يملكان من الثياب والكتب وبعض الأغراض الخاصّة. لم يأسف أحمد على ما أُخِذَ منه إذْ كان دائمَ الرِّضا بما يحصلُ له. لكنَّ أخاه لوى رأسَه وأخذ يعدو خلف اللصوص حتى كاد أن يلحقَ بهم. رَمقَهُ زعيمُ العصابة فأشهر سيفَه في وجهِه، يريدُ أن يقتنصَ رأسَه لولا أنّ الفتى تحاشاه بسرعة عجيبة.

* * *

اِلْتفتَ اللصُّ وقال: ويحكَ، ارجعْ وإلّا هلكتَ.

فقلت له: أَسألُكَ بالذي ترجو السلامةَ منه أن تَرُدَّ عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيءٍ تنتفعون به.

فقال مقدّم العصابة: وما هي تعليقَتُك؟

فقلتُ: كُتُبٌ في تلك المِخْلاةِ، هاجرتُ من بلدي طوس إلى جرجانَ لسماعِها وكتابتِها ومعرفةِ علمِها.

ضحك المقدّم ضحكًا مُدوِّيًا حتى كاد أن يَسقُطَ من فوق فَرَسِه، ثم قال: كيف تَدَّعي أنّك عرفتَ عِلْمَها وقد أخذناها منك، فتجرَّدتَ من معرفتها وبَقِيتَ بلا علم.

لم أَدْرِ جوابًا لهذا الاعتراض الوجيه. لكنّه أَمَرَ بعضَ أصحابه فناولني المخلاةَ وفيها التعليقةُ. أخرجتُ كنزي الثمينَ، ثم فتحتُ التعليقةَ في إحدى الصفحات المعلومةِ لديَّ فوجدتُ ما كنتُ أبحثُ عنه.

رمقني الزعيمُ وقال لي: ماذا تُخفي في تعليقتِكَ، ألم تقلْ إنَّ فيها كتبًا فقط؟

قلت: بلى. ثم تقدَّم منّي وأمرني بإظهار ما أخفيتُ، فأخرجتُ المنديلَ الذي أهدتني الطاهرة. فقال لي: وما ذاك؟ قلت: منديلٌ له ذكرى عزيزةٌ عليَّ. فقال: أَمِثْلُكَ يَتَصَابَى وأنت يتيمٌ فقيرٌ يطلبُ العلم. أَمَا كان الأَوْلَى بكَ أن تهتمَّ بدراسَتِك بدَلَ التهَمُّم بمنديلِ صاحبَتِكَ. فقلتُ: وهلِ الحُبُّ مُحرَّمٌ على الفقراء؟ زَمْجَرَ الفَاتِك بصوته، ثم أمرني أَنْ أُناولَه المنديلَ. امتنعتُ فوضع يده على مِقبض سيفه، وخشيتُ سوءَ العاقبة، ثم سلَّمتُه إيَّاه. أخذَهُ ونظر إليه. ثم قال لي: وَيْحَكَ، مِنْ أَيْنَ لكَ بهذا؟

فقلت: أهدتني إيّاهُ صَبِيَّةٌ من جرجان. فقال: أتعلم أنّ هذا المنديل خاصّ بالأكابر من آل البيت. فقلت له: لا علم لي يا سيّدي، وإنّما أنا صديق لهذه الأخت البَرَّة الرَّحيمة. وهنا ابتسم اللصّ وقال: إنّ هذا المثلّث المطرَّز على المنديل رمزٌ لآل البيت. وأخالُ أنّك محظوظٌ اليوم، ثم رمى لي ببقيَّة أمتعتي وأخرج صُرَّةَ دراهمي، فرأى الطاووس المطرّز عليها فقال لي: يا هذا، من أعطاك هذه الصرّة؟ فقلت: أحد المحسنين. وما اسمه؟ تردَّدتُ في الإجابة، مخافة أن أفتح عليّ مصاعب أخرى، فألحَّ عليّ حتى قلت له: لقد أعطانيها رجل يُقال له الحسن بن الصبّاح، وطلب منّي أن أصرفها في أمور تعلُّمي. أطرق الرجل هنيهة وقال: أصحيح ما تقول. فأقسمت له على صدقي. فقال لي: لا خوف عليك، فهذا

الرجل هو زعيمنا، وهو الحُجَّة القائمُ بأمر الدَّعوة. ولولا أنّه تَوسَّمَ فيك الخير لما أعطاك تلك الصرَّةَ التي تحمل خاتمه. وصرفني في لطف بعد أن أكَّدَ عليّ في عدم السفر بهذه المسالك منفردًا. ثم أمر بعضَ رجاله بمرافقتنا عن بُعْدٍ حتى مشارف طوس لتأمين طريقنا.

رجعتُ إلى أحمد الذي كان لا يزال غارقًا في سجوده، متوجِّهًا إلى المولى ليرفعَ عنَّا هذه الغُمَّة. ناديتُه من بُعْدٍ وقلتُ له: أَبْشِرْ يا أخي، إن الله مَنَّ علينا ببركة دعائك وخِدْمَتِكَ للصالحين. فقد استرجعتُ أمتعتَنا ودراهمَنا والتعليقة، وسيرافِقُنا بعض غِلمان الفَاتِك حتى طوس. تهلَّلَتْ أساريرُ أحمدَ، وشَكَر الله تعالى على نجاتنا، وقال لي: يا أخي لا تَعُدْ إلى ما فعلتَ، فقد تُقْتَلُ على أيدي هؤلاء الأوباش الذين لا يُراعُونَ حُرْمَةً لأحد. فقلتُ له: ألستَ أنت من يَحُضُّنِي دائمًا على الرِّضا. فما فعلتُ إلّا وفي ذلك توجيهٌ من الله سبحانه وتعالى. *مكتبة الرمحي أحمد*

فقال أحمد: صدقتَ يا أخي. ولكنّي خِلْتُ أنّي لن أراكَ مرّة ثانية. فهؤلاء الأوباشُ معروفونَ بسفك الدماء، ولولا عنايةُ الله لكُنَّا تحت سيوفهم.

قلت لأحمد: هيَّا بنا يا أخي، فَلْنُسْرِعْ حتى نصلَ طوس فقد طَسَّ بنا المُكثُ هنا. ولولا ذلك المثلّث على المنديل. ثم فَطِنْتُ فجأةً إلى أنّني كنتُ على وَشْكِ أَنْ أُذيعَ سِرَّ حُبِّي، فتوقَّفتُ. لم يُعِرْ أحمدُ كلامي اهتمامًا زائدًا، وحَسِبَهُ من اللغو الذي يكونُ في الكلام، عَدَا كونه لا يشتغلُ بما لا يعنيه. ثم ذكرتُ له ما حصلَ

لي مع زعيم العِصابة وقصّة الصُّرَّة، وتجنَّبْتُ ذكرَ قِصَّةِ المنديل. فقال لي: بُورِكَ فيكَ يا محمّد، لقد خاطرتَ بحياتِكَ من أجل العلم. فقلتُ له: لقد تعلَّمتُ كثيرًا ممّا جرى، ولقد أراد الله أن يُفهمني شيئًا جليلاً وَقَفْتُ عليه من كلام هذا الرجل، فإنّما هو مُسْتَنْطَقٌ أَنْطَقَهُ اللهُ لِيُرْشِدَني به في أمري. فعليَّ الاشتغالُ بالعِلم الذي يحصلُ في الصدور، لا ما أُودِعَ في هذه الأوراق، التي إن ضاعتْ ضاعَ عِلمُ الرجلِ معَها وبقي عَاطلاً عن كلِّ معرفة. ولو قُدِّرَ أن قَطَعَ علينا اللصوصُ الطريقَ مرَّة أخرى بقيَ معي عِلمي الذي أُودِعَ في صدري.

* * *

وصلنا إلى طوس، وأتتنا الأخبار عن دخول السلطان ملك شاه للريّ للترحُّم على عمِّ والده، السلطان طُغْرُلْ بِكْ، مؤسّس دولة السلاجقة المدفون داخل المنارة الدائريّة بالمدينة. شاهدتُ بعض العسكر ممّن سَرَّحَهُم السلطان من الخدمة، وفيهم كثير من الأوباش. تأذَّى الناس من ظلمهم وفسادهم، إذ بعد تسريحهم لم يكن لهم مدخول ماليّ يعيشون عليه، فأدَّى ذلك إلى سَطْوِهِمْ على ما بأيدي الناس. كَثُرَتِ الشكايات منهم. وقد سمعتُ من بعض أهل طوس أنّ الوزير نظام الملك لم يُوافقْ على تسريحهم من الخدمة، لكنّ السلطان لم يستمع لنُصحه، مع أنّ هؤلاء لا يُحسنون سوى الجُنْدِيَّة، وليست لهم مِهَنٌ يَحْتَرِفُونَ بها، فلا يُؤْمَنُ مَكرُهُم متى سُرِّحُوا، وهو ما حصل بالفعل. لجأ معظم هؤلاء إلى تُكُش، أخي السلطان، فتقوَّى بهم وأظهر العصيان واستولى على مَرو وتِرْمِذ، وقصد نيسابور طامعًا في تَملُّكِ خراسانَ بالكامل. حمدتُ الله أنّي لم أُسافِرْ رأسًا إلى نيسابور لحصول هذه الفتنة

فيها فما أصعب أن يَحُلَّ الإنسان في بلد مُتَهَيِّبٍ للحرب، مُنفتح على جميع الاحتمالات. فكيف والحال إن كان غريبًا ضعيفًا لا يملك من أمره شيئًا، فلن يكون إلّا أوَّلَ الحطبِ الذي يُلقَى في نار تلك الفتن.

اتَّصلتُ بمعارفي في طوس من الصوفيّة والفقراء وبعض الجيران. لقيتُ وأخي تِرْحَابًا كبيرًا، والحمدُ لله أنَّ طالبَ العلم يحظى باحترام شديد في بلدنا. سُرَّ الجميع بهذا التحوّل وأَثْنَوْا على الوالد رحمةُ الله عليه، الذي كان مَا فَتِئَ يَدْعُو الله بأن يَرزُقَهُ الذُّرِّيَّةَ العالمة التي تُعوِّضُه عمَّا كان يَجِيشُ في نفسه، من محبَّة العِلم والعُلماء، ومُخالطة أهل الصلاح. تكلَّمتُ مع أخي أحمد بشأن المُكْثِ بطوس حتى تَستقِرَّ الأوضاع، ونَنْظُرَ في شأن السفر إلى نيسابور. ثم نَدَبَ إليَّ أحمد أن نلازم الشيخ أبا عليّ الفارمذي، نأخذُ عنه علم الرقائق، حتى لا يَضيعَ وقتُنا سُدًى في طوس، ثم نُقرِئُ القرآنَ للصبية، ونستعينُ بالأُجرة على العيش حتى يُيَسِّرَ اللهُ التحاقَنا بالمدرسة النظاميّة في نيسابور. حمدتُ لأخي رأيَهُ الصائب وثَمَّنتُه. كان أوّلُ ما قمتُ به، بعد تَدَبُّرِ شؤون إقامتنا، الاتّصالَ بأبي عليّ الفارمذي. لما دخلتُ عليه أقبل عليَّ باسِمًا مُستبشِرًا وقال: أهلاً بابنِنا عَالِمِ خراسان بإذن الله. فقلت له: أهلاً وسهلاً يا سيّدي، ولتعذرني، فما جئتُ إليك عالمًا بل مُتعلِّمًا، وأرغبُ إليك في أن تَقْبَلَنِي ضمن طلبتك. فقال: مرحى مرحى، ذلكَ المرجُوُّ عندنا، فمثلُك مَنْ يُخْتَارُ للأخذ والملازمة حتى يَحْمِلَ هذا العلم.

جرى بيننا حديثٌ مطوَّل، وناولتُه رسالةَ أبي نصر الإسماعيلي، فسألني عن أخباره فأخبرتُه بما أعرفُ وبلَّغتُه سلامَه. ثم طمأنني بشأن الدراسَة في نيسابور، إلّا أنّه أكَّدَ عليَّ في الأخذِ عنهُ وملازمَتِه ثلاثَ سنوات في طوس، قبل السفر إلى هناك.

بدا لي أنَّ ما كنتُ قد بيَّتُّه من أمر السفر مباشرة إلى نيسابور أَخَذَ يبتعد، وآلمني البُعدُ عن الطاهرة. ثم ذكَر لي من أَمْرِ الصراعِ بين السلطان وأخيه في حكم البلاد، وأنّ الحكمةَ تقتضي الابتعادَ عن تلك الحاضرةِ، إلى أن تهدأَ الأوضاعُ. رَكَنْتُ إلى ما ذَكَرَ لي هذا الرجل الصالح لما أَعْلَمُ عن أمثاله، أنّهم لا يُلقونَ الكلام كيفما اتَّفَقَ، وإنّما إخباراتُهم من عَيْنِ الحكمة. ثم أخذتُ أُعَلِّلُ نفسي بالدعَة في طوس، وتَعَذُّرِ الوصول إلى نيسابور، بينما حَرَكةُ العسكر فيها غير آمنة، والقوتُ غير مضمون، وليس لي دَخْلٌ ولا أَهْلٌ هُناك. ثم تَذكَّرتُ أيّامَ الطفولة في طوس فانتابني حَنِينٌ إلى صُحبة الأخيار والصالحين والصوفيّة. ولكن ممّا زاد في تَعليل مُكثي كلَّ هذه المدّة في طوس قبل السفر إلى نيسابور هو عَزمي على حفظ كلِّ ما عَلَّقْتُ عن أبي نصر الإسماعيلي، من معارفَ وعلوم في صدري، فقد تعلَّمتُ من قاطع الطريق أنّ عِلمَ المرء لا ينبغي أن ينفَكَّ عنه.

ثَمَّنْتُ أقواله، على الرّغم ممّا قد كنتُ بَيَّتُّهُ مع أخي أحمد. ورغم حَثِّهِ لي في أخذ العلم بنيسابور على أئمَّتِها، من أمثال إمام الحرمين، أبي المعالي الجويني، إلّا أنّه أوصاني بالأدب مع الله

لأنّه أفضلُ ما في العلم. وحضَّني على ملازمته ليلقِّنَني علم السلوكِ إلى ربِّ العزّة. ولم يكن يَنسُبُ ذلك لنفسه على عادة أهل الله في طَرح النفس والهوى في مَزابِل الكون، بل كان يَنسُبُ ذلك لأشياخه، وفي مقدِّمَتِهِم أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة المشهورة.

* * *

خلال اجتماعي به في تلك السنوات، كثيرًا ما كان يَسْرُدُ لي سَنَدَيْهِ في الطريق إلى الله، فيقول في سنده الحسِّيّ: أخذنا ما نحن عليه من شيخنا أبي القاسم القشيري عن أبي عليّ الدقّاق، عن أبي القاسم النصر آباذي عن الشبلي، عن الجنيد، عن السري السقطي، عن معروف الكرخي، عن داود الطائي الذي لقي التابعين. لم أكن أفهم الفرقَ بين السند الأوّل والسند الثاني، فسألته قائلاً: وما هو سندك الثاني يا أبا عليّ؟ فقال: هذا السند الثاني خاصّ جدًّا، فهو روحاني، وأصحابه يُعرفون بالأُوَيْسِيِّينَ، نسبةً إلى أُوَيْس القَرْني الذي أمر النبيُّ، عليه الصلاة والسلام، صاحبيه أن يسألاه الدعاء، رغم أنّه لم يجتمع بالنبي لاشتغاله ببرّ والدته، إلّا أنّ معرفتَهُ برسول الله كانت كبيرة، لأنّه كان يأخذ من روحانيّته مباشرة، فَعُرِفَ سَنَدُ كلِّ مُنتسبٍ لشيخٍ تقدَّمَهُ لم يحصلْ بينهما اجتماع، بالسند الروحاني. وها هو ذا سندي أُخْبِرُكَ به. فقد أخذتُ واجتمعتُ بأبي الحسن الخرقاني، وهو أخذ عن روحانيّة أبي يزيد البسطامي، وهو

عن روحانيّة الإمام جعفر الصادق، وهو عن القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصدّيق، وهو عن سلمان الفارسي عن أبي بكر الصدّيق، عن سيّد العالمين.

فقلت له: فهل تأذن لي في السنَدَيْن يا سيّدي؟ فقال لي: ما أخبرتُك بهما إلّا لذلك الغرض، حتى تندرجَ حبَّتُكَ في سلسلة حبَّاتِ هذه السلسلة الذهبيّة. ثم أخذ يخبرني عن شيخه أبي القاسم القشيري الذي أعاد ترتيبَ المعارف الصوفيّة وفْقَ المنهاج النَّبوي، وحَرَّرَ المسائل وأصَّل الأصول فصار كتابُه «الرسالة القشيريّة» مرجعًا لا غنى عنه للمبتدئ أو المنتهي.

ثم تحدَّثنا عن الأسماء الحسنى، فسألتُه: يا سيّدي، ما معنى أن يُوصفَ السالك بوصفٍ من هذه الأسماء؟ فقال: سمعتُ شيخي أبا القاسم الخرقاني يقول: إنّ الأسماء التسعة والتسعين تَصيرُ أوصافًا للعبد السالك، وهو بعدُ في السلوك غيرُ وَاصلٍ.

استعظمتُ المقالة، وسألتُه بأدب: يا سيّدي، كيف للسالك أن يتَّصفَ بأوصاف إلٰهيّة؟ فقال: إنّ معاني الأسماء هي صفاتُ الله تعالى، وصفاتُه لا تصيرُ صفةً لغيره، ولكنْ معناه أن يَحصلَ له ما يناسبُ تلك الأوصافَ، كما يُقال: فلان حَصَلَ له علمُ أستاذِه، وعِلْمُ الأستاذ لا يَحْصلُ للتلميذ، بل يَحْصلُ له مِثْلُ عِلْمِهِ. فقلتُ له مرَّةً أخرى: وما معنى قولِ أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه: اِنْسَلَخْتُ مِنْ نفسي كما تنسلخُ الحيَّةُ من جلدها فنظرتُ فإذا أنا هو؟ ابتسمَ الشيخ لي وقال: بُورك فيكَ يا ولدي: هذا من نوع

الأسئلة التي تُحرِجُ المشايخَ، ولولا النور الساري من الحقيقة لما استطاع العبدُ أن يَفُكَّ إبهامَ هذا الكلام. ومعناه، والله أعلم، أنَّ مَنْ يَنسلخُ عن شهواتِ نفسِه وهواها وهمِّها، لا يبقى فيه مُتَّسَعٌ لغير الله، ولا يكونُ له هِمَّة سوى الله سبحانه وتعالى، وإذا لم يحلَّ في القلب إلّا جلالُ الله وجمالُه صار مُستغرِقًا به يصير كأنّه هو، لا أنّه هو تحقيقًا. وفرقٌ بين قولِنا «كأنّه هو» وبين قولنا «هُوَ هُو». لَكِنْ قد يُعَبَّرُ بقولنا «هُوَ هُو» عن قولنا «كأنّه هو» كما أنّ الشاعر تارة يقول «كأنّي من أهوى» وتارة يقول «أنا من أهوى». وَلْتَعْلَمْ يا ولدي أنّ هنا مَزَلَّةَ أقدامٍ ممَّنْ سمِع مثل هذه المقالات القَهْريَّة التي تكونُ في حالِ سُكْرٍ وفَناءٍ فَيُلَفِّق مِنْ قَبيلِها بلا ذوق. ومن لا قَدَمَ له في المعقولات ربّما لم يَتميَّزْ له أَحدُ الأمرين عن الآخر فينظر إلى كمال ذاته، وقد تزيَّنَ بما تلألأ فيه من حِلية الحقّ فيظنُّ أنّه هو فيقول «أنا الحقّ»، وهو ما غَلِطَتْ فيه النصارى.

فقلت له: وكيف ذلك؟

فقال: إنَّ مَنْ يَنظرُ إلى المرآة التي انطبعَتْ فيها صورةٌ مُتلوِّنَةٌ بلونِ الناظر فيها، يَظُنُّ أنّ تلكَ الصورةَ هي صورةُ المرآة، وأنّ ذلك اللونَ لونُ المرآة، وهيهاتَ، فالمرآةُ في ذاتِهَا لا لونَ لها، وشأنُها قَبولُ صُوَرِ الألوان، فكذلك القَلبُ خَالٍ عن الصوَرِ في نَفْسِه وعن الهيئاتِ والحقائق. وإنّما هيئتُه قَبولُ معاني الهيئاتِ والصور والحقائق. فما يَحُلُّ فيه يكونُ كالمتَّحِدِ به لا أنَّهُ مُتَّحِدٌ به تحقيقًا

ثم سألتُه عن أبي القاسم القشيري، وفي مخيِّلتي بعضُ

ملامِحِه حينما التقيتُه مع والدي، رحمةُ الله عليهما وأخبرتُه لمّا مسحَ على رأسي وأنّه سلَّم والدي صُرَّةَ دراهم ليستعين بها على دراستي. ثم أذكر تَفرُّسَهُ فيّ وما قاله بشأني لوالدي. خطر ببالي أن أسألَ الشيخَ أبا عليّ عن الفَراسة، ثم تذكَّرتُ توسُّمَ الحسن بن الصبّاح فيّ، فلم أدر الفرقَ بين التوسُّم والتفرُّس فسألته عن ذلك، فقال: قال شيخنا أبو القاسم القشيري: المتوسِّم هو الذي يَعْرِفُ بالوَسْم ما في القلوب بالعلامات والاستدلال. أمّا المتفرِّسُ، فإنّه ينظرُ بِنُورِ الله، يَقذِفُه في قلبه فَيَهْجُمُ الخاطرُ عليه ويَفترِسُ غيرَه من الخواطر. وقد كان لشيخنا باع في الفراسة والفروسيّة واستعمال السلاح والفُتوَّة. وأذكرُ أنّه لمّا تُوُفِّيَ تركَ فرسًا كان يركبُها ويحبُّها فلمّا مات، لم تكن تترك أحدًا يركبُها ولحِقتْ به بعد قليل وماتَتْ. فانْظرْ يا ولدي إلى العجماوات تَأْلفُ وتُؤْلَفُ، فإن كان هذا في البهائم فما بالُك بالأناسي؟ رَزَقَنَا اللهُ حسنَ الفهم، آمين.

سلكتُ، خلال مقامي في طوس، طريقَ الإرادة، ولقَّنني أبو عليّ أورادَ الطريقة وكيفيّةَ الاستفتاح، وأوصاني بملازمة أرباب الصدور، وحذَّرني من الغُرور قائلاً: سيحصل لك جاه عظيم وعلم كثير، فاحرصْ على أن تكون طاووس الفقراء. فطاووس الوجهاء يرفعُ ذيلَه فتنكشفُ للناس عورتُه، وطاووسُ الفقراء ساكنٌ بين إخوانه لا يتكبَّر ولا يترفَّع، ولا يَرفعُ ذيلهُ على إخوانه، منحجبٌ بعلمه عن الغير، فإن نطقَ نَطق بالله وإن صَمَتَ صَمت بالله، وإن سمعَ سمِع بالله، فلا تكون منه ذرَّة إلّا لله، عبدٌ خالصٌ في عبوديّته، قِنٌّ من الأَقْنان في مملكة العبيد، لكنّه مَلِك الملوك عند المَلِك

الديَّان. اِخترْ هذا الطريقَ، واعلمْ أنّ فيك قوّةً فقهيّة ستلابسُك وستمنعُ عنك لوامعَ الحقيقة الأزليّة، فلا تَركنْ لتلك القوّة، بل انفخْ فيها من نور الحقيقة، حتى تُنهتكَ لك الأسرار وتُرفعَ عنك الحجب والأستار. ثم أخذتِ الشيخَ شبهُ غيبوبة، وعلا وجهَه نورٌ وهَّاجٌ، لم أُطِقِ النظر إليه فخَفَضْتُ طَرْفي عن مُعاينة هذا اللألاء. ثم عاد إليَّ باسمًا مستبشرًا قائلاً: إنّك ابنُ الخامس بلا شكّ يا ولدي، أحيا الله بك زماننا، وجعلَك كليمَ سيناء، وطاسينَ نِداء.

لم أدرك الحال الذي حصل له، ولا هذا الكلام الذي نطق به، لكنّي اقتنعت في باطني بصدق الرجل، وإن كنتُ أُنكر هذه الأحوال التي يَدَّعِيهَا كثيرٌ من أهل النِّسْبَةِ بلا بَيِّنَةٍ. ولكنّي لم أُرِدْ أن أَرْفَعَ هُدْبَ الجُفون عن **سرِّ العُيون**.

وبعد خُفوتِ حاله انتبهَ إليّ وابتسم، ثم أخرج من بين ثيابه لُفافةً مثل التَّميمة فتَحَها، فرأيتُ بشكل خاطفٍ جدولاً مثلّثًا لم أتبيَّنه جيِّدًا، فقال لي: عندي هذا الخاتم الشريف، وقد خصَّني به أحد مشايخي في بلخ، وها أنا أَخُصُّكَ به لصدقك.

ثم ربط التميمة إلى عنقي وأوصاني بكتمه عن الجهّال لأنّ في الخاتم اسم الله الأعظم. كما حذَّرني من فتح التميمة إلّا عند الضرورة. ثم أوصاني حَالَ فَتْحِها بالاستعانة بالله، فإنّ الخَطْبَ يَزُولُ بإذن الله.

بقيتُ متفكِّرًا في كلام الشيخ، وأنا أعجبُ من هذا الجدول الشريف الذي بدا لي كأنّه يشبه المثلّث الذي على منديل الطاهرة.

استأذنتُ، ثم بقيتُ متفكّرًا في ذكر الطاووس مرّة أخرى. لقد أوصاني والدي، رحمة الله عليه، بأن أكونَ طاووسًا ونسرًا مع أخي أحمد، وسلَّمني الحسن بن الصبّاح صُرَّة دراهم، عليها رسم طاووس، أستعين بها على دراستي، ونجوتُ من الفُتَّاك بفضل ذلك الرسم، وها هو الشيخ يحدِّثني اليومَ في طوس عن الطاووس، فمن يكونُ هذا الطائرُ العجيب؟ ولماذا يتراودني منذ البداية؟ ما حقيقتُه وما معناه؟

لقد بدأتُ أسألُ نفسي، ولم يَجُلْ بخاطري أن أُقَدِّمَ جوابًا عن أسئلتي، فقد تعلَّمتُ أنّ بعضَ الأسئلةِ أَوْفَى يَقينًا مِنْ كَثيرٍ من الأجوبة الواثِقة، فإنّها تَزجُّ بك مباشرةً في علم اليقين، ولكنّي كنتُ أطمحُ إلى ما وراءَ علم اليقين. فلعلَّ اللهَ يكشفُ لي يومًا عينَ اليقين، فيتحوّل العلم مشهودًا لديّ.

خلال مُكثي في طوس وملازمتي لأبي عليّ الفارمذي، تعرَّفت على طريق أهل الإرادة، وتلاشت من قلبي شيئًا فشيئًا الحُرقةُ بالطاهرة، فقد استطاع طريقُ الإرادة إلى الله أن يمحو من قلبي صورتَها، فنسيت ذكرَها والتهمُّمَ بها والحرقةَ من أجلها، وعدت إلى التحصيل والعلم والسلوك. كما دأب أخي على ذلك، وإن كان حظُّه في الوعظ وافرًا، لخدمته الصالحين وملازمته لهم. كما لقيت في طوس الكثير من أتباع مذهب التعليم من الإسماعيليّة، فقد عظمت دعوتهم، وتسامع الناس بالحسن بن الصبّاح الداعية الأكبر في خراسان، واجتمع له من أهلها النَّفَرُ

الكَثيرُ حتى استولى على بعض القِلاع الحَصينة وأقام فيها تعليمَه ودعوتَه. لكنّه كان داهية بحيث لم يُثِرِ الشبهات حولَه، فتركه السلطان السلجوقي ولم يتهمَّمْ بأمره. كان أتباعُه كُثُرًا من بين أترابي في الدراسة والتحصيل، وقد دعاني زميلي الكِيَا الهراسي لزيارة إحدى قلاعهم، ورغَّبني فيما فيها من المباهج والمسرّات. لقد سبق له أن زار القلعةَ من قبل. كنتُ مُتردِّدًا في الأمر، فنوازعي العقليّة تَصرفني عن ذلك، وتُذكِّرُني بوصيّة شيوخي ووالدي في العلم والتحصيل والسفر إلى نيسابور، لكنّ نوازعي الأخرى التي طعمتُ من لذّاتها في احتكاكي بالحسن بن الصبّاح وصديقي عليّ وحبيبتي الطاهرة، جعلتني أَحِنُّ في بعض الأحيان لاكْتِنَاهِ ما في تلك القلاع فأجبتُ زميلي للسفر معه إلى هناك.

لم أُخبر أخي أحمد بالموضوع، وخرجت متخفّيًا مع الكيا الهراسي، إلى إحدى القلاع الجبليّة. كان الفصل ربيعًا والثلوج تغطّي بعض القمم الجبليّة. قطعنا مسافة طويلة بين سهول صحراويّة جرداء في مقابل جبال تكسوها الثلوج. وبعد ساعات بدأ الخصب يظهر، وأشجار اللوز والفستق المزهرة تحيط بنا، حتى وصلنا إلى إحدى القرى الممتدّة على طول الطريق، فبتنا هناك عند أحد معارف صديقي. كانت الحفاوة بالغة، وطعمنا دجاجًا ورُزًّا مع لبن وجبن وبعض الفواكه. وفي الصباح غادرنا بعد صلاة الفجر. أخذت الجبال تبدو قريبة لنا، على الرّغم من الوقت الطويل الذي يقطعه المرء في تجاوز سفح واحد منها. دنونا من أحد هذه السفوح وصرنا في واد بين جبلين، ثم أخذنا في ارتقاء الجبال

وسط الأشجار اليانعة المزهرة. صعدنا وسط الجبال الشاهقة، ومررنا ببعض القرى المنعزلة. انتهت حقول الزرع وأوغلنا في الصعود حتى دنونا من أطراف الثلوج، ثم خضنا فيها دائمًا نحو الأعلى. بعض الخراف ترعى في هذه المراتع. ودأبنا على الصعود حتى وصلنا الذروة العليا من تلك الجبال، وأخذنا في السير على طولها كما لو أنّنا نسير في سهل منبسط. ثم أخذنا ننحدر بعد ذلك نمشي بين القمم الشاهقة وأمام أبصارنا جبال مكسوّة بالثلوج الخالدة. وخلال نزولنا شاهدنا فلّاحًا يحرث على بقرة وحمار. وخرجنا من طريقنا الثلجي، وبدأنا نمشي في مسلك ضيّق لا يتعدّى عرضه قدمًا على سفح الجبل. وبدأت أشجار أخرى تظهر لنا والخضرة تكتنفنا من كلّ جهة. كنّا بين الوديان والشعاب والجبال والسهول والتلال. تضاريس عجيبة وأماكن منعزلة لا يمكن للمرء أن يخاطر بنفسه للوصول إليها. ثم بدأنا الصعود مرّة أخرى في أرض جرداء. تلفَّتُّ خلفي فلم أُصدِّقْ أنّنا اجتزنا تلك الجبال الرهيبة الوَعْرَة، وأنّنا ما نزلنا منها إلّا لنُواجِه جبالاً أخرى أَوْعَرَ منها وأَرْعَبَ لنفوسنا. لكنّ صديقي كان يَعرف تلك المسالك فلم أُظهِر له ريبتي وتخوُّفي، ومشيت خَلْفَه أَتَتَبَّعُ خُطواته حَذْوًا بِحَذْوٍ، حتى لا تَزِلَّ قدمي، وأهوي في أحد هذه الوديان السحيقة المليئة بالجنّ والكائنات المخيفة. أخذنا في الصعود مرّة أخرى، وكان ارتقاء يسيرًا بين الأشجار والنباتات والأزهار الجبليّة، ثم ما لبثنا أن أخذنا في الانحدار مرّة أخرى حتى وصلنا إلى واد ضيِّق يجري فيه نهر. عبرنا جسرًا صغيرًا فوق الوادي لنعود إلى الصعود من

جديد وأوغلنا فيه، ورأينا قطعانًا من الأغنام، ثم مررنا بقرية طينيّة بها نيران في كلّ مكان. استفسرت من صديقي عن هذه النيران فأخبرني بأنّ عقيدة هؤلاء الناس سرّيّة ولا يُطلِعون عليها أحدًا، ولعلّهم مَجوس يعبدون النار. لكنّه ذكر لي أنّهم كرماء فتوقَّفنا عند أحدهم وأكرمنا إكرامًا قرويًّا حيث قدَّم لنا أكلة تسمّى هنا «جلو كَبَاب» وهو لحم مشوي مطبوخ على طبق من الرزّ. امتنعت عن أكل ذلك اللحم، فأخبرني صديقي أنّ جزَّارَ القرية مسلم يَذبح بذبيحة المسلمين. تردَّدْتُ ثم سمَّيتُ الله وأكلت. استغربتُ كيف أنّ هؤلاء القرويّين لا يأكلونَ الأجبان ويُحرِّمونها كما أخبرني صديقي. وبعد الإكرام غادرنا مرّة أخرى وصوَّبنا صعودًا لا نلوي على شيء، مُنْتَحِينَ الجبالَ الشاهقة. ومررنا بقرى نائية من بضعة فلّاحين. ثم أخذنا في الانحدار مرّة أخرى بعد أن وصلنا للقمّة وحولنا ثلوج وأشجار. وأَمْعَنَّا في الهبوط حتى وصلنا إلى واد آخر وقرية جديدة. ولاحظت أنّهم يزرعون الرزّ كثيرًا بهذه النواحي لوفرة الماء. عبرنا الوادي على جسر خشبي، ثم بدأنا في الصعود مرّة أخرى في جبال عالية لا يستطيع المرء أن يتسلّقها إلّا بجهد جهيد. كانت السفوح لا تخلو من أشجار مثمرة. قلت مخاطبًا نفسي ﴿جنَّاتٌ عن يمينٍ وشِمالٍ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾. هذه حقًّا جنّة على وجه البسيطة. جمال آسِرٌ وخَيراتٌ في كلّ مكان. بهجَةٌ للحَواسِّ ومهرجان للأرواح. وأخيرًا تبدَّتْ لنا القلعة أمامنا على رأس جبل، في نهاية الوادي الذي ينتصف نصفين أمام الجبل ليعود فيلتقي خلفه. بدت القلعة أمامنا على قمّة صخريّة ووراءها الجبال الصخريّة العاتية.

ورأيت قطيعًا من الضأن يتحرّك في رشاقة بين هذه الصخور ويشرب من الجداول المنسكبة من أعلى الجبل. وفي سفح الجبل حقول لأنواع من الحبوب، كالعدس والفاصوليا واللوبيا والحمّص، إضافة إلى أشجار الجوز والبندق. سلكنا مسربًا ضيّقًا في الجبل واستعنت بعصا أُمسِكُ بها توازني حتى لا أَهْوِي في الوادي السحيق ويتهشَّم رأسي. وفجأة أبصرنا مَنْحَلاً كبيرًا وسط مكان منبسط تكسوه الأزهار المختلفة والنباتات المتنوّعة والأشجار المثمرة. وصلنا أخيرًا إلى القلعة بعد جهد كبير. كانت محاطة بسور حجري عال، كما رأيت قناة محفورة في الصخر لجلب الماء إلى داخل القلعة. يحيط بالقلعة واد سحيق من كلّ جهة إلّا من الخلف حيث يمتدّ بسيط من الأرض تُحيط بها تلك الأسوار. لمّا وصلنا إلى القلعة رَاعَنَا بابُها الضخم القائم على أسطوانتين من الحجر الصَّلد، هما رُكْنا باب القلعة. قرع الزميل جرس الباب ففتح لنا شابّ بلباس أبيض، ورحَّب بنا لمعرفته السابقة بالزميل المرافق لي. رافقنا إلى إحدى غرف القلعة. ولاحظت في وسط القلعة وجود عدّة غرف متماثلة، سقوفها عقود حجريّة، وممسوكة بالحجر، وبداخل القلعة في أرض منخفضة بدا لي من نافذة الغرفة المعترضة بالقضبان الحديديّة بستان بديع مُلْتَفُّ الأشجار لا يمكن الدخول إليه، إذ يُشكِّل جدارُ الغُرَفِ أحدَ أسواره. كما رأيت إسطبلاً كبيرًا للدوابّ والخيول. وللقلعة خمسة أبراج. وفي أعلى تلك الأبراج أنظمة للإنذار بالنيران والدُّخَان والحَمَام، كلّما اقتضى الأمر إرسال رسالة عاجلة من القلعة. كما أنّ بها عدّة مخازن للمياه المحفورة

في الصخر، وبها أيضًا بئران عميقتان. سألت صديقي عن جدوى هاتين البئرين مع وجود مخازن الماء، فأخبرني أنّه يجهل الأمر. انتابتني شكوك حول وجود بئرين في جبل عال. فعادة لا تُحفر الآبار في قمم الجبال، وإنّما في الأراضي الواطئة. داخلني شكّ في أنّ تلك الآبار ربّما تكون أنفاقًا سرِّيّة. ثم رأيت حمّامًا من ثلاث غرف متّصلة على العادة المتّبعة في التدَرُّج بالحرارة من قاعة إلى أخرى. ورأيت مخزنًا آخر مَنحوتًا في الصخر، جدرانُه مُنَعَّمة بطبقة كِلسِيَّة تنبعث منه روائح العسل، وغير بعيد عنه مخزن آخر للحبوب. إضافة إلى أشجار متناثرة من شجر الرمّان والتوت والجوز.

طاسين القلعة

بعد أن أخذنا قسطًا وافرًا من الراحة، وطعمنا بعض الطعام واغتسلنا، أعطانا أحد القيّمين ثيابًا بيضاء، ثم التحقنا بإحدى قاعات القلعة، فوجدت فيها مجموعة من الشباب والفتيان باللباس الموحَّد نفسه، ونظام بديع، يتحدّثون بعضهم مع بعض. كانت القاعة مكتنفَة ببخور الطيب. أحسست كأنّ معه نسيمًا مختلفًا. وحيث إنّي كنت أتحسَّس من الأبخرة، فقد ابتعدتُ في إحدى الزوايا قرب نافذة أَتَنَشَّقُ منها الهواءَ النَّقِيَّ، وأَرْقُبُ ما يجري. انشغل عنّي صديقي الكيا الهراسي بالحديث مع أقرانه. وبدأتُ ألمحُ حركات غريبة يقوم بها هؤلاء الفتيان كأنّ بهم سُكرًا، لكنّي رأيت أنّهم كانوا في غاية السعادة. وبعد فترة فُتِحَتْ بعض الشرفات، فدخل نسيم عليل لَطَّفَ من أجواء القاعة وأبخرتها الكثيفة. وبينما كنت أَرْقُبُ هذه الحركات الغريبة والرقصات العجيبة، إذ دخل علينا رجل بلحية كَثَّة ولِباسٍ أبيض. لم أكن أَتبيَّنُ سحْنَتَهُ لخُفُوتِ النور داخل القاعة واكتنافِ البخور لبعض أرجائها.

كان الرجل في صدر المجلس. لكنّي لاحظتُ أنّ الأبخرة لا تكاد تصل إلى ذلك المكان حيث تيّارات الهواء الداخلة من الشرفات المتوازية على طول صدر المجلس تَحُولُ دون تَشَابُكِ الدخان هناك. لقد كان في منأى عن البخور، ولم أَعْرِفِ السبب. رحَّب المتكلّم بالحاضرين، وحَسِبْتُ أنّي سمعتُ هذه اللكنةَ من قبلُ، لكنّ ذاكرتي لم تُسعِفني في تَبيُّنِ مَنْ يَكون. ثم دخل أشخاص آخرون جلسوا في صدر المجلس بالقرب من ذلك الداخل الأوّل. وفجأة رأيت شمسيّة في الجدار الجوفي الموالي لصدر المجلس على شكل طاووس، فتعجَّبتُ مرّة أخرى من هذه الموافقات المطَّردة، لكنّ التشكيل لم يكن يُظهرُ طائرَ الطاووس إلّا بعد التمَعُّنِ في تلك الزخرفة. أَحسستُ بِخَدَرٍ بسيط، بينما كان المتحدّث يتكلَّم عن الإمام المستنصر في مصر. تنشَّقتُ الهواءَ الداخل من الشرفة الصغيرة التي كنت بجانبها، فانتبهت. ثم سمعتُ الرجل يدعو الفتيان لخدمة هذا الإمام خدمةً مطلقة، والتكتُّم في إظهار الدعوة بين الغرباء، والانسِلال إلى كُلِّ الفِرق والمذاهب والعيش بينهم ومعرفة أسرارهم وخباياهم. كان الفتيان يُكبِّرون ويُنَادُون: يا حسين، كلَّما نَبَسَ الكهلُ بجملة من جُمَل كلامه. ثم أخبرهم أنَّ من يؤدّي واجبَه سيكون نصيبُه الجنّة، وأنّ الله أكرمه بعدّة كرامات ومعجزات، وأظهر على يديه القدرة على كشف بعض من الملذّات التي تنتظر المخلصين من أبناء الطائفة، في هذه الدنيا قبل الآخرة. كنت أُحسُّ بلذّة تسري في جسدي لا أُطيقُ دَفْعَها بل لا أرغبُ في دفْعِها وبدا لي أنّ المتكلّم على حقّ، بسبب الهالة النوارنيّة

العظيمة التي تحيط به، لكنّي كنت أَعْقِلُ كلَّ ما يجري رغم الخَدَرِ البسيط. ومن بين ما قاله وعَلِقَ بقلبي: اعلموا أيّها الأحبّة من أنصار آل البيت الأطهار أن **لا حقيقةَ في الوجود، وكلُّ شيء مباح**. استغربتُ هذه المقالة، ولكنّ حالي القائم كان يدفعني لتصديقها فاللذّة السارية في كياني كانت تنفي عنّي كلّ حقيقة وجوديّة، سوى ما أنا فيه من لذّة. ولم أَجِدْ غَضاضةً في استطابة هذه اللذّة مع جهلي بمصدرها. وبينما هو في حديثه الرائق عن مباهج الجنّة والحور العين وما أُعِدَّ لأبناء هذه الطائفة من الخيرات، إذ ارتفع صوت الرجل مشيرًا إلى باب في القاعة، فَلَفَتَ انتباهي وقال: إنّ من يريد أن يرى مكانه من الجنّة فعليه أن يقسم على أن لا يفارق جماعتنا وأن يمتثل أوامرنا وأن يخدمنا خدمة تامّة، فلا إرادة له معنا سوى ما نأمره به. هلَّل الفتيان وكبَّروا ونادوا يا حسين، يا حسين، يا حسين.

بقيت منزويًا في مكاني حيث كنت أتنفَّس على راحتي، إذ تضيق نَفْسي بالأبخرة. وبينما نحن في هذه الأجواء العجيبة، لمحتُ الباب الحجري الذي أشار إليه، وقد نُقِشَ على مِصراعيه المثلَّث نفسه الذي رأيته مُطرَّزًا على منديل الطاهرة، والخاتم الشريف الذي خصَّني به أبو عليّ الفارمذي. زاد ذلك من تعجّبي وكدت أتقدّم لأعاين عن قرب ما كُتِبَ على الخانات التي لم يُسعفني منديل حبيبتي في تبيُّنها وقراءتها. تقدَّمتُ ثم ضاقت نفْسي وأحسست بغيبوبة بسيطة، ما لبثْتُ أن زالت لمّا تقهقرتُ لأستنشقَ هواءً نقيًّا. أخذ بعض الفتيان يسقطون على الأرض في شبه غيبوبة،

فأتى من حَمَلَهُمْ وواراهم خلف ذلك الباب. كنت أرغب في معرفة ما سيحصل، وتظاهرتُ بالسقوط فجاء نحوي شابّان قويّان مُلَثَّمان وحملاني. لمّا اقتربنا من الباب عاينتُ الأحرفَ التي كنت أرغب في معرفتها داخل الخانات التسع للمثلّث المحفور على الباب. كانت الخانات التسع نفسها على شكل مثلّثات صغيرة داخل المثلّث الكبير الذي يجمعها فمثلّثُ الهاء في قمّة المثلّث وتحته ثلاثة مثلّثات تضمّ حروف الحاء والألف والواو. وفي السطر الأخير للمثلّث ممّا يلي قاعدته خمسة مثلّثات تضمّ حروف الباء والجيم والطاء والزاي والدال. حفظت ترتيب الحروف من الأعلى إلى الأسفل بسرعة فائقة، إذ كانت ذاكرتي تشتغل بقوّة، منذ حادثة قاطع الطريق الذي أفادني في حفظ العلم بدل تعليقه. كان الباب ينفتح ثم ينغلق مباشرة بعد دخول الشابّين القويَّيْن المكلَّفَين بحمل الفِتيان المتَرَنِّحِينَ بالخَدَر. وضعاني على الأرض بجانب الآخرين، وأنا أُحاذر أن أُظهر أنّي على وعي بما يجري، بل كنت أُصدر أصواتًا كمثل من يَغِطُّ في نومه. انصرف الحمَّالون وتركونا هناك على الأرض. كنّا حوالى عشرة فتيان. كان زملائي كلّهم غائبين عن الوعي. بقيت مُسَمَّرًا في مكاني أنتظر ما يحصل، فإذا بفتيات يقتربن من كلّ واحد منّا أَدْنَتْ كلّ واحدة قارورةً صغيرة من أنفه. أحسستُ بانتعاش عجيب رغم أنّي كنت مالكًا لوعيي، ولم أَغِبْ مثل صُحْبَتِي. وبسرعة فائقة، ولَّتِ الفتياتُ هاربةً. وبعد قليل بدأتُ أسمع صوتًا نَدِيًّا يَصْدَحُ بغناء عذب. كان الصوتُ الطَّروبُ مثل غناء الملائكة، أو يُخَيَّلُ إليّ كذلك، فلم أسمعْ مَلَكًا يُغَنِّي من قبل،

لكنّي كنتُ أعتقدُ أنّ أصواتَها لا يمكن أن تكون إلّا من قَبيلِ ما أسمعُ. كانت الكلمات تُنادي علينا بالإقبال. انتبَهتُ لجهة الصوت كمن يقوم من نومه متثاقلاً، أَفْركُ عينيّ وأتظاهر بمحاولة فتحِهما، ثم فتحتُهُما أخيرًا وكم كانت دهشتي عظيمة، لقد كِدْتُ أُصْعَقُ ممّا أرى، جنَّاتٌ عن يمين وشمال، وأشجار مُلتَفَّةٌ من الجَوز والبُندُق والرمَّان والزيتون، وزهور بأشكال وأنواع مختلفة. طيور تزقزق، وماء ينسكب في لطف، وعشبٌ أخضر، ووجوهٌ كالبُدور تحيط بذات الصوت الطروب. هل كنتُ في حُلْمٍ أم في حقيقة؟ لقد كنت أعقِل كلَّ ما يجري، لكنّي كنتُ ألعبُ دَوْرَ من لا يَعِي ما يحصلُ حولَه. أَخَذَتْ إحدى الحسناوات بيدي فسرى إليَّ إحساسٌ مثل الذي عَرفتُهُ حين لقائي بالطاهرة. قلت لنفسي: هل يمكن أن تكون هذه الحوريّة من الحور العين؟ وهل كنت في الجنّة؟ لقد كان الكهل يذكر هذا الكلام وخِلْتُهُ مجازًا، وها أنذا أَلْمسُهُ عن قرب. كيف للمرء أن يَرغبَ في العيش بعيدًا عن هذه الأجواء الطيّبة والجِنان المكتنفة، وبين هذه الأثداء الكاعبة، وفي أحضان هذه البدور الساطعة؟ لو أنّ الجنّة هي ما أرى، لكان العصاةُ من أشقى الخَلق لأنّهم فرَّطوا في هذه الجوائز السَّنيّة. أَخذتْ صاحبتي بيدي وقلبي يكاد ينبعثُ من صدري فرَحًا وسعادة. كانت هذه الصبيّة الجَذِلَةُ تعدو بي في تلك المراتع كظبي نَافِرٍ إلى كِنَاسِهِ. لم أكنْ أملكُ إلّا أن أُطاوعَها. ولو خُيِّرْتُ لضَمَمْتُها إلى صدري أشْفِي غُلَّتي من هذا الحُسن البديع، لكنّها كانت تقفز بي بين الزهور وجداول الماء المنسكبة في هذه الجنّة. أمّا الصوت الملائكي فكأنَّ

توقيعَه يُنْبِضُ أوتارَ روحي بترجيعِه. بدأ الفتيان الآخرون يستيقظون، وظَفِر كلٌّ واحد منهم بحوريّة من حُورِ هذه الجنان. جَلَسَتْ وَجَلَسْتُ بجانبها قرب جدول منسكب، فأَخَذَتْ من ذلك الماء الرقراق ونَضَحَتْ منه على وجهها، فكأنّه دُرٌّ منثور على صفحةٍ بيضاءَ كالفضّة. ثم أَخَذَتْ مِلْءَ كفَّيها وشَرِبَتْ وعَرَضَتْ عليَّ إن كنتُ أرغبُ في مُشاطرتها الشراب فأجبتُ بالإيجاب. أَخَذَتْ مرّة أخرى ملءَ كفَّيها ماءً وسقتني، فكنتُ أرشُفُه رشْفَ العصافير، أستطيبُ بَسْطَها لكفَّيْها حتى أشربَ في بُطءٍ وأُدِيمَ هذه اللحظات المستقطعةَ من زمان الجنّة. كان الماء في غاية الصفاء واللذّة، ما طعمتُ مثلَه من قَبْلُ، وأَحسبُه نابعًا من حوض الكوثر. قامت مرّة أخرى وأخذتْ رمّانةً هَشَمَتْهَا في رِفقٍ وناولتني حبَّاتٍ دامية، فَالْتَقَفْتُهَا من كفِّها كالمريض يرتقب الدواء الشافي المُستَقْطَر. أخذت الكفّ البيضاء ولَعِقْتُ دمَ الجُلَّنار. ابتسمتْ لي وضَحِكَتْ من تَذَلُّلِي وتَصَاغُرِي. حاولتُ أن أُكلِّمَها فأشارتْ إليَّ بالسكوت. فهمتُ أنَّ الوقتَ ليس للحديث بل للفَناء والمشاهدة، فامتثلتُ للأمر السامي من هذا الرشأ النافِر النافي. كنت أَلْحَظُ أترابي على نحو ما أنا فيه، لكنّي لاحظت تمايُلَهم وتَثاقُلَ حركاتهم فحاولتُ أن أُقلِّدَهُم حتى لا أَكْشِفَ أمري. لقد كنتُ متردِّدًا في التصديق مِنْ عَدَمِه، هل فِعْلاً كنتُ في الجنّة؟ لكنّي كنت أتعجَّب من كَوْنِ حُورِ الجنّة لم تَطَّلِعْ على ما بداخلي فداخلني الشكّ. لم أُعِرْ للأمر بالاً بسبب ما كنتُ فيه من اللذّة. قضينا سويعة في هذه المرابض الرائِعة والجِنان المتشابكَةِ أغصانُها، المتناغمَةِ أصواتُها، المتناسمَةِ

أعرافُها وكم وددتُ أن لا أبرحَ هذا المكان. جلسنا تحت شجرة لوز مزهرة ومرَّ أمامنا زوجُ طاووس، وأحْسَبُهُ ذكرًا وأنثاه. لم يسبق لي أن رأيتُ هذا الطائر من قبل، فأعجبني شكلُه البديع وذيلُه الرفيع الذي يشبه قبّة الكون بكواكبها. كان الذكر يَرْفُلُ في هذه الحُلَّة السماويّة العجيبة، وبدا وكأنّ الدوائر التي في ذيله تشبه عيونًا تنظر إلى كلّ شيء. أخذتُ في عَدِّ تلك العيون على عادتي في عَدِّ كلِّ شيء، لا أدري السبب في هذه العادة، هل هي وسواس نفسي أم حِرصٌ على معرفة نظام الكون وأشيائه؟ تعجَّبتُ كثيرًا لمّا أَلْفَيْتُ عددَ العيون مائة، فقلتُ سبحانَ الله. إنّ للجنّة مائة درجة، فهل هي على عدد عيون الطاووس التي ينظر بها إلى مراتب أهل الجنّة؟ أخذَتْ صبيَّتي بعضًا من القناني الفاخرة الصنع، وصَبَّتْ لي مشروبًا لا أدري ما هو إلّا أنّه أحلى من العسل وأَمْرَأُ مِنْ كُلِّ مَا سُغْتُ مِنْ قَبْلُ. اقترب منّي زوج الطاووس ولفحني بأهداب ذيله العجيب فوجدت لِمَلْمَسِهِ عُذُوبَةً، وخِلْتُ أنّ تلك العيون تُحَدِّقُ فِيَّ وتُحْدِقُ بي من كلّ جهة، فلم أجِدْ مَفَرًّا من الاستسلام لها، وغِبْتُ في إنسانِ عَيْنِ تلك العيون فانسَلَّتْ عنّي عُيوني. ثم بَدَأَتْ تفاصيلُ هذه الجِنان تَتَمَوَّهُ في عَيْنَيَّ وتَضيعُ كالماء الجاري. وخِلْتُ لِلَحْظَةٍ أنَّ عينيَّ فارقَتانِي إلى ذيل الطاووس، فَشُوهِدْتُ فيه وخرجت عن هيكلي الفاني، وهنا فَقدتُ وعيي وغاب عنّي كلّ شيء.

أَفَقْتُ ورأسي يُوجِعُنِي فوجدتُ نفسي في القاعة الأولى نفسها، ودبَّتْ فيَّ الحياة من جديد. لم تَعُدْ أجواءُ المكان مختنقة بالأبخرة التي سَلَفَتْ، بل نسيمٌ عليل يُدغدِغُ مسامَّ جلدي كلّها من

تحت ثيابي القطنيّة البيضاء. سقاني أحد الفتيان شرابًا منعشًا فرجع إليَّ وعيي كاملاً وهنا توجَّه الكهل الجالس في صدر المجلس إلينا بالكلام. تفرَّستُ فيه جيّدًا فبدت لي قسماته واضحة، وأدركتُ أنّه الحسن بن الصبّاح الملقّب بالكيا، الذي التقيته سابقًا في جرجان، لكنّي كتمتُ أمري ولم أَنبسْ بكلمة، حتى لا أَكشفَ أمري وأُفسدَ فرصتي. كان الحسن يرتدي رداء أبيض وعمامة بيضاء وبيده سيف يتّكئ عليه. وعن يمينه وشماله جلستْ حاشيتُه وبطانته. ورأيت أعلامًا مضروبة خلفه، بيضاء وحمراء وصفراء وخضراء، في زوايا القاعة. ثم رفع صوته قائلاً: إنّ إمام وقتنا قد بعث إليكم صلواته ورحماته، ودعاكم عبادَه المختارين، فسيروا في الأرض سيرًا، وادخلوا بين الناس وبَشِّروا بالدعوة المستنصريّة. أحبابي، لقد رأيتُمُ الجنّة وطعِمتُم مِنْ خيراتها ومباهِجها، فإن أنتم أخلَصْتُمْ لهذه الفئة فُزْتُمْ بها مُخَلَّدين أَبَدَ الآبدين، وإيّاكم والعودةَ إلى الكفر، بعد أن رأيتم بالعيان ولمستم باليقينِ النَّعيمَ المُدَّخَرَ لكم. أنتم الشهداء والفِدائيّون الأحرار.

تَوَقَّفَ الرجل عن الكلام، ووُزِّعَتْ علينا رسائلُ ملفوفةٌ أُمِرْنَا بفتحِها وقراءتها انشغَلْنَا بذلك، فَأَلْفَيْتُ الخطابَ يأمرُني بالذهاب إلى نيسابور والالتحاق بالمدرسة النظاميّة، والتعلّم على أساتذتها وملازمة علمائها، والتقرّب من الوزير نظام الملك، وانتظار الأمر.

ثم أُخِذَتْ منّا الرسائل مرَّة أخرى وأُلْقِيَتْ جميعُها في بيت نار صغير بالقاعة. وسُلِّمَتْ إلى كلّ واحد منّا صُرَّةُ دراهم. عاينتُها

فوجدتها تشبه الصُّرَّةَ التي سلَّمَنِيهَا الحسن بن الصبّاح من ذي قبل، وعليها طرز الطاووس نفسه.

لم أستغرب المهمّة التي أُوكِلَتْ إِلَيَّ بل فَرِحْتُ بها وفجأة دوَّى الصوت مرّة أخرى: لا تَكشِفوا أسرارَ طائفَتِنا، ومن خالفَ الأمر عُوقِبَ من الملك الدَّيَّان.

ثم أَمرهُم بالقَسَم وبَذْلِ الروح لإنجاز ما طُلِبَ منه. لم أجِدْ غَضَاضَةً في القَسَم لأنّ ما كان مطلوبًا منّي هو عَينُ مُخَطَّطِي، فَأَقْسَمْتُ مُبادِرًا، ثم تَوالى الآخرونَ يُقسِمونَ. هنَّأنا الحسنُ وأَمَرَنَا بالانصراف بالطريقة نفسها التي أتينا بها إلى القلعة.

وفي طريق خروجنا شاهدتُ جماعة أخرى من الفتيان تدخلُ القاعةَ التي خرجْنَا منها، فَدَارَ في خَلَدِي أنّهم فَوْجٌ آخرُ سَيَمُرُّ بالتجربة نفسها، ولاحت منّي ابتسامة خفيّة. غادرتُ إلى غرفتي مع صديقي الكيا الهراسي الذي كان لا يزال مُترنِّحًا استأذَنَني في النوم بعد التجربة التي مَرَرْنَا بها، فأذنتُ له وذكرتُ له أنّني سأنام أيضًا. فلمّا أحسستُ بنومه وغَطيطِه، خرجتُ من فراشي ثم مِنَ الغرفة وأقفلتُ بابها خلفي. كنتُ مصمِّمًا على كَشْفِ أَمرِ البئرين المُريبَتيْنِ، وسِرِّ تلك الجنّة قبل أن أُغادرَ القلعةَ. وبعد أن هَدأَتِ الحركةُ وأخلَدَ فتيانُ فَوْجِنَا إلى الراحة تَسلَّلتُ مُتخفِّيًا نحو البئرين العميقتين، فسمعتُ وَقْعَ أقدام فَتسمَّرْتُ في مكاني حتى ابتعدَتْ، ثم دخلتُ إحدى البئرين وتمسَّكت بأحد الحبال المتدلِّية وأخذتُ في النزول. طال نزولي ولمحتُ سَرابَ ماءٍ في القَعْر. ولمّا بدأتُ

في الوصول إلى القَعر كنت أُحاذِرُ من وَضْعِ قَدَميَّ على الماء، فلم يُصِبْنِي البَلَلُ وتشجَّعتُ فبَسطتُهُمَا على أرضيّة البئر فكانت المفاجأة أنَّ ما ظننتُه ماءً لم يكن سوى مادّة سوداء لها بريقٌ كالماء لخداع المبصرين مِنْ فَوْقِ فَمِ البئر. وقفتُ على قدميَّ فألفيتُ بابًا خَفيضًا على شكل حَذْوَةِ فرسٍ، فتجاوزتُه ثم رأيت مصباحًا أوقدتُه وتقدَّمْتُ داخل دهليز طويل له عدَّةُ مُنْعَرَجَاتٍ متصاعدة. كانت نَبَضاتُ قلبي مرتفعةً يُسمَعُ لها دَوِيٌّ داخلَ الدهليز؛ فقد كنتُ خائفًا من هذه الظلمة المكتنِفَة والأشباح المترائية. وزاد من رُعبي تَوَقُّعُ كُلِّ مَكروه ومُلاقاةِ وَحْشٍ من الوُحوش أو فَاتِكٍ بلا رحمة. بَقِيتُ أتوغَّلُ بصعوبة داخل تلك المنعرجات التي كانت في اتِّجاهٍ صَاعِدٍ حتى وصلتُ إلى جِدارٍ حَجَرِيٍّ عليه المثلّث نفسه الذي رأيتُه في قاعة القلعة وفوقَه رسمُ طاووسٍ ناشرٍ ذيلَه. وعلى جانب الطاووس رسم لرجل وامرأة عاريين، وعورتُهما مكسوّة بأوراق شجرة كانت تُظَلِّلُهُمَا. ثم رأيتُ رسم حيّة على الشجرة. كان رأسُ الطاووس يُشبِهُ رَأس حيَّة، فداخلني الشكُّ وحاذَرْتُ في الاقتراب من ذلكَ الرأسِ، إذ بدا لي وكأنّه حقيقي. دفعتُ الجدارَ فلم يَنْدَفِعْ، وأنَّى له أن يندفعَ وهو صَخرٌ أصمُّ. حاولتُ أن أَتَتَبَّعَ الشقُوقَ لعلّي أجدُ مَمَرًّا مَا، فلم أعثُرْ على شيء. وأُسْقِطَ في يدي وقَرَّرْتُ العودةَ أدراجي والابتعاد عن هذا المكان المرعب، إذ لَمَعتْ في ذهني فكرةُ المثلّث والطاووس من جديد، وتذكَّرتُ أنّ دخولَ جنَّة القلعة كان عبر بابٍ عليه المثلّث نفسه. ثم تذكَّرتُ أيضًا قولَ الطاهرة لي بفَكِّ إعجام ذلك الشكل. ومن أين أبدأُ؟ لقد أخبرَتْنِي بأنَّهُ عَيْنِي

التي لا تَنام. ثم سعيتُ أتمعَّن في الطاووس وذيولِه التي تشبه العيون. خلتُ في تلك الظلمة أنّ الطاووس برأس الحيّة ينظر إليَّ. ومن قرينةِ كلام الطاهرة حول العَين، وعيون ذيل الطاووس بدأتُ أُفكِّرُ في الأمر. استعنت بالله ثم تذكَّرتُ لفافةَ أبي عليّ الفارمذي التي كنتُ دائمًا أحملها كالرقية منذ أن طَوَّقَ عنقي بها. قلت لنفسي، إن كان فيها اسم الله الأعظم، فهو كفيلٌ بإخراجي من هذا القَبْوِ سَالمًا وفكِّ هذه الأسرار. فتحتُها لأوّل مرّة منذ أن أخذتُها من أبي عليّ. وأمعنتُ النظر فيها فإذا بها الخاتم الشريف نفسه بالحروف نفسها استعنتُ بذكر الله والدعاء، ثم أعدتُ التميمة إلى عنقي. تمعَّنتُ كثيرًا في المثلّث فرأيتُ أنَّ بداخل كلِّ حرفٍ منَ الحروف المنقوشة داخلَ الخانات موضعَ أُنْمُلَةٍ محفورًا. حاولتُ لَمْس الأحرف فخرج رأسُ حيّة حقيقيّة من مخبئها حاولت لَدْغِي، لكنّني تنحَّيتُ عنها فَأَخْطَأَتْنِي. قرَّبْتُ السِّراجَ أمام رأسِ الحيَّةِ حتى لا تَلدَغَني فانكَمَشَتْ إلى قاع الحفرة، ولَمَسْتُ الحفرةَ فوجَدْتُهَا على حَجم **أُنْمُلَتِي** وبدأتُ أَتَتَبَّعُ الحفرةَ بالدَّفْعِ. وفجأةً اانْفَكَّتْ خارجةً خانةُ الحرف عن باقي الشكل وبَقِيَتْ مُلتحِمةً به من الخلف. ولمّا خرجَتِ الخانة أدخلتِ الحيّة رأسَها داخل التجويف الصخري وغابتْ، وبقي شكل رأس الطاووس مكانَها فاتحًا فَاهُ. كان هذا الحرفُ الذي خَرَجَتْ خانَتُه هو الهاء. حمدت الله على حفظه لي من الحيّة بهذا الحرف المبارك. صنعتُ الشيءَ نفسَهُ مع باقي الحروف فلم ينفعني ذلك بشيء. ثم أَعَدْتُ الخانات إلى مواضعها بالكَبْسِ عليها فَارْتَدَّتْ كما كانت من قبل. أخذتُ أُفكِّر

في حيلة أخرى للمثلّثات، وبدا لي أن أُرَكِّبَ كلمة معيّنة من تلك الأحرف. أَعْمَلْتُ فكري كثيرًا فاهتديتُ أخيرًا إلى أن أُجرِّبَ كلمة «طاوس» ما دام أنّه منقوش على الحجر. لكنّي فوجئتُ أنّ الخاناتِ التسع لا تتوفَّرُ على جميع الأحرف المُشَكِّلَةِ لكلمة «طاوس». فلدينا الأحرف التالية: الهاء، الحاء، الألف، الواو، الباء، الجيم، الطاء، الزاي، الدال. وبالملاحظة الأوّليّة، يتبيّن أنّ حرف السين غائب من المثلّث، فكيف أُشَكِّلُ كلمة «طاوس» وحرف من حروفها ينقصني. لكنّي أعرضتُ عن هذه المشكلة وعزمتُ على تجربة فِكْرَتِي أوّلاً بأوّل، حتى أرى نتيجةَ صُنعي. ضَغَطْتُ على حفرة حرف الطاء أوّلاً بأنملتي فتقدَّمتْ نحوي خانَتُهُ الصغيرة، ثم أَتْبَعْتُهَا بالخانة التي فوقها وكانت للألف فتقدَّمَتْ، وهنا خِلْتُ كأنّ صوتًا ما صَدَرَ منَ الجدار الذي انزاح قليلاً، حتى بدا لي شِقٌّ ضَئيلٌ يتوسَّطُهُ نصفين. ثم ضغطتُ على الواو، وسمعتُ رجَّةً أكبر للجدار، لكنّه لم يَنْفَتِحْ. ثم توقَّفْتُ حائرًا كيف أصنعُ. وطَفِقْتُ أَسألُ نفسي، وَمِنْ أَيْنَ لي بحرف السِّين الآنَ؟ وفجأة، تَذَكَّرْتُ دَرْس الصَّرْفِ والقراءات، وأنّ بعض الحروف ينوب عن بعضها الآخر. فالسين من حروف الصفير مع الصاد والزاي، لكنّ الصاد غير موجود في المثلّث. حاولت أن أدفع ثقب الزاي، فلم يندفع فعلمت أنّ هناك خطأ ما، وأنّه ليس بالحرف المطلوب. فكيف السبيل؟ ثم تذكَّرْتُ مرّة أخرى أنّ لكلّ حرف قيمةً عدديّة، فهل يمكن أن نُشكِّلَ حرف السين بتركيب حرفين معيّنين. كان المثلّث يضمّ فقط الحروف التي أعدادها من واحد إلى تسعة، فيقابل كلٌّ

حرفٍ عَددًا معيّنًا على النحو التالي: ا = ١، ب = ٢، ج = ٣، د = ٤، هـ = ٥، و = ٦، ز = ٧، ح = ٨، ط = ٩.

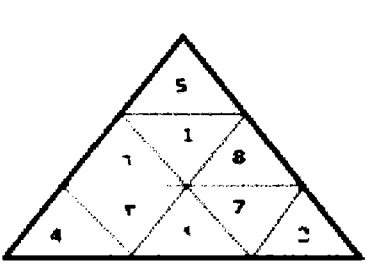

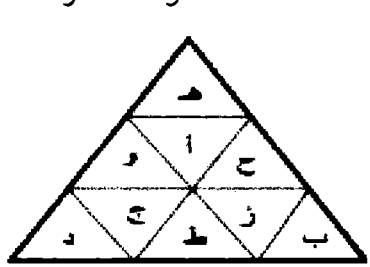

فكيف العمل؟ إنّ عدد السين هو ٦٠، لكنّ جدولنا لا يتوفّر إلّا على حروف وأعداد الوحدات، وليس فيه من حروف وأعداد العشرات أو المئات. لكنّنا إذا فرضنا أنّ الوحدات تنوب عن العشرات والمئات، فحرف الواو مثلاً يمكن أن ينوب عن حرف السين، لأنّ عدد الواو ٦ وعدد السين ٦٠ وطفقت أقلّبُ هذه الأمور هكذا، لكنّ مشكلة أخرى واجهتني، وهي أنّني لا يمكنني استعمال الخانة نفسها مرّتين، لأنّ خانة الواو، وهي أمامي، متقدّمة عن باقي الخانات. فَتيقَّنْتُ بأنّ الكلمةَ ـ المفتاح ليست «طاوس». تأمَّلت من جديد الرسم ورأيت الحيّة والمرأة بإزاء الرجل. وبدا لي أنّ هذا الزوج ربّما كان يرمز إلى آدم وحوّاء. والحيّة على الشجرة قرينة واضحة في أنّها أَغْوَتْهُمَا بالأكل من شجرة الخُلْد. فلعلّ الكلمة ـ المفتاح في الحيّة. جرَّبتُ هذه الإمكانيّة الأخيرة فلم ينفتحْ ليَ الباب. وبعد أن يئِستُ أخيرًا وعزمتُ على العودة أدراجي، نازعني فضولي في أن أُجَرِّبَ كلمة

أخيرة هي «حوّا». كَبَسْتُ الحاء ثم الواو ثم الألف. وهنا حدث ما لم أتوقَّعْ، حيث انفتحَ الباب على مصراعيه، وأَلفَيْتُ نفسي وَسْطَ جَنَّةٍ قُطوفُها دانية، هي عَيْنُ الجنّة التي كنتُ فيها من قبل. سُرِرْتُ سُرورًا بالغًا بالاهتداء إلى سرِّ الباب وحمدتُ الله تعالى، وتيقّنت أنّ للخاتم الشريف الذي خصَّني به أبو عليّ سِرًّا واضِحًا. كنتُ أحاذرُ من ملاقاةِ أحدهم وسْطَ تلك الجنّة، وكان غرضي أن ألتقي بالصبِيَّة التي صادفتُها من قبل، ثم وصلني غناء مثل الغناء الذي سمعته من قبل وبقيت مختفيًا وراء الأشجار أعاين اللعبة من جديد. ثم رأيت صبِيَّتي تعدو إلى فتى وتضع على أنفه من قارورتها فينتعش المسكين ويقوم مُترنِّحًا، ثم تأخذ بيده وتفعل به ما فعلَتْ بي تمامًا وهنا بدأتُ أفهم سِرَّ هذه اللعبة، ثم سَقَتْهُ من الشراب نفسه الذي سقتني منه، فغاب عن الوعي ودخل الحَمَلَةُ فأخذوا الجماعة من جديد. وشاهدتُ الصبايا يضحكن ويمزحن، فغضبتُ من التغرير بي وفهمتُ كلَّ شيء. لم تكن تلك الصبيّة تُحِسُّ أيَّ إحساس نحوي، ولم تكن تبادلني ما كنتُ فيه من السعادة. لم أكن إلّا رقمًا من الأرقام أو نكرة من النكرات التي مرَّتْ أمامها، لهذا لم تكنْ ترغبُ في الحديث إليَّ. لم يكن يَهمُّها أن تسمعني أو تُحِسَّ برعشة صوتي حين كنتُ أرغبُ في مخاطبتها والإسرار إليها. لكن لا بأس، لقد فهمتُ الآن ما يُرادُ لنا. لقد كان الحسن بن الصبّاح يريدُ تجنيدَ هؤلاء الفتية الغُمْر ليوجِّهَهُم الوِجهَةَ التي يريد، ويملي عليهم إرادتَه التي يُقرِّر. ثم فهمتُ لماذا لقَّبوه بالكيا، علمًا أنّ الكيا بلغة العجم تعني الكبير القدر، المقدّم بين الناس، لكنّ دلالتها في

اللسان العجمي تداخلت مع دلالتها باللسان العربي. ولا يكون العلاج والكَيُّ إلّا بالنار بعد استخلاص زيوت الحشائش، التي يظهر أنّ الرجل كان عليمًا بخواصّها وكيفيّة تراكيبها، والبلاد التي اختار إقامة قلاعه عليها زاخرة بأنواع الحشائش الطبّيّة. لقد كنت أيضًا ضمن هؤلاء، لكنّي تعجَّبتُ من المهمّة التي أُوكِلَتْ إليّ.

ثم بدا لي أنّه ربّما كانوا يُبَيِّتُونَ أن أُصبِحَ أحدَ علمائِهم المُنافِحين عن عقيدتهم، فلم يُكلِّفوني بمهمّة صعبة، خاصّة أنّ نَباهتي أصبَحَتْ معلومة في خراسان. فما سَعِدْتُ به يمكن أن يكون مصدرَ حزن وقلق يصحبني. لقد كانت مُهمَّتي أَعْقَدَ من مهمّة الآخرين. إنّ الفتية الآخرين كانوا أداة في يد صاحب القلعة وحسب، أمّا أنا فقد كان يُراد لي غيرُ هذا.

عُدْتُ أدراجي وخَرجتُ من البئر. ولم أَكنْ أَرغبُ حتى في معرفة البئر الثانية، فلربّما كانت ستؤدّي بي إلى غرفة زعيمهم. تسلَّقتُ جدار البئر مرّة أخرى مُستعينًا بالحبل، وخرجتُ من فوهتها بحذر شديد، ثم دَلفتُ إلى حجرتي وأمضيتُ ليلي مُتفكِّرًا فيما رأيتُ وسمعتُ. وفي الصباح قمتُ باكرًا على أُهْبَةِ مغادرة هذه القلعة العجيبة التي يَتِمُّ فيها التَّدليسُ على الفتيان، وإِرَاءَتُهِمْ جنَّةً أرضيّة. تفكَّرتُ في الأبخرة وحمِدتُ الله أنّي كنت حسَّاسًا من شمِّها، وإلّا لما كنتُ فطِنتُ إلى كُلِّ هذه المؤامرة الفَاتِكة. لقد اتَّضحَ لي الآن أنّ الأبخرةَ مُخدِّرٌ يُفقِدُ الوعيَ، ثم فَهمتُ لماذا كان صدر المجلس بعيدًا عن أماكن انبعاث تلك الأبخرة، حتى لا

يتخدَّر أمير القلعة وحاشيتُه، وفهمت لماذا كانت النوافذ بإزاء صدر المجلس، حتى تَطْرُدَ وصولَ الأبخرة إلى الأمير والحاشية. ثم فهمتُ دورَ الشراب المخدِّر الذي سقتني إيّاه الصبيَّةُ الماكرة. لقد كان الانتقال من القاعة إلى الجنّة والعكس مَنُوطًا بالتخدير حتى لا تُكتَشَفَ اللعبة. أمّا الصبايا فلعلَّهُنَّ مِنْ سَرايا الزعيم وأعوانِه. ولا أدري ما مصيرُهنَّ بعد أن تنتهي مُهِمَّتُهُنَّ ويَتَرَهَّلْنَ، هل يُغَرَّرُ بهنّ وتُسفَكُ دماؤهنّ، أو يُرسلْنَ هديّة للملوك والسلاطين لترصُّدِ الأخبار وإطْلاعِ صاحب القلعة عليها؟ كلّ ذلك جِدُّ مُحتَمَلٍ. ثم تساءلتُ عن الطاهرة ودورها، وخِلْتُ أنّها ليست من هذا النوع، فلقد ذكر لي عليّ أنّها من الأشراف، ولا أظنّ أنّ مثلَها يُعْبَثُ به في هذه الوظائف الدَّنِيَّة، رغم تعاطفها مع الطائفة. وكيف لها أن لا تتعاطف، وهي من آل البيت، وهم يزعمون خدمتهم؟ كنت عازمًا على الاتّصال بها وإخراجها من هذا الضلال، لكنّي كنتُ حذِرًا من هذه الخطّة حتى لا أَجلُبَ على نفسي التهلُكة. عاودتُ المسير رفقةَ صديقي الكِيا الهراسي مِنْ حيث أَتَيْنَا، ولم أُطْلِعْهُ على جَلِيَّة الأمر بل سايرتُه في الكلام، من دون أن أُفصِحَ له عن خُطّتي. لقد عَلمتُ علم اليقين أنّ رجال الحسن بن الصبّاح مُندَسُّونَ في كلّ مكان، ولهم أَعينٌ في كلِّ مكان كأعين الطاووس التي على ريش ذيله تَرْمُقُك. فحتى الثعابين والأفاعي لا تنال من ذلك الطائر الذي يحوِّلُ سمومَها إلى تِرْيَاقٍ عجيب. ألم يكن وجه الطاووس في قَبْوِ القَلعة على شكل رأس حيَّة؟ وصلنا بعد جهد جهيد إلى طوس وافترقتُ عن صديقي. التقيتُ بأحمدَ الذي كان قلِقًا عليّ. طمأنتُه

وأخبرتُه بعزمي السفر إلى نيسابور بعد أن استوفَيْنَا ما عند علماء طوس. وكان من بين أصدقائي عليّ بن محمّد الكيا الهراسي وأبو المظفّر الخوافي، وكانا عازمين على السفر أيضًا إلى نيسابور، فاتَّفَقْنَا على السفر في الرُّفقة نفسها وكانا من أَنْبَهِ الطلبة وأجلِّهم. كنّا نُشَكِّلُ نحنُ الأربعةَ فريقًا مُتَمَيِّزًا. ذهبتُ لأستاذي أبي عليّ الفارمذي أستأذِنُه في السفر فأذِنَ لي، ثم أخبرتُه أنّ الخاتم الشريف قد كان سببًا في نجاتي، لكنّي لم أَحْكِ له القصَّةَ التي حَصلَتْ لي في القلعة. ابتسم ابتسامة فهمتُ منها أنّه كان على يقين من مفعول الخاتم الشريف. ثم أخبرني أنّه بحث عنّي المدّة الأخيرة ليبشِّرني بقبول التِحَاقِي مع مجموعة من الطلبة في المدرسة النظاميّة. فقد اجتمع بالوزير نظام الملك الذي كان يُجِلُّهُ كثيرًا وتَكلَّم بشأننا فرحَّبَ الوزير بالأمر، ودعاه إلى حثِّنا على السفر عاجلاً إلى نيسابور. سُرِرتُ بهذا الخبر بعد أن كنتُ أُفكِّرُ في كيفيّة تدبُّر معيشتي هناك. حمدتُ الله، وشَكرتُ لشيخي سعيَه الطيِّب ثم ودَّعتُه.

مكتبة الروحي أحمد
تيليجرام @ktabpdf

طاسين الكلام

خرجنا إلى نيسابور التي كانت تبعُدُ إلى الجنوب الغربي عن طوس بأربع مراحل. ولمّا وصلنا توجَّهنا مباشرة إلى المدرسة حيث اتّصلتُ بالناظِر في شؤونها، وأخبرتُه عن نيَّتِنا في الدراسة والإقامة. كان الرجل على علم بمَقْدَمِنَا، فأدخَلَنَا إلى المدرسة العجيبة وأطلَعَنا على مرافقها ونظامها. كانت على شكل مستطيل في جوفه بيت للصلاة، وعلى الجانبين غُرفٌ للطلبة تُحيطُ بفِناءٍ كبير في وسطه نافورةُ ماء مُعَدَّةٌ للوضوء. سَكنتُ في غُرفةٍ بالطابق العُلْوي تُطِلُّ على الفناء. لم يَكنْ في الغرفة من مَظاهرِ الأثاثِ سوى لحافٍ بَسيط وحَصير وكوزِ ماءٍ وسِراجٍ. كان عليَّ أن أَتَدبَّر شِراءَ بعض الأثاث اللازم لي. وبعد الاستراحة خرجتُ إلى السوق فاشتريتُ بعض الأغطية الصوفيّة من الدراهم التي كانت معي. فقد كنتُ أعلمُ أنّ البردَ زمهريرٌ في نيسابور، وأنّ الثلجَ يسقطُ بها ثم تعرَّفتُ على المدينة وأحيائها ومساجدها ومرافئها وأسواقها المختلفة. عدتُ إلى المدرسة واستَلقيتُ على اللحاف، أُفَكِّرُ في الطاهرة وطريق

الوصول إليها، ثم إنّي كنت متوجّسًا من اللقاء بها مخافةَ أن تُقحِمني في طائفتها. كان هدفي أن أَدْرُس في هذه المدرسة التي أَسَّسها السلاجقة لنشر المذهب السُّنّي. فكلّ حركة منّي في الاتّجاه الآخر كانت تعني حرماني من هذه الفرصة. ثم إنّي تأثّرت بِسُنّيَّةِ شيخي الفارمذي الذي كان قريبًا من الوزير نظام الملك، مؤسّس هذه المدارس السنّيّة. أجَّلْتُ إلى حين أموري القلبيّة حتى يأذنَ الله بذلك.

في اليوم الموالي تعرَّفْتُ على أساتذتي وحضرتُ حلْقَةَ الإمام عبد الملك أبي المعالي الجويني. لقد كانت الدروس التي نتلقّاها في فقه الشافعي، لأنّ المدرسة لا تُدَرِّسُ إلّا هذا المذهب مع العقيدة الأشعريّة. وقد حدّثَنا الأستاذ ذلك اليوم في جلسة خاصّة بعد الدرس عن خريطة التاريخ السياسي والعسكري للبلاد الإسلاميّة، ودور السلاجقة في نشر المذهب السنّي الذي عانى من المضايقة عليه مع الحكّام السابقين. فقال: لقد عرفت الدولة الإسلاميّة أَوْجَهَا في القرن الثاني الهجري، واستمرَّ الوضع على ما كان عليه، مع بعض الجَزْرِ والمَدِّ طيلة القرن الثالث، فانفصلت بعض الأقاليم والمناطق عن الخلافة العبّاسيّة، فقد ظهرت الدولة الطولونيّة في مصر، والصفّاريّة في سجستان، والطاهريّة في فارس، والسّامانيّة في بلاد ما وراء النهر، والأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب، والدولة الأمويّة في الأندلس. ولم يحلّ القرن الرابع الهجري إلّا وقد تَصَدَّعَتِ الخلافة العبّاسيّة وضَعُفَتْ، فاستقلَّتِ الأقاليم والولايات، واتَّخَذَتْ لها جيوشًا قويّة تحاربَتْ فيما بينها أو وَجَّهَتْ جيوشها ضدّ الخلافة

العبّاسيّة. فقد كان الفاطميّون في مصر، والحَمْدانيّون في حلب والموصل، والبُوَيْهِيُّون في فارس والعراق، والغَزْنَوِيُّون في البنجاب والهند وما وراء النهر، وظهر السلاجقة في فارس وما وراء النهر والعراق والشام. والبويهيّون والحمدانيّون والإسماعيليّون من الشيعة بمختلف فرقها، مع فرق واضح وهو أنّ البويهيّين والحمدانيّين حافظوا على الخلافة العبّاسيّة السنِّيّة، بينما أقام الفاطميّون خلافة مضادّة لها أمّا الدول السنِّيّة، فقد كان الغزنويّون الأتراك في البنجاب والهند وأفغانستان، وامتدَّ حُكْمُهم إلى خراسان حيث أزالوا منها حكم السامانيّين الفرس. كما قَضَوْا على البُوَيهيّين في الريّ وأصبهان وبلاد الجبل. ثم جاءت دولة السلاجقة الأتراك المباركة، ودخلوا معهم في حروب ثم عقدوا معهم الصلح. وقد قضى السلاجقة على حكم البويهيّين في فارس والعراق. وفي نهاية حكمهم، ساند البويهيّون القائد البَسَاسِيري للانضواء تحت حكم الخلافة الفاطميّة، والقضاء نهائيًّا على الخلافة العبّاسيّة، وقد تمّ ذلك لمدّة قصيرة، إلّا أنّ الخليفة العبّاسي القائم بالله استنجد بالسلطان السلجوقي طُغرُلْ بِكْ فقام إلى نجدته، ودخل بغداد وأعاده إلى الخلافة، وقضى بذلك على دولة البويهيّين سنة ٤٤٧.

لم أمنع خاطرًا مرَّ في ذهني لمّا ذكر الأستاذ هذا التاريخ، فقد وُلدتُ في ٤٥٠ في غزالة من أعمال طوس، أي بعد ثلاث سنوات من نهاية هذه الدولة.

أكمل الأستاذ حديثه فقال: ولقد دعَّم السلاجقةُ المذهبَ

السُّنِّي من جديد بإنشاء المدارس في العراق والشام وخراسان وغيرها. ومدرستُنا واحدةٌ من أعظم هذه المدارس، ومهمَّتُنا هي المحافظة على وحدة البلاد الإسلاميّة تحت الخلافة العبّاسيّة. فإذا كان سلاطين دولة السلاجقة المباركة يحاربون بالسيف، فعليكم أبنائي الأعزّاء أن تحاربوا بالقلم للحفاظ على وحدة الأمّة وتماسكها، ومحاربة كلّ الطوائف والفرق الضالّة، وخاصّة المنحرفة منها كالإسماعيليّة.

كنت جالسًا أستمع إلى أبي المعالي الجويني مع عليّ الكيا الهراسي، وأبي المظفّر الخوافي الضرير. ثم سألَنَا الإمامُ عن تحصيلنا العلمَ، فذكرنا له ما علَّقناه أو رويناه. كان الأستاذ بحرًا دافقًا من العلم لم أعهد مثله من قبل، فَحَجَبَ عنّي غيرَه. أكببتُ على ملازمته ملازمة قويّة مع زملائي حتى صرتُ أنبَهَ طلبَتِهِ. تعلَّمتُ المنطق والأصول والكلام والفلسفة. بدأتْ تتغَيَّرُ ولاءاتي وفهمتُ ما كان يُحاكُ ضدَّ الخلافة العبّاسيّة التي كانت هي اللُّحمة التي تجمَعُ المسلمين، لذا بدأَتْ تتلاشى في ذهني ولاءاتي السابقة حينما كنتُ فتى في جرجان، فقد تَفَتَّقَ وعيي أكثرَ بأَوْلَوِيَّاتِ العمل.

لكنّني كنت مُتوجِّسًا من تغيير قناعاتي، لأنّني كنتُ أعلمُ أنّ وجودي غيرُ آمن في نيسابور التي درس فيها الحسن بن الصبّاح، فهي أحد مراكز الإسماعيليّة. وهنا تعلَّم على الداعي الإسماعيلي الكبير عبد الملك بن عطاش. لقد أُنِيطَ بكثير من الطلبة المستجيبين الدخولُ إلى مثل هذه المدرسة، والتَّغلغلُ في أوساط العلماء

والشيوخ من أهل المذاهب الأخرى لإفساد أفكارهم وإدخال الشكّ والريبة إلى قلوبهم. وقد كان أستاذنا الجويني يفطنُ إلى تلك الحيل لهذا اختار أنبَهَ طلبته وحازهم إليه، وأنفق عليهم وأكرمهم وقرَّبهم وعمِل على تأهيلهم لمهمّة حمل الرسالة من بعده في الدفاع عن المذهب السُّنّي الذي كانت تدين به أغلبيّة المسلمين.

لقد كان الجويني رأس سياسة دولة آل سلجوق الفكريّة، فكان عليه أن يُرسِّخَ المذهب السُّنّي والعقيدة الأشعريّة والسلوك الصوفي والخلافة العبّاسيّة. لذا فقد كان الهدفُ تخريجَ أكبر عدد من الطلبة الحاملين لواء هذا التوجّه الجديد، لكنّ الخصومَ كانوا أقوياء. فهناك أوّلاً الخصوم من فقهاء الحنابلة، وكانوا يميلون إلى القول بالتَّجسيم ويَنْفِرونَ من الخوض في علم الكلام على مذهب الأشعري. ثم هناك الخصوم السياسيّون والفكريّون من فرقة الإسماعيليّة التي كانت تناصر خلافةً أخرى في مصر. وعلى الرّغم من خُفُوتِ تلك الخِلافة وضعفِها، إلّا أنّ الحركةَ الإسماعيليّة كانت قويَّةً في خراسان، وكان الدعَاةُ يقومون بدور كبير ومدارسهم منتشرة. إنّ بلادنا كانت متأرجِحَةً بين أن تخضع للشيعة أو تَنْحاشَ للسُّنّة. وقد عانينا كثيرًا من هذا التأرْجُحِ بين المذهبين، بسبب سياسات الدول المتعاقبة. فالبويهيّونَ حاولوا نشر المذهب الشيعي، وقد قيَّض اللهُ الآنَ لهذه البلاد دولةَ السلاجقة السُّنِّيَّة. لقد احتاجت هذه الدولة إلى تكوين طبقة من العلماء يتولَّوْنَ الدفاعَ عن الدولة ومذهبها. فكان دور المدارس التي عمل الوزير الحكيم نظام الملك على نشرها وقد أوكل إلى أستاذنا الإمام الجويني المتبحِّر

في العقليّات تكوينُ نُخبةٍ من طلبة العلم. لم يكن هذا الوزير تركيًّا مثل رجالات الدولة التي كان يخدمها، بل كان فارسيًّا، وكان عالمًا وسياسيًّا بارعًا لم أكنْ أَعْرِفُهُ لأنّه يَكْبُرُني على الرّغم من أنّه مِنْ مدينتي طوس نفسها. تبيَّنَت لي بالاحتكاك مع أستاذي الجويني المَخَاطِرُ التي تمرُّ بها الخلافة العبّاسيّة الجامعة لشتات المسلمين، واقتنعتُ بالحجج التي كان يسوقها للدفاع عن هذه الخلافة والدولة الحامية لها لإقامة صرح الإسلام على قواعد متينة. وبدأَتْ تَخْفُتُ في عقلي حججُ الخصوم من الحركات الناقمة على هذه الخلافة، وانخرطتُ بكلِّيَّتي في هذه الحركة للدفاع عن لُحمَةِ الإسلام والمسلمين، في كَنَفِ الخلافة العبّاسيّة والدولة السلجوقيّة المجاهدة. ورأيتُ ما كان يُنْفِقُهُ بسخاءٍ الوزير نظام الملك علينا وعلى أمثال مدرستنا. وقد رَاشَ جناحي في نيسابور بما كان يكرمني به أستاذي الجويني ويَخُصُّني به من عطايا. ثم بَدأتُ أنسى أيّامَ اليُتم والفَقر والقَهر التي مرَّت بي. وكان الأستاذ يُشْرِفُ على الأوقاف، يُدَبِّرُ شؤونَها ويَضْبِطُ أصولَها ويرعى أحوالَها ويُطبِّق شروطَها، وينفق الأموال في مصارفها الصحيحة في نيسابور، وينفق بسخاء على طلبة العلم ويشجّعهم على التفَقُّهِ ويَتَكَفَّلُ بالنفقة عليهم. وفي نيسابور تعلَّمت العلوم القديمة والحكمة والفلسفة والمنطق والإلٰهيّات، إضافة إلى الفقه والأصول والكلام. كنت أُعلِّقُ على أستاذي الجويني ما أتعلَّمه، فألَّفْتُ كتاب «المنخول» وعرضتُه عليه، لكنّه علَّق عليه بعد أن نظر فيه قائلاً: دفنتني وأنا حيّ! هلّا صَبَرْتَ حتى أموتَ؟

كنت فخورًا بهذا الإطراء من أستاذي المتواضع، إلّا أنّي أحسستُ بما في هذه النبرة من عتاب لطيف. وقد كان يصلني ما يقوله عنّا نحن تلامذته النجباء. ومن ذلك قوله «التحقيق للخوافي، والحَدْسيّات للغزالي، والبيان للكِيا». ثم يُضيف: «الغزالي بحر مُغْدِقٌ، والكيا أسد مُخَرِّقٌ، والخوافي نارٌ تُحرق». كنّا نُردِّدُ هذه العبارات الجميلة، وكلٌّ منّا يَفخَر على أصحابه. وقد بدا لي شُفُوفي على أصحابي من قول الأستاذ. ولهذا كنّا نَحضُر دروسَه في كلّ مكان حتى تلك التي كان يُلقيها أمام عامَّة الناس في مسجد المنيعي. وكانت له الإمامة والخطابة في هذا المسجد الذي بناه الرئيس أبو عليّ حسّان بن سعيد المنيعي في نيسابور. وقد استأذن المنيعيُّ في بنائه السلطانَ ألْب أرسلان ووزيره نظام الملك لمّا لاحظ كثرةَ التعَصُّبِ بين الفِرَقِ والمذاهب. وقد تسلَّم الإمامةَ فيه أوّلاً شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني، ثم استلمها مع الخطابة أستاذنا أبو المعالي بعده. كانت حلقة الشيخ تَضُمُّ ما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ عِمامَة، لا فرقَ بين طالبِ عِلم وعالم وإمام. كنتُ أُلازمُ الشيخَ في كلّ الأوقات، لكنّ الخوافي كان يلازمه أكثرَ لأنّ من عادة الأستاذ أن لا ينام ولا يأكل حسب العادة، بل ينام إذا غلبه النوم في أيّ وقت كان، ليلاً أو نهارًا، ويأكل إذا اشتهى الطعام في أيّ وقت كان، ليلاً أو نهارًا. ولذَّتُه الكبرى كانت في المذاكرة. وحيث إنّ الخوافي كان ضَريرًا، فكان يلازمه كالظلّ ويَسهَرُ معه الليالي يُناظِره في أَوْجُهِ العِلم فَانْفرَدَ بهذا عنّا. لكنّ الأستاذَ كان يعتبرني أوَّلَ الثلاثة ويَخُصُّني برعاية خاصّة ويُنِيبُني عنه في الدروس حينما يَغِيب.

وفي نيسابور التقيتُ ببعض زملائي من جرجان. أمّا عليّ فلم ألتقه هنا، وكنت أتوقّع أن أجده، وقد سألتُ كلَّ مَنْ أعرفُ فأخبروني أنّهم لم يَرَوْهُ. وذات يوم بينما كنتُ نائبًا عن الأستاذ، أُقرِّرُ بعض المسائل الأصوليّة وأَنتصرُ لأهل السنَّة، جاءني عند نهاية الدرس أحدُ الطلبة الملثّمين وطلب منّي التباحث معه في مسألة خاصّة. طلبتُ منه أن يحادثني في مسألته، لكنّه اقترح عليَّ زيارته في بيته ليكرمني، حتى نتباحث في هدوء حول قضيّته. ثم سلَّمني بطاقة وقال لي: العنوان مكتوب عليها، وغدًا سأنتظرك بعد الظهر.

شكرته على دعوته ووعدته خيرًا، رغم أنّي لم أكن أعتزم القيام بتلك الزيارة، لعدم معرفتي بذلك الغريب. رجعتُ إلى محلِّ سُكناي وأخرجتُ البطاقة لأقرأ ما فيها، فإذا بي أجد المثلَّث نفسه الذي رأيتُ في القلعة، وعلى تميمة الخاتم الشريف. وهنا تذكَّرت الطاهرة ومنديلَها، وبدأتُ أُفتِّشُ في أغراضي حتى وجدتُه مع البطاقة التي كانت قد كَتَبَتْ عليها عنوانها الذي سلَّمتني. قرأتُ العنوان على اللُّفافة، ثم قرأتُ بطاقةَ الغريب، فوجدتهما متطابقتين في الخطّ، فحصل لي وُجُومٌ واستغراب. أمضيت تلك الليلة أُفكِّر في الطاهرة من جديد، وعزمتُ أخيرًا على تلبية تلك الدعوة. استيقظت بهذا العزم، وأنهيتُ ذلك الصباح ما كنت أنوي القيام به، وعند الظهر قطعتُ عدَّةَ أحياء في المدينة سائلاً عن مكان العنوان المكتوب. وفي الأخير، وصلتُ إلى أحد البيوتات النيسابوريّة الفخمة، وكان يضمّ بستانًا كبيرًا مُحاطًا بسور عال. كان البيت في زقاق منعزل لا يصله إلّا ساكنته. قرعتُ الباب فخرج إليّ خادم كان

يعلم بزيارتي فأدخلني. دخلت متوجّسًا مع ذلك الخادم وبَدأ يَدْلُفُ من مكان إلى آخر ومن قاعة إلى أخرى، حتى فقدتُ كلّ قدرة على تَبيُّن طريق الخروج من هذا البيت. وأخيرًا وصلنا إلى غرفة في جوفها رَسْمُ طاووس كبير، نُحِتَ على ذيله جدول المثلّث المعلوم، فعجبت لهذا الأمر من جديد. وقد كنتُ نسيتُ أمر رسوم الطاووس التي صادفتني في القلعة فأفزعني الأمر. وفجأة وجدت الشابّ الملثّم الذي دعاني، واقفًا أمامي، يَنْزِعُ لثامَه وينظر إليّ. بقيتُ مُسمَّرًا في مكاني وكدتُ أصرخ لكنّه قال: هل تَذكُرُني يا غزالي؟ فقلت له: عَلِيّ، صَدِيقِي عَلِيّ. فقال: نعم، أنا عَلِيّ. فقلت: وماذا تفعل هنا؟ ومتى أتيتَ إلى نيسابور؟ فقال: لقد أتيتُ لأراكَ وأُذكِّرَكَ بما نَسِيتَ. فقلتُ مُتعجِّبًا: وماذا نَسيتُ؟ فقال: نَسيتَ رسائل إخوان الصفاء ونسيتَ العهدَ. فقلتُ، وأنا في شدَّة العَجَب: عمَّ تتحدثُ؟ فإنّي لا أذكرُ أنّي أخذتُ أيَّ عهد سوى أن أدرس في نيسابور. فقال عليّ: ألا تَذكُرُ حوّاء الطاهرة؟

وهنا تفاجأتُ من تسميته للطاهرة بحوّاء. وتذكَّرتُ مُثلّثَ القلعة الذي كان مرصودًا على هذا الاسم، فقلت له: أنا لا أذكر إلّا الفتاة الخراسانيّة المدعوّة بالطاهرة، أمّا حوّاء هذه فلا أعرفها. فقال عليّ: إنّ حوّاءَ هو اسمُها الشخصي، والطاهرةُ لقبُها. ونسيتَ أمر حُبِّك لها ورغبتك في مُعاودة الاتّصال بها في نيسابور. ألم تَطلبْ منّي أن أُعرِّفكَ بها؟ وقد حصل بينكما اللقاء في بيتنا في جرجان، مع أختي فاطمة. فقلتُ وقد بدأ شعور الحبّ القديم يُعاوِدني: نعم أذكر ذلك، ولقد مَضتْ سنوات عليَّ في طوس

ونيسابور، نسيتُ خلالها تلك الذكريات الجميلة وأكببتُ على العلم والدراسة، فماذا فعل الله بها؟

فقال عليّ: إنّها في نيسابور، وفيما أذكر، فإنّها أعطَتْكَ عنوانها.

وفي هذه الأثناء انفتح الجدار الجوفي حيث كان قبل قليل رسمُ الطاووس والجدول المثلّث. لم أكن أتوقّعُ أنّه باب سِرّي، وطلَعَتْ علينا فتاة تَسْتُرُ وجهها خلفَ خمار أسود. أطرقتُ ببصري إلى الأرض ولم أستطِع التحديق إليها فتكلَّمَتْ وقالت: أهلاً وسهلاً بك أيّها الشابّ العالم. لقد وصلتْ أخبارُك إلينا، وسَمِعْنَا أنّ الجويني يَستنيبُك في دروسه.

رابَتْنِي هذه النبرةُ، وتعجَّبتُ من معرفة الفتاة بي وقلتُ لها وكيف عَرفتِ يا سيّدتي، فما أنا إلّا شابٌّ مَغمور.

فقالت بنبرة مُستفزَّة: كفاك تواضعًا! فأخبارُ زَهْوِك وافتخارِك وصلَتْ حتى إلى مسامع صبايا نيسابور.

تعجَّبتُ من جُرأة الفتاة عليَّ وقلتُ لها: أظنُّكِ تتكلَّمين عن شخص آخر يا سيّدتي. فقالت معترضةً: كفاكَ لَفًّا ودَورانًا. فإنّ الجميعَ يَعرفُ الغَزَالي وافتخارَه بعلمِه وتَأَنُّقَه في الملبس.

لمّا نطقَتْ باسمي تحيَّرتُ وعلمتُ أنّها تعرفني، فأردتُ الاحتجاج: لا بُدَّ أنّ بعضَ الحُسَّاد أَوْصَلَ لكِ كلامًا غير صحيح عنّي يا سيّدتي.

ضحِكت ضحكًا مُثيرًا، ثم كَشفتْ عن لِثامها فانبهرتُ لجمالها وعرفتُ الفتاة التي أحبَّها قلبي مِنْ قَبْلُ، لكنّ نبرةَ صوتها تغيَّرتْ واكتمَلَتْ. وضعتُ يدي على فمي حتى لا أصرخَ صُراخ العَجَب. لكنَّ الطاهرة رحَّبَتْ بي وآنستني، ثم قالت لي: لقد سجَّلْتَ عنواني ويَظهرُ أنّك قد أضعتَه.

وبدا لي أنّها فَتحتْ لي طاقةً لتسجيل بعض النقاط، فقلت لها بجسارة غير معهودة: أبدًا، لقد احتفظتُ به مع منديلك الذي لَأَمَ جُرحَ كفّي، لكنّه شَقَّ جُرحًا آخر في باطني.

نَظرتْ إليَّ الفتاة بمكر ودَلال، ويبدو أنّي فَتحتُ لها أيضًا بابًا للإغارة عليّ فقالت: ولهذا يبدو أنّك سارَعْتَ في البحث عنَّا لمّا وَصَلْتَ إلى نيسابور.

أطرقتُ خَجِلاً وبدا لي أن أدفعَ عن نفسي هذه التهمة. ثم ارتبكتُ وشعرتُ أنّي أسأتُ معها التصرُّفَ. فقلتُ مُحاولاً أن أُدافعَ عن سلوكي: لقد شغلَتْني الدراسةُ وتدبُّرُ أسبابِ العيش عن السؤال عنك. كما أنّي لم أَكُنْ أتوقَّعُ أن أراك مرّة ثانية. وأَضَفْتُ مُعتَذِرًا بصوت خَافِتٍ: لقد منعني من ذلك الحياء.

فقالت: لا عليكَ الآن. ثم دعتني للجلوس إلى خِوان. وقالت للخادم: آتِنا غداءَنا يا مسعود.

سعى الخادم مسعود بسرعة وبدأ يأتي بالأطباقِ المختلفة، ويَصُفُّهَا حتى تَشَكَّلَتْ أمامَنا مائدةٌ عجيبة. فهذه لحومٌ مَشْوِيَّة وتلك فِرَاخٌ مَحْشُوَّةٌ، وذاك رُزٌّ بُخَارِي وآخر خراساني، وهذه عَصائِرُ

متنوِّعَة وأَلْبَانٌ طَرِيَّة وأَجْبَانٌ بَلَدِيَّةٌ. بدأنا نَأكلُ من هذه الأطايب ثم دعَتْ لنا بشاي فاحتَسَيْتُه مُحاذرًا أَنْ يَتِمَّ تخديري كما في القلعة. لكنّها شَرِبَتْ من الإبريق نفسه قبلي. ثم سألتني قائلة: هل تعرفُ لعبةَ الشطرنج؟ فقلتُ لها: لا يَجْمُلُ بِمَنْ يَسْكُنُ نيسابور أن يَجْهَلَ هذه اللعبة. فهنا تُصنَعُ رِقَاعُهَا وقِطَعُهَا الرخَامِيّة الرفيعة.

فقالت: هل لك في جَوْلة؟

فقلت: لعلّ هذا من لَعِبِ الملوك، ولا أَحْسَبُ أنّي أَنتسِبُ إلى تلك الطائفة. ثم إنّ لكلّ لعبة رهانًا، فما هو رهاننا؟

فقالت: فَلْنَفْتَرِضْ أنّنا مُلوك، كما يَفترِضُ الفقهاء عندكم قضايا محتملة في الفقه. ثم إنّ بعض الملوك قد لا يُحسِنُ لَعِبَ الشطرنج، فقد كان المأمونُ يُحِبُّ هذه اللعبة لكنّه كان لا يُحسِنُ لَعِبَها حتى قال: «عجبًا منّي كيف أُدَبِّرُ مُلْكَ الأرض من الشرق إلى الغرب ولا أُحْسِنُ تَدبير رُقعةٍ طولُها ذراعان في ذراعين».

ثم أضافت في إشارة غريبة: هل تعرفُ أنّ الخليفةَ المستنصر في مصر حاذقٌ في هذه اللعبة.

كنت أَستمعُ إليها متعجّبًا مِنِ اطّلاعِها على ما يجري في قصر الخليفة الفاطمي اليومَ، وكيف كان يَصرفُ أوقاتَه في هذه اللعبة مع المقرَّبين إليه، لكنّي لم أُجِبْ بشيء. ثم طَلبتْ منّي أن نَتحوَّل إلى جَلسة ثانية. أَخذتُ مكاني على كرسيّ مُنَجَّدٍ له جلسة وثيرة، وجَلَسَتْ أمامي على كرسيّ مُقابل. كانت بيننا رُقعةُ شطرنج مُغَطَّاة بثوب مَوْصِلِي رفيعٍ، فَكَشَفَتْ عن الرقعة ولاحظتُ قِطعَها البديعة،

المصنوعة من الأحجار الكريمة، والمَرصوصة في انتظام محكم.

استأذَنَ عليٌّ بالانصراف وأخبرني أنّه مرَّ من نيسابور فقط لرؤيتي. ودَّعْتُه وسَعِدْتُ لكونه تَحايلَ بأدب لِتَرْكِنا كي يُفْضِي أحدنا للآخر بما استَكَنَّ في القلوب. ثم أَقبلْتُ على الطاهرة أَسأَلُها قبل الشروع في جَوْلَةٍ من الشطرنج فقلتُ: ما هو اسمك الشخصي؟

ابتسمَتْ وقالت: ذلك الاسمُ لا يعلَمُه إلّا خاصّةُ الناس، فاسمي حوّاء ولقبي الطاهرة.

فقلت لها: فأنا محظوظ لأنّي من هؤلاء الخاصّة.

فقالت بغُنْجٍ: نعم، يمكن أن تعتبر نفسَك كذلك. ثم دَعَتْني لِلّعِب.

تَأمَّلْتُ القِطَعَ الرفيعَةَ وقلتُ لها: هل صُنِعَتْ هذه القطع في نيسابور؟

فقالت: نعم، وقد باعنا إيَّاها رجل من **الطوّاشين**.

فقلت: ومن يكون هؤلاء الطوّاشون؟

فقالت: هم تُجَّارُ الأحجار الكريمة واللؤلؤ.

فقلت: وأنا أسأل الله أن أكونَ من تجّار **الطوَاسِين**.

فقالت: ومن يكون هؤلاء؟

فقلت: هم أبناء طوس الذين يتكلّمون لُغةَ **النمل**.

تَحَيَّرَتِ الفتاة وقالت لي: كلامُك فيه ألغاز، فقلتُ: مثلَ لُغْزِ الجدول الذي على مِنديلِكِ، والطاووسِ الذي فتح جناحيه فَخَرَجْتِ من الباب الذي نُقِشَ عليه. فَلعلَّكِ بنت الطاووس.

اِبتسَمَتْ وقالت: لقد بَدَأْتَ تُدركُ السِّرَّ يا غزالي. لكن يظهر لي أنّك لم تكشفْ سِرَّ ذلك الجدول. وأمامَك بعض الوقت حتى تُبرهِنَ على كفاءتك. لكن دعنا نلعب الآن.

ثم أضافت: ما هذه اللعبة العجيبة ولماذا تُسمّى بالشطرنج؟ فقلت: لقد سمعتُ أستاذي الجويني، في حديث خاصّ، يجيب عن هذا السؤال. وممّا أذكرُه أنّ الكلمة باللغة السنسكريتيّة الهنديّة، وتعني الفِرَقَ العسكريّة الأربع التي تُكَوِّنُ الجيش. فقالت: وما هي هذه الفِرَق؟ فقلت: انظري إلى الرقعة، فإنّ فيها ثمانية نماذج من الفيلة والفرسان والمَرْكَبَاتِ والجنود. فهناك الشاه، والفِرْز، وفيل الشاه، وفيل الفرز، وفرس الشاه، وفرس الفرز، ورُخُّ الشاه، ورخّ الفرز. إضافة إلى البيادق وهم الجنود، ويُسمّى كلّ واحد منهم مضافًا إلى القطعة التي خلفه، مثل بيدق الشاه وبيدق الفرز وبيدق الرخّ. طَرِبَتْ حوّاء لهذه المعلومات وقالت لي: لكنَّ نظام الجيوش عند المسلمين له شكل خُماسي، ويدعى الجيش خميسًا لأنّ له مقدّمة وقلبًا وجناحين ومؤخّرة. فقلت: شكل الجيش عند المسلمين مبنيٌّ على خمسة: الهاء التي تفيد الحفظ، مثل أركان دينهم وعدد صلواتهم. فقالت: لكنّ عددَ قِطع اللعبة اثنتان وثلاثون، لكلّ لاعب ستّ عشرة، وهو مُكَعَّبُ الأربعة. كما أنّ عدد خانات الرقعة أربع وستّون خانة. لكن قل لي: من الذي اخترع هذه اللعبة الشيِّقَة؟

ناديتها باسمها قائلاً: يا **حوّاء**.

وهنا لاح لي ارتباكها وخَفَرُها حين ناديتُها بهذا الاسم لأوّل مرّة.

ثم أضفتُ: يحكي أبو بكر الصولي الشطرنجي أنّ **آدم وحوّاء** هما أوّل من اخترع هذه اللعبة للتسَلِّي عن فَقْدِ ولدِهما هابيل.

فقالت: ومِمَّ سنتسلَّى نحن؟ أم هل إنّنا سَنُعيد قصّة **آدم وحوّاء** في جولتنا هذه؟

فقلت: لعلّنا نفعل ذلك. وأظنّ أنّنا نحاول أن نتسارر عبر اللعب.

ثم أضفت: إنّ الفراعنة كانوا يلعبونها، وكذلك في بلاد ما بين النهرين واليونان. ولكن يظهر أنّها أتتنا بالاحتكاك مع أهل الهند الذين يذكرون أنّها لعبة الملوك، حيث يُحكى أنّ حكيمًا هنديًّا اخترع الشطرنج لأحد ملوك الهند الذي كان يعاني من الملل. فلمّا جرَّبه الملك أُعجِب به وطلب مكافأة الحكيم بما يريد. لكنّ الحكيم الزاهد لم يكن يرغب في مكافأة، وقال له: لا أريد سوى أن تُضاعِف لي حبَّة قَمْح من الخانة الأولى إلى آخر خانة في الرقعة. ضَحِكَ الملك وظنَّ أنّ المكافأة ضئيلة، فلمّا قام بمحاولة مُضاعفة حبَّات الخانات الأولى تَبيَّن له استحالةُ تلبيةِ طلبِ الحكيم سِيسَه. فالحبَّة الأولى تحوّلت إلى ٢ ثم ٤ فـ ٨ ثم ١٦، ٣٢، ٦٤، ١٢٨، ٢٥٦، ٥١٢، ١٠٢٤ وأنّ مجموع الحبات عند الخانة ٦٤ الأخيرة وصل إلى: ١٨٤٤٦٧٤٤٠٧٣٧٠٩٥٥١٦١٥ وتبيَّن للملك عجزُه عن الوفاء بشرطه. وبدل كيس القمح الذي كان يتوهَّم أن

يدفَعَهُ في البداية، عليه أن يُوَفِّرَ مَحصولَ الكرة الأرضيّة كلِّها خلال خمسة آلاف سنة لإنجاز الوعد. وهنا علم ذكاءَ الحكيم وزُهدَه في ماله وزرعه.

ثم بدا لي أن أَرجعَ إلى ما يَهُمُّني فسألتُها: لماذا اتّصَلَ بي عليّ؟ وكيف عَلِمَ بوجودي في حلقة الأستاذ الجويني؟ وماذا يفعل في نيسابور؟

فقالت: إنّ عليًّا من طائفة الإسماعيليّة كما هو شأن كثيرين في هذه البلاد. ولقد أَوْكَلَ إليه الرَّفيق الحسن بن الصبّاح مُهِمَّةً سِرِّيَّةً فهو يَسعى في تنفيذها. وأَظنُّهُ سيسافر إلى أصبهان قريبًا.

فقلت: وما هي تلك المهمّة؟

فقالت: لقد قلتُ لك بأنّها مهمّة سرِّيّة، فلا يجوزُ أن أُفصحَ عن مضمونها. ثم إنّني لا أدري فحواها بالضبط سوى أنّه أُمِر بتبليغ رسالة إلى الوزير نظام الملك.

فقلت متعجّبًا: وكيف سيصل إلى الوزير، ولأيِّ غَرضٍ يُريدُ ذلك؟

فقالت: لا تُكثِرْ عليَّ من الأسئلة يا غزالي، وكلّ ما أَعلمُ هو أنّ هذا الوزير قد استَبَدَّ بالأمر، وشَدَّدَ على الإسماعيليّة تَشديدًا بالغًا وسَفَّهَ آراءهم ومذهَبَهُم. فَأَظنُّ أنّ الحسنَ بن الصبّاح يريد أن يَثْنِيَه عن هذه السياسة بطريقة ما.

لم أَتَبَيَّنِ التهديدَ الذي كان مُنعطِفًا في هذا الكلام حتى أَدركتُه لاحقًا بعد فَوْتِ الأوان.

ثم سألتها: وما شأنُكِ بكلّ هذا يا حوّاء؟

فقالت: إنّ هذه الطائفة تخدُمُنا نحن آل البيت.

فقلت: ولهذا أرى أنّكم تستعملون الرموز الخاصّة نفسها بالطاووس والجدول.

فقالت: نعم، فالجدول يرمز لحقائق قديمة، وهو يصلح للحفظ، وقد رأيتَ طرزَه على منديلي. أمّا الطاووس فإنّه شعار أسرتنا، ويرمز إلى الخلود والبعث، وأنت تعلم بأنّه الحيوان الوحيد الذي يَسمح به المسلمون في مساجدهم وآثارهم الدينيّة، كما في جامع الملك في أصفهان، وأيضًا داخل مسجد مدينتك طوس، هناك طاووسان وبينهما إناء حياة.

فسألتها: وما حقيقة تلك الحروف التي على الجدول؟

ثم أضفتُ: لم تقولي لي بَعْدُ ما هو الرهان الذي سنلعب عليه.

ابتسمت وقالت لي: تلك هي المهمّة التي عليك أن تقوم بها، فإن استطعتَ حَلَّ ذلك السرّ وقُمتَ بتربيع هذا الجدول قَبِلْتُكَ زوجًا لي.

تَعَجَّبْتُ من جُرْأَتِهَا، وكيف ساقَتِ الكلام فجأةً إلى الحديث عن الزواج بها من دون مقدّمات. والحقيقة أنّي كنتُ أُمَنِّي النفس بذلك، لكنْ هَيْهَاتَ ليتيم مِثلي أن يَحْظَى بفتاة من بَناتِ الكُبراء. لكنّي رأيتُ أنّ الفرصةَ سانحةٌ، فقلتُ، رغمَ جَهلي بما كنتُ مُقبِلاً

عليه: أنا مُستعِدٌّ لحلِّ لُغْزِ ذلك المثلّث، لكن أخبريني، لماذا اخْتَرْتِني بالذات؟

فقالت: لقد أخبَرَنا الحسن بن الصبّاح، وهو من علماء الجَفْرِ والنجوم، بأنّ فتى مِنْ أَعْلَمِ أهل الأرض وأَنْبَهِهِمْ، من مدينة طوس يدعى محمّدًا سَيَظهر في زماننا، هو مَنْ سَيَحُلُّ تَربيعَ هذا المثلّث المرصود عليّ. وأنّه هو الوحيد الذي يَحِلُّ لي الزواج منه. لكنّك قد تقول لي إنّ طوس مليئة بالفتيان الأذكياء، والجواب عن سؤالك هو أنّ لقاءنا في بيتِ عَلِيّ أَقنعني بأنَّكَ الفتى المنشود. ثم إنّ عليًّا أبلغني بأنَّ الحسن الصبّاح عَلِمَ أنّك فَكَكْتَ لُغزًا في إحدى قلاعه. وقد حَضَر عَلِيّ لِيُحَذِّرَكَ مِنْ مَغَبَّةِ كَشْفِ هذا السِّرِّ، رغم جَهْلِ عَلِيّ بِفَحْوَى ذلك اللغز. ولولا ما سَبَقَ من نتائج الجفر في حقِّكَ وحَقِّي لكان فَتَكَ بِكَ، لكنّه امْتَنَعَ عن ذلك إكرامًا لآل بيتنا

لم أَستطِعْ أن أُصَدِّقُ ما قالتهُ لي حوّاء، وفَطِنْتُ للتوِّ إلى ما ذكره لي عليّ، مِنْ أَنِّي نَسِيتُ العهدَ الذي أُخِذَ عليّ، فعلمتُ أنّ الأمر جَلَلٌ، وأنّه كان يَقصِدُ ما أخبرَتْنِي به حوَّاءُ للتوِّ. ثم قلتُ لها:

يا سيّدتي، إنّ الزواجَ بكِ أقصى مرادي، لكنّي شابّ يتيم وربّما لستُ أهلاً لكي أُحقِّقَ لك جميعَ أمانيكِ. فكلُّ همِّي اليومَ العلمُ والإكبابُ عليه. ثم أضفتُ، وإذا فشلتُ في كسب الجولة، ماذا سيكون مصيري؟

فقالت: لا تهتمّ يا محمّد لأمر المال، فلستُ مُعوِزة، وقد

ذكرتُ لك ما أخبر به أهل الجفر. فإن استطعتَ تربيعَ المثلّث تزوَّجتني. والرهانُ خلفَ ذلك الباب، وأشارتْ إلى جهة الجدار.

ثم بَدأَتْ فأرسلَتْ قِطْعَةً من قِطَعِهَا، فأرسَلْتُ قطعةً من قِطَعي لمواجهتها على المضمار. لعبنا طويلاً فكانت تُوشِكُ أن تهزمَني لكنّني كنت دائمًا أُقاوِمُ غاراتِها المتوالية على شَاهِي.

وفجأة قامتْ حوّاءُ وطلَبَتْ منّي أن أُرافِقَهَا جِهةَ الجِدارِ الذي خرجَتْ منه بَعْدَ وُصولي هنا قمتُ خَلْفَها على بعد بضعة أذرع، حتى وقَفَتْ بإزاء رسمِ الطاووس ومُثلَّثِه وأخذَتْ تَنْظُرُ فيه. ثم قالت لي: هل تستطيعُ فتح هذا الباب، والمفتاح في العبارة التالية: «تَفْصِيلُ ثُلُثَيْ أَبِي الآباء»؟ ثم دَخَلَتْ مُسرِعةً للجهة الأخرى وأُقْفِلَ الباب بيني وبينها. بقيتُ مَشْدُوهًا كيفَ كانت أمامي ثم غابَتْ. حاولتُ فتحَ الباب بالطريقة نفسها التي جرَّبْتُهَا سلَفًا في قَبْوِ البئر بالقلعة. وعَبَثًا حاولتُ، فلقد بَقِيَ الباب مُوصَدًا في وجهي. لقد كانت مَواضعُ حُفَرٍ بحجم أنامل اليد على الخانات التسع، لكنّ الجديد في هذا الجدول أنّ الخانات كانت بأحرف أخرى غير التي صادفتُ في قَبْوِ القلعة السرّي. فلدينا الآن: النون، الفاء، الياء، السين، الكاف، العين، الصاد، اللام، الميم.

كان واضحًا أنّ مفتاحَ المثلّث ليس كلمةَ «حوّا» كما في مثلّث قَبْوِ القلعة، وإنّما كلمة أخرى عليّ أن أجدها. كان الأمر مُحبِطًا لأنّي لم أَكُنْ أَعرِفُ كيفَ أَفْعَلُ. حَدَسْتُ بأنّ حوّاء كانت تنتظرني خلف الباب في حال استطعتُ كشفَ السرّ. عُدْتُ إلى الجدول

واسْتَعنْتُ بالله، فلاحظتُ أنّ الجامِعَ بين حروفِه كونُها كلُّها من حروف العشرات، التي تقابلها الأعداد من ١٠ إلى ٩٠، ابتداء من الياء وانتهاء بالصاد. سُرِرتُ بعض الشيء بهذه القاعدة التي أفادتني في مقارنة المثلّثين، بحيث إنّ مثلّث القلعة كان مُركَّبًا على حروف الوَحَدَات من ١ إلى ٩، عكس هذا المثلّث الجديد، المركّب على العشرات.

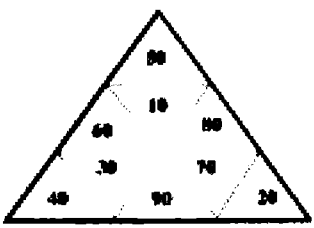

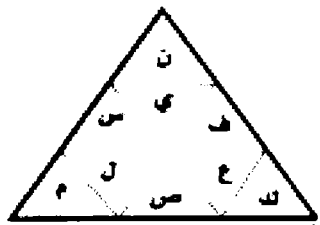

حاولت مع كلمة «طاوس» فلم ينفتح الباب، ثم جعلتُ لكلّ حرف من تلك الكلمة مقابلاً له في فئة حروف العشرات. فإزاء الطاء وضعتُ الصاد، وإزاء الألف وضعتُ الياء، وإزاء الواو وضعتُ السين، وإزاء السين من كلمة «طاوس» تحايلتُ في استخراجه حتى لا يتكرَّرَ، بضرب الكاف (٢٠) في اللام (٣٠). لم أصلْ إلى نتيجة محقَّقَةٍ، وعلمتُ أنّ الكلمةَ ـ المفتاحَ شيء آخر. ثم تذكَّرتُ قولَ حوَّاءَ لي بأنّ المفتاح أبو الآباء. أخذتُ أسألُ نفسي، مَنْ يكون أبُو الآباء؟ هل هو أَحدُ أقانيم النصارى، أم أحد الآباء العُلْوِيَّة المعروفة لدى علماء الفلك والنجوم، وهي الأفلاك التسعة، أم إنّه سيّدنا آدم عليه السلام؟ حاولتُ بالإمكانيّة الأولى مع

كلمة أب فلم أُوَفَّقْ، ثم جرَّبتُ كلمة «آدم» فلم يَنفتحْ لي الباب. يئستُ من محاولاتي، وبدأتُ أتفكّر في قولها «أبو الآباء»، فلم أَعْدِلْ عن كلمة «آدم» لأنّها كانت الأقربَ إلى المعنى، ولكون المثلّث الأوّل كان مفتاحه «حوّا». حاولتُ مرّة أخرى أن أجعلَ بدَلَ كلِّ حرف من حروف الوَحَدات في الكلمة مقابلاً له في فئة العشرات، ثم تحايلتُ على استخراج حرف الميم (٤٠) بضرب الكاف (٢٠) في مثله. جرَّبتُ المحاولة فلم ينفتح البابُ، وأُسْقِطَ في يدي، وعَلِمتُ أنّ لُغزَ هذا الباب أَعْقَدُ من الأوّل. وبينما أنا سَادِرٌ في الحُلولِ المُمكِنَة، أَبْدَلتُ الحروفَ بما يُناسِبُها من الأعداد، وهنا لَفَتَ انتباهي أنّ مجموعَ ضلعِ المثلث الأيمن: ن + ف + ك = ١٥٠، وأنّ الأَمْرَ مُطَّرِدٌ في جميع أضلاع المثلّث. وأنّنا دائمًا نَحصلُ على العدد ١٥٠. وبدا لي أن أفعلَ الشيء نفسَه مع مثلّث القلعة، فوجدتُ أنّ حاصل الأضلاع في مثلّث الوحدات هو ١٥. وهنا بدا لي أن أجد كلمة مكوّنة من حروف تصل قيمتها إلى ١٥٠، قياسًا على كلمة «حوّا» (١٥) في المثلّث الأوّل. حاولتُ تأليف عدّة كلمات بهذه الحروف، تكون لها القيمة العدديّة نفسها «عف، كفن، مسن، صين. .» لم أُفلِح في كلّ هذه المحاولات لأنّها لم تكن الكلمات المطلوبة. ثم تَفَكَّرْتُ في كلمة المفتاح «أبو الآباء»، وافترَضْتُ أنّه «آدم»، قياسًا على **حوّا** في المثلّث الأوّل. ثم حاولتُ أن أستخرجَ العدد ١٥٠ منه. لكن تبيَّنَ لي أنّ عدَدَه ٤٥ فقط. ثم تفكَّرتُ في كلامها مرّة أخرى «**تَفْصِيلُ ثُلُثَيْ أبي الآباء**». فالثلثان في كلمة **آدم** هما الحرف الأوّل والثاني من الكلمة: «آد»

وتفصيلهما يعني «ا = ألف (١١١)؛ د = دال (٣٥)»، ومجموعهما هو ١٤٦. فهذا لا يصل بنا إلى العدد ١٥٠. لكن بقي لنا حرف الميم وقيمته ٤٠ لكنّه يصبح ٤ بحساب الجَزْم الصغير، فإذا أُضيفتْ ٤ إلى الباقي تحصَّل لنا ١٥٠. تنهَّدتُ أخيرًا لكوني حَصَلْتُ على مطابقة العدد مع كلمة المفتاح فأجريتُ الأمر على الجدول وأَقحمتُ أناملي في حفرة الياء أوّلاً ثم اللام ثم الفاء، بالنسبة لحرف الألف التفصيلي، وما ينوب عنه من الحروف. وانتقلت بعد ذلك إلى الدال فالألف ثم اللام، بالنسبة لحرف الدال التفصيلي، وما ينوب عنه من الحروف في الجدول. ولم يبق لي إلّا حرف الدال في الوحدات من كلمة «آدم» وينوب عنه الميم في العشرات. وكم كانت دهشتي كبيرةً حينما انزاح البابُ منفتحًا، فألفيتُ حوَّاءَ آدميَّتِي واقفةً تنتظرُني بابتسامة عريضة، ثم قالت لي: هنيئًا لك يا **آدمَ طوس**، فلقد توصَّلتَ إلى فتح الباب وفَكِّ سِرِّ الجدول. لكن بقي عليك التربيع.

طاسين البستان

خلف الباب وجدتُ بستانًا عجيبًا فيه زوج من طائر الطاووس، ذكر وأنثى، يخطران في تُؤَدَةٍ بين الأشجار والمياه المنسابة من نافورة رخاميّة. كنّا نمشي في مَمْشَى البستان مثل آدم وحوّاء، كزوج طاووس في هذه الجنّة. أخذَتْ بيدي فَسَرَى إلى كَفِّي وَجِيبُها، وأضاء لي سِراجُ قلبِها ما بين نيسابور وطوس. كنتُ في غاية السعادة، فلا أدري هل ذلك بِسبَبِ فكِّ إعجامِ الباب أم بالظفَرِ بِيَدِ ذلك الغزال؟ قضينا الوقتَ في الحديث وأطلعَتْنِي على بُستانِها الذي كان يَعْدِلُ جَنَّةَ قلعةِ الحسن بن الصبّاح جمالاً ورونقًا وبهاء، بل يفوقُها كنتُ مبتهجًا لأنّ عقلي لم يُغْتَلْ بِمُخَدِّرٍ. كنتُ أُحِسُّ هذا الجمال بكلّ إدراكاتي وذَرَّاتي. ثم جلسنا في قُبَّةٍ وَسْطَ البستان، وقالت لي: بَقِيَ في ذِمَّتِكَ امتحانٌ أخير لتظفرَ بالجائزة الكبرى. ثم قامت إلى مكتبة محاذية للبستان. دخلنا إليها فوجدتُ أصنافًا من الكتب القديمة. كنتُ حائرًا في

هذه المكتبة العجيبة التي جَمَعَتْ كلَّ أنواع العلوم. ثم فجأة توقَّفَتْ حوّاءُ أمام صندوق بديع عليه من الأغشية والأحجار الكريمة ما يَخْلُبُ العقول والألباب. وقالت لي: داخل هذا الصندوق كنز ثمين، وهو كتاب لجدّي الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فإنِ اسْتَطَعْتَ أن تَفْتحَ الصندوق حصلْتَ على الكتاب ورأيتَ ما فيه، وربّما استَطَعْتَ حلَّ إعجامِهِ، وتربيعَ المثلّث المعلوم. كما أنّ باب الخزانة مَرْصودٌ على المثلّثين. وإن فَشِلْتَ فسيبقى بابُها مَوْصودًا أمامَك ولن تستطيعَ الخروج منها حتى يُفْتَحَ لك، لكنّك تكونُ قد فَشِلْتَ، وعليك الرحيلُ نهائيًّا، واليأسُ من مُعاوَدة الاتّصال بي أو التَّفكير في الزواج بي. فهل تَقْبَلُ رفعَ هذا التحدِّي الجديد والخيار بين يديك؟

تمعَّنتُ في الصندوق فرأيتُ أنّه يحمِل خاتم مثلّثين. لكنّ حوَّاءَ طَلَبَتْ منّي أن نَخرُجَ من الخزانة ونُكْمِلَ جولةَ الشطرنج.

خرجنا من الخزانة العجيبة، ورجعنا إلى موضعنا في القاعة حيث قِطَعُ الشطرنج ما زالت على حالها كما تُرِكَتْ قبل مغادرتنا. أكمَلْنَا الجولةَ وهزمتني حوّاء وأَطاحتْ بقطعي، الواحدة تلو الأخرى. كانت سعيدة لإحرازها النصْر عَليّ، وكنتُ مُغتاظًا مِنْ شماتتها بي، لكنّي ازْدَرَدْتُ ريقي مُصَمِّمًا على فَكِّ إعجام المثلّثين الأخيرين لأظفرَ بها، وتلك كانت جولةَ الشطرنج الحقيقيّة التي أُخطِّطُ للانتصار فيها.

ثم قالت: لقد هزمتُك الآن وأحرزتُ الرهان، ويتوجَّبُ عليك الدخول إلى البستان.

قضينا بعض الوقت نتذاكرُ في أمور مختلفة، حتى حان وقتُ الصلاة فصلَّيتُ بها، ثم سألتني عن قراري.

فأجبتها: أنا مُقِرٌّ بهزيمتي في هذا الرهان، لكنّني لن أتهرَّبَ من دخول البستان والمُكْثِ، فيه إلى أن يَأْذَنَ الله لي بالخروج مُظَفَّرًا أو غير ذلك.

هنَّأَتْني حوَّاءُ على هذا القرارِ الشجاع، وبعزمي على البقاءِ داخل الخزانة لاستِكْناهِ ذلك السِّرِّ. فقالت لي: سأترُكُكَ ثلاثةَ أيّام إلى زوال اليوم الثالث، فإن نجحتَ، فَلَكَ الجائزةُ الكبرى، وإن لم تنجَحْ فُتِحَ لك بابُ الخزانة للخروج بلا عودة، ولا تُحاولْ أن تسألَ عنّي مِنْ جديد، أو تُحَاوِل الاتِّصالَ بي، فقد ينالُك ما تَكرَهُ.

استغرَبْتُ من طريقة حوَّاءَ في الحديث إليّ وَتَوَعُّدِي بما أَكْرَهُ، لكنَّها لم تَتْرُكْ لي فرصةً للرَّدِّ عليها، واسْتَأْذَنَتْ في الخروج بعد أن أَمَرَتْنِي بدخول الخزانة. وفجأة فكَّرتُ في أن آخُذَ معي بعض ما يكفيني من الطعام والشراب لمدّة ثلاثة أيّام. كانت المائدةُ ما تزال في القاعة، فَأَخذْتُ من بعض تلك الأطايِبِ ووَضَعْتُها في سُفْرَةٍ ودَخلتُ الخزانةَ على عجل. وبينما كنتُ أتجوَّلُ في أجنحتِها سَمِعْتُ دَرْدَبَةً سَريعةً لِبابِهَا الحَجَري والْتَفَتُّ نحو مَصْدَرِ الصوتِ فأَلْفَيْتُ البابَ قد أُوصِدَ دوني. أَسْرَجْتُ مِصباحًا كان قُربَ البابِ

فأضاءَ لي المكان من جديد. كنتُ مُتَوَجِّسًا مُرتابًا ممّا أَقْحَمْتُ نفسي فيه. لا أدري كيف ستنتهي هذه المغامرة الجديدة، وهل سَيَطْلُعُ عليَّ مَارِدٌ من بين هذه الكتب يَسْرِقُ مِنِّي رُوحِي ويَبِيعُها في سوق الشياطين والعفاريت. أَحسستُ ببرودة مُفاجِئة تَكَتَنِفُني، فتلَفَّعْتُ في ثوبي لكنّني لم أَشْعُرْ بِتَحَسُّنٍ، فَعَلِمْتُ أنّ مَصدرَ ذلك البرد ناتجٌ عن خوفي. بَقيتُ حائرًا كيفَ أَصنعُ، ثم عَزمتُ على صلاة الاستخارة. وبعد الصلاة استيقظ فِيَّ فَجْأةً داعي النظم فقلت:

فَبِكُلِّ نَبِيٍّ نَسْأَلُ يَا رَبَّ الأَرْبَابِ، وَكُلِّ نَجِي
وَبِفَضْلِ الذِّكْرِ وَحِكْمَتِهِ وَبِمَا قَدْ أَوْضَحَ مِنْ نَهَجِ
وَبِسِرِّ الأَحْرُفِ إِذْ وَرَدَتْ بِضِيَاءِ النورِ المُنْبَلِجِ
وَبِسِرٍّ أُودِعَ فِي بَطَدٍ وَبِمَا فِي وَاحٍ مَعْ زَهَجِ
وَبِسِرِّ البَاءِ وَنُقْطَتِهَا مِنْ بِسْمِ اللهِ لِذِي النهَجِ

شعرتُ بتحَسُّنٍ كبير بعدَ الدعاء، لكنّي استغربْتُ من معنى البيت الرابع الذي وَرَدَ عليّ بتلك الكلمات المبهمة. لم أَقتربْ من الصندوق بَعْدُ، بل طَفِقْتُ أَتَفَقَّدُ الخزانةَ، فوجدتُها قد ضَمَّتْ من الكتب ما يَحارُ فيه المرء. وَجدْتُ رسائلَ إخوانِ الصفاء، ووجدتُ كتبًا قديمة لمؤلّفين سَمِعْتُ عنهم، وأخرى لأُناسٍ لا أَعرِفُهُم. طالعتُ بعضَ ما تَلَقَّفَتْ يَدِي حول هذه الفرقة، وعلمتُ أنّني فعلاً في بيت كبير من بيوتات هذه الطائفة الإسماعيليّة. قرأتُ عنهم كثيرًا

من الأشياءِ السِّرِّيّةِ التي كنتُ أجهَلُها، وتمسُّكَهُم بالنصِّ في إثبات الإمامة والعِصمة. كما رأيتُ كيف يُقَسِّمونَ مراتِبَهُمْ. فهناك الإمام المستبْصِر المعصوم. ولكي يَسْتَظْهِر لا بدَّ له من الحُجَج والمأذونين والأجنحة. فالحُجج هم الدعاة، ولا بدّ للإمام من اثني عشر حُجَّة يتوزَّعون في الأمصار المختلفة، ويلازِمُه أربعةٌ منهم لا يُفارقونه. كما أنّه لا بُدَّ لكلِّ حُجَّة من مُعاونين يَدعونهم بالمأذونين. ولا بُدَّ للدُّعاة كذلك من رُسُلٍ يُرسِلونَها إلى الإمام وهُم الأجنِحةُ، فهذه طبقاتهم. ثم إنّ الدعوةَ تكونُ للمستجيبين وَفْقَ تِسْعِ دَرجاتٍ مُرَتَّبَةٍ هي: التفَرُّس، التأنيس، التشكيك، التعليق، الربط، التدليس، التلبيس، الخلع، السلخ. وهنا تَذكَّرتُ ما قالَتْهُ لي مَرَّةً حوّاءُ في جرجان عن المراتب التسْع، لَمَّا ذَكَرْتُ لها تعليقتي على أبي نصر الإسماعيلي، فأجابَتْنِي بأنَّ التعليق هو المرتبة الرابعة في الدعوة. داخلني شَكٌّ في كلِّ ما دَرستُ، وأَحسستُ بالشماتَةِ، لقد كنتُ مُستجيبًا بين هؤلاء القوم وأجازوني في إحدى مراتبهم، وأنا في غفلة عن تدبيراتهم. لكنّي شككتُ أيضًا في هذا الأمر، وأَظُنُّ أنّ أبا نصر كان رجلاً فاضلاً لا علاقة له بهذه الطائفة، رغم مَيْلِهِ لحقّ الأئمّة وآل البيت في الخلافة. فقد يمكنُ أن يجتمعَ الأمران، بدون أن ينتمي المرء إلى هذه الطائفة. ساوَرَتْنِي شُكوكٌ عديدة في كلّ مَسارِي وفي تعليقَتي. لقد كنت أفتخر بها ولكنّي اليوم أَقلّ افتخارًا بذلك. ثم لا أَلْبَثُ أن أَمُجَّ هذه الشكوك وأُدافعَ عن إجازتي تلك. لعلّهم أرادوا أن يَتَزَعْزَعَ يقيني في كلّ شيء، وهذه خُطَّةٌ مَاكِرةٌ،

وإنّي أَعترفُ أنّهم نجحوا معي بعض الشيء. وربّما حتى والدي كان إسماعيليًّا ولم أكن أعلم بذلك. أمّا الصوفي الذي حَدَبَ عليَّ مع أخي أحمد فلربّما كان هو الآخر من أتباعهم. إنّني أذكر كيف أنّه كان وراءَ التِحَاقِي بالمدرسة في جرجان. ولولا مَعارِفُهُ لما استطاعَ ذلك. ثم إنّ الحسن بن الصبّاح سمَّاه بالمأذون، وهي إحدى مراتبهم. ثم أعود فأرفضُ كلّ هذه الاحتمالات، وأَرْكَنُ إلى أنّ الأمر فيه تلبيسٌ عَلَيّ كما في طرق دعوتهم. وقد قرأتُ أنّهم يَنتهِجونَ مع المستجيب هذه الطرُقَ حتى يَشُكَّ في نفسه وفي ما عنده، ولا يجدُ يَقينًا يَرْكَنُ إليه سوى ما يُمْلُونَهُ عليه.

وهنا تذكَّرتُ ما كان يقوله لي أستاذي الجويني عن هذه الطائفة، وعن الخلافة الإسلاميّة ووحدة المسلمين، فقرَّرتُ أن أُمْسِكَ بهذا المُعْتَصَم القويم، ففيه النجاة. وبعدَ أنِ اطَّلَعْتُ على كثير من كتبهم وأقاويلهم، وتبيَّنَ لي زَيْغُهُم وضَلالهُم، قرَّرتُ أن أنجو بنفسي من هذه الأُحبولَة التي وضعتُها حول عنقي، لكنّي كنتُ مُصِرًّا على إنقاذ حوَّاء من هذا الضلال أيضًا، لأنّي كنت أُحِبُّهَا حقًّا وأخيرًا قرَّرتُ مَعرفةَ لُغْزِ الصندوق لأنّ ذلك هو الطريقُ الأوَّلُ للخلاص والظفَر بحوّاء وكَسْبِ ثِقَتِهَا، حتى إذا ما تَمَّ لي ذلك أَقنَعْتُها رُوَيدًا بِزَيْفِ هذه المعتقَدات ومَخَارِيقِهَا. فمتى ما تَيَقَّنَتْ بأنّي المُختار لَنْ أَعْدَمَ وسيلةً للتأثير عليها

وقفتُ أمام الصندوق العجيب مستعينًا بالله، فراعني خشبُه

القديم وجماله ونظامه وأغشيته الرفيعة وأحجاره الكريمة. كان واضحًا أنّه مرتبط بباب الخزانة لأنّه كان جزءًا من أحد الجُدران المتَّصِلَة بالباب، بحيث يسري منه إلى الباب اتّصال مخصوص. اقتربتُ أكثرَ من الصندوق لأُعاينَ تفاصيلَه المختلفة، فرأيتُ مثلّثين في غاية البساطة، أحدُهُما أكبرُ من الآخر، ليس بهما خانات داخليّة، لكن على كلّ زاوية منهما أعداد مختلفة. فما هي كلمةُ السرّ المُتَوارِيَة التي رُصِدَ عليها هذا الصندوق؟

بدأتُ بشكل منهجي، حيث إنّ مثلّث القلعة كان مرصودًا على كلمة «حوّا»، ومثلّث البستان على كلمة «آدم»، فالمفروض أن يكون المثلّثان لهما علاقة بهاتين الكلمتين. وبما أنّ العدد ـ المفتاح في مثلّث القلعة كان هو ١٥، وعدد المثلّث الثاني هو ١٥٠، فالمتوقّع أن يكون العدد ـ المفتاح في هذين المثلّثين هو ١٥٠٠. لكن ما هي الكلمة ـ السرّ التي عليها مدار هذا الصندوق؟

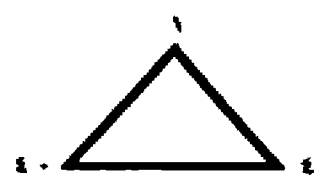

حاولتُ تقليبَ الأعداد وضربَها بعضها ببعض لعلّي أحصلُ

على العدد المطلوب، فلم أنجحْ في فتح الصندوق. بَدتْ لي المهمَّة صعبةً جدًّا إذ إنّ القاعدة تغيَّرتْ، بحيث لم يَعُدْ لديَّ حروف أُرَكِّبُ بها كلمات، وإنّما هي أعداد. ثم لديّ جدولان اثنان عِوَض واحدٍ كما في السابق. أمضيتُ تلك الليلة في البحث فلم يتبيَّن لي شيء وغلبني النوم فنمتُ طويلاً كانت الخزانةُ معزولةً عن العالم الخارجي بحيث لا أرى نورًا ولا أسمع صوتًا اختلطَ عليَّ الأمرُ وتحوَّل الزمانُ إلى بُعْدٍ واحد، من غير تعاقب بين سواد الليل ونور النهار. كنتُ أشعر بالجوع فأكلتُ، وقرَّرتُ أنّه كلَّما أحسستُ بالجوع، فذلك دليلٌ على الزمان الذي كنتُ أتناول فيه عادةً طعامي. وهنا تذكَّرتُ كيف أنّ شيخي الجويني كان لا يأكل إلّا متى نَهَشَهُ الجوع، وعلمتُ أنّه لو كان الآن في مكاني لما تبيَّن له ليل من نهار، لأنّه لم يكن مُنتظِمَ الأكل في أوقات معيّنة. لم أَدْرِ كَمْ قضيتُ من الوقت في هذه الخزانة، إلّا أنّني نمتُ عدَّةَ مرّات وأكلتُ مرارًا أخرى وتَيَقَّنْتُ أنّي ربّما شارفتُ على ثلاثة أيّام، وأنّني لحدِّ الآن لم أَجِدِ الحلَّ.

تفكَّرتُ في حوّاء وما قالته لي عن الجائزة الكبرى، وأخذتُ أُقارنُ بين المثلّث الأوّل والثاني وهذين الجدولين، فأشرقَتْ في ذهني فكرة جديدة، فقلتُ أخاطب نفسي: المثلّث الأوّل لحوّاء، والثاني لآدم، فالمفروض أن يكون هذان المثلّثان لآدم وحوّاء معًا حينما يجتمعان. جرَّبتُ بعد عدّة عمليّات، إضافةَ عدد حوّا ١٥ إلى عدد آدم في اللغز الثاني (١٥٠)، كما فعلتُ سابقًا، لكنَّ الأمرَ بقي

على حاله. ثم تبيَّنَ لي أن أضعَ بَدَلَ كلِّ عَدَدٍ ما يناسِبُه من الحروف، فكانت مفاجأة سارّة، إذ إنّ ما يقابل ١ = ا، و٤ = د، و٤٠ = م، بالنسبة للمثلّث الأوّل، فتحصّلَتْ لدينا كلمة «آدم»، ثم إنّ ما يقابل ٨ = ح، و٦ = و، و١ = ا، فتحصَّلت لدينا كلمة «حوّا» في المثلّث الصغير.

ثم بدا لي أن أضيف عدد آدم إلى عدد حوّا، أي بإضافة ١٥ إلى ٤٥، فَكَبَسْتُ رأس الزوايا حيث كانت حُفَرٌ صغيرة على مقدار أُنْمُلَة. وهنا كانت المفاجأة إذ انفتحَ الصندوق، لكنَّ باب الخزانة لم ينفتح. أخذتُ الكتاب الذي ذَكَرَتْ لي حوّاء، ونَظرتُ فيه فإذا هو جامع لأشتات علوم السِّرِّ. وبينما أنا أقلِّبُ صفحاته وقفتُ على المثلّثات التي فَككتُ إعجامَها نفسها، وما فيها من الخواصّ العجيبة كتيسير وضع الحامل. ثم رأيتُ مثلّثًا آخر خاليًا من الخانات، مُحاطًا بكلمة «الله» مكرّرة ٦٦ مرّة. وفجأة رأيتُ في أسفل الصندوق، تحت المكان الذي كان عليه الكتاب، مثلّثين أحدُهُما أكبرُ من الآخر، على صورة المثلّثين الكبير والصغير. حَدَسْتُ بأنّ مجموع مثلّث **آدم ـ حوّا** هو ٦٠، فإذا أُضيف لهما

رابط الواو ٦، هكذا (آدم + و + حوّا) أصبح لدينا العدد ٦٦ ولمع إشراق نوراني في قلبي على كيفيّة ملء تربيع الخاتم الشريف على صورة **طاوس** نَاشِرٍ جَناحَيْه، ابتداء من ذيله (١) أمّا أطرافُه فَتُشبِهُ **نملَ** الأرض المنتشر من ١ إلى ٩

لمستُ المثلّثين في أسفل الصندوق فوجدتُ أنّ الصغير منهما متحرِّك. أخرجْتُهُ من تجويفه وصِرْتُ أُقَلِّبُهُ ثم بدا لي أن أَضَعَهُ في وسط المثلّث الثاني. جَهِدْتُ في ذلك محاولاً وضعَ رأسِهِ إلى أعلى في اتّجاه أخيه الأكبر نفسه، فلم يَنْضَبِطْ، ثم بدا لي أن أَقْلِبَ رأسَه إلى أسفل وقاعدتَه إلى أعلى، فانزوى بسهولة ويُسْرٍ في موضِعِه وانبعثَ من انزوائه صوتُ مَنْ أُحْكِم رِتَاجُهُ. وفجأةً انفتحَ باب الخزانة، وفَهِمْتُ السِّرَّ، فقد ركَّبْتُ من جديد هذه التَّركيبة بالمثلّثين داخل الصندوق بالاسم المفرد «الله= ٦٦» الجامع لآدم وحوّاء. لقد أشرق في قلبي نور هداني للحَلِّ وعلمتُ أنّ الطاووس كان يلتقمُ **نملَ** الأرض ليهدي **غزالي طوس** حتى يجدَ طريق تربيع الخاتم الشريف، الجامع لحقائق آدم، الإنسان الكامل قبل انفصال حوّاء

عنه. فهو المَثَلُ الأعلى للحقّ.

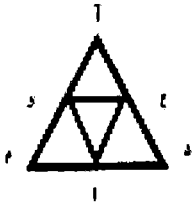

@ktabpdf تيليجرام

اِلْتَفَتُّ فإذا حوّاءُ بجانبي تهنِّئُنِي، ودموعُها تجري على خدودها. طَمْأَنْتُهَا وسألتُها عن سِرِّ بُكائِها فقالت: لقد ظننتُ أنّك فَشِلْتَ، فلقد مَكَثْتَ ثلاثةَ أيّام في هذه الخزانة، وكنتُ أَهُمُّ بفتح الباب كلّ يوم لكي تخرجَ حتى فاجَأْتَنِي بِتَوَصُّلِكَ للحلِّ في الموعد بالذات مع الـ زوال (ز = ٧، و = ٦، ا = ١، ا = ١ ، ل = ٣٠ = ٤٥ = آدم). لقد كِدْتُ أَيْأَسُ، والله يَعلمُ كَمْ لَزِمَني من الصبر طولَ هذه المدّة؟ وكَمْ نَدِمْتُ على تَرْكِكَ هنا بمفرَدِك؟ فاعذُرني كثيرًا

تعجَّبْتُ من كوني أمضيتُ ثلاثة أيّام في هذا المكان الرهيب، لكنّني حمِدْتُ الله على الخروج. أَمْسَكَتْ حوَّاءُ بيدي وقبَّلَتْهَا ثم دَعَتْنِي للراحة قبل أن نَلْتَقِي من جديد ونتذاكرَ في أمورنا.

* * *

أخذتُ قسطًا وافرًا من الراحة ثم دخلتُ حمّامًا بخاريًّا عجيبًا عَمِلَتْ حَوَّاءُ على تحضيره، تَكفيرًا عن تَفريطها السالف فيّ، وإلقائي في غيابات الجُبِّ بلا رحمة. نعمتُ كما لم أَنْعَمْ في حياتي البائسة مِنْ قبلُ بهذه الملذَّات التي لم أَكنْ أُدرِكُ وجودَها، بَلْهَ التنَعُّمَ بها خرجت من الحمّام وجَفَّفْتُ ظاهرَ جِلْدِي بِمَناديلَ بَيْضَاءَ نَاعِمَةٍ، ثم لبست ثيابًا جديدة وجدتها بعد خروجي من الحمّام. خرجت من الغرفة البخاريّة فَأَلْفَيْتُ حوَّاء بانتظاري في أبهى حُلَّة وأزهى زينة. لم أُصَدِّقْ أن تكون بهذا الجمال الآسِر، وأَظُنُّ أنّها لم تكن تُظهِر جمالها الطبيعي من قبل، وتَستُرُه خلف نقابها أمّا الآن فقد أَسْفَرَتْ كما يُسْفِرُ البَدرُ في الدجَى. سَكِرْتُ من غير خمر، وكنت مستعدًّا لأن أخوض مغامرةً أَعْسَرَ مِنَ التي قمتُ بها حتى ترضى عنّي. إنّ أجملَ ما في الحبّ هو أنّه يجعَلُكَ شجاعًا، فَتكسِبُ الحبّ وتكسِبُ الشجاعة، وتجودُ بروحك في سبيل مرضاة الحبيب. ولعمري إنّها لتكادُ تكونُ فريدةً من نوعها مِثْلُ هذه

المشاعر التي إن بَذَلْتَ لها بَذَلَتْ لك، تعبيرًا عن الفتوّة والإيثار. فأيُّ جائزة أعظم من هذا؟

رحَّبَتْ بي حوّاء وقَدَّمَتْ لي شايًا صبَّتْ فيه مِلعقةً مِنْ مُرَبَّى وَرْد. وكم كنتُ نَهِمًا لإطفاء غُلَّتِي بهذا الرَّحِيقِ المُحَلَّى. ثم أخذَتْ مِرَشَّةً ونَضَحَتْنِي بمَاءِ زَهْرٍ فانتعَشَتْ روحي. ولما هَمَّتْ بوضع المرشّة على مِنْضَدَةٍ، اغتنَمْتُ الفُرصَةَ وأَخَذْتُ المرَشَّةَ من يدها ونَضَحْتُهَا، فابتسَمَتْ وقالت لي: هل لك عطرٌ خاصّ يا محمّد؟ تعجَّبْتُ مِنَ السؤال، ولم أَكُنْ أَعْلَمُ أَنْ يتَّخذَ بعضُ الناس عطورًا خاصّة بهم، فقلت: لا يا سيّدتي، ولعلَّ عددَ المرّات التي وضعتُ فيها عطرًا في حياتي معدودةٌ عَدَدَ أصابع يَدِي.

فقالت: وكيف تَعُدُّ نَفْسكَ من أصحاب الأنفاس ولا تهتَمُّ بأمر العُطور والطيبِ؟

لقد فاجأتني حوّاء بهذه الملاحظة، فقلت لها: إنّني لم أَنْشَأْ في غِنًى ويَسَارٍ، فلم أَتَدَاوَلْ هذه الأطايِبَ.

فقالت: هل تعلمُ أنّ العطرَ مثلُ الموسيقى، فتوقيعاتُ اللحن مِثْلُ نَسماتِ العطر عند أهل الأنفاس؟

تعجَّبْتُ من قولها فأردتُ الاستزادةَ من هذا العلم الرفيع، فسألتُها قائلاً: هل للعطور حياةٌ مثلَ مَا لَنَا حياةٌ؟

فقالت: أَيْ نَعَم، فهو يَمُرُّ من مرحلة الصِّبا فالشباب والكهولة ثم الشيخوخة.

فسألتها مستغربًا: وكيف ذلك؟

فأجابت: إنّ للعطر تركيبةً خاصّة، فهو يتكوَّن من عِدَّة طبقات أريجيّة لطيفة. فأوّل طبقة هي الرأس، وهي لا تدوم سوى بضعة أنفاسٍ قليلة. فحين نضعُ بضعَ قطرات على الجلد يَنْفَحُنا أَرِيجٌ يَعْبَقُ أُنُوفَنا، وهذا هو سِرُّ العطر. إنّه أوَّلُ اتّصالٍ له بنا، فكأنّه يخبرنا بهويّته الأولى. وغالبًا ما يكون هذا الأريج من الخُزامى أو ماء الزهر وما شابه. لكنّه يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى يفنى. وتعقُبُه نَسماتُ **قَلْبِ العطر** التي هي النفحةُ الغالبة على العِطر التي تمكِّننا مِنْ تَصْنِيفِه في دائرة العطور النباتيّة أو الحيوانيّة أو غيرها. وبقدر ما تتلاشى نَسماتُ لَحْنِ روح العطر، تَبْدَأُ نَسماتُ قلبِ العِطر في الانتشار وتستَمِرُّ لمدَّةٍ أطولَ تَصِلُ إلى حوالى الساعة. وأخيرًا، نصل إلى المرحلة الثالثة حين تبدأ نسماتُ لحن **أساس العطر**. وهي أشبَهُ بالمسكُوتِ عنه في الكلام، إذ لا يَنتشِرُ عَرْفُهَا إلّا بعد خُمُودِ النَّسمات الأولى والثانية. وهذه الطبقة الثالثة عادة ما تكون دافئةً وشهوانيّة. وتتركَّب في الغالب من جُزَيْئَاتِ العُودِ والمِسْكِ والعَنبر والصنْدَلِ وما شابه. وهذه الطبقة هي روح العطر التي تَدُومُ مُدَّةً أطولَ كَلَيْلٍ ونهار.

تعجَّبتُ من حوَّاءَ ومعارفِها الراقية حول عالم الأنفاس والعطور، فاستَزَدْتُ من هذا الخَيْرِ قائلاً: هَلْ لكلِّ عِطْرٍ تَركيبةٌ خَاصَّة؟

فأجابَتْ: طبعًا، كلُّ عِطرٍ له تركيبةٌ معيّنة، وهي مَزيجٌ من

نَسَمَاتٍ ومُوافقاتٍ بين المركَّبات المشَكِّلَة لكلّ عطر. وللحصول على التركيبة لا بُدَّ مِنْ عِلْمٍ بالمقادير اللازمة ومُراعَاةِ تَوافُقِها مع غيرها وعمومًا، هناك ثلاث طبقات في كلّ عطر، وكلّ طبقة تحتوي على مجموعات صغرى من المركّبات. لكنّ هذا العِلْم مِنْ أَسْرار أهل العطور والأنفاس، وهم لا يجودون به على غيرهم، مثل المضنون به على غير أهله في المعارف والعلوم.

زاد فضولي فسألتُ حوّاء قائلاً: هل لكلّ شيء رائحةٌ خاصّة؟ وهل يمكننا تَعْلِيبُ رائحةِ أيِّ شيء؟

فقالت: نعم، بكلّ تأكيد إذا استطعنا تحليلَ تلك الرائحة إلى عناصرها الأولى المركِّبة لها، على الرّغم من صعوبة إمساكِ الرَّوائح في الأواني، فهي دائمًا تطلب عالم اللطافة. لكن متى ما تمَّ حَبْسُهَا، أَحْكَمْنا السدَادَ ونَعِمْنَا بعَرْفِهَا، متى ما وافقَ الطبعُ طَلَبَ تلك الأنفاس.

ثم سألتُ: هل مَناطُ العطر خاصّ بحاسّة الشمّ، أم أنّ حواسَّ أخرى قد تتداخل معها؟

فأجابت: إنّ العطرَ يتوسَّلُ بمجموعة من الروائِحِ التي يَتِمُّ استخلاصُها مِنَ المشمومات أو المطعومات أو غيرهما. لذا، كان من البديهي أن تُشارك جميعُ الحواسِّ بقَدْرٍ أَوْ بآخر في الاِنْتِشَاءِ بِعَرْفِ العطور. ويمكننا أن نتحدَّثَ عن **ذوق** العِطر الفلاني أو **لَحْنِه** أو **نعومته ولطافته**. كما نتحدَّثُ عن **لونيّته**.

أخذتُ المرشَّةَ ثانية ونَضَحْتُ على وجهي وأطرافي قَطراتٍ

مُنعِشة، لكن حوّاءَ أخرَجَتْ مِنْ بين ثيابها قَارُورَةً صغيرةً فَتَحَتْ سِدَادَهَا، فانتَشَرَ عَرْفُهَا إلى أعماق روحي، ثم وَضَعَتْ على مِجَسِّ يَدِي قطرتين، وأخذَتْ هي أيضًا من ذلك العطر، فوضعَتْ منه خَلْفَ عَقْرَبِ عِذَارِهَا. وبقدر ما خَجِلْتُ من هذا التواطُؤ والتنَعُّم بهذه الأطايب بِقَدْرِ ما كنتُ سعيدًا لمشاطَرَةِ حوَّاءَ هذه الأسرارَ الدالّة على القُرْبِ والحُبِّ، فقلتُ: شكرًا لك يا حوّاء، فقد علَّمتِني أَنْ أَعُودَ آدميًّا بعد طُولِ خُشُونَةٍ. وليس غريبًا أن يُوافقَ عَدَدُ كلمةِ **طيب** (٢١) عَدَدَ كلمةِ **حوَّا** الفهواني. فأنتُنَّ معشر النساء من أصل شجرة **طوبى**، التي هي مظهر الحياة من اسمه **الحيّ**.

ثم سألتني قائلةً: أرجو أن تكونَ قد استفَدْتَ واسْتَرَحْتَ بعد المتاعب التي سبَّبتُها لك. فأجبتُها بجسارة غير معهودة: كلُّ صعبٍ في رِضَى المحبوبِ يَهُون. خَجِلَتْ وأطرقَتْ أرضًا ثم غَيَّرَتِ الموضوعَ قائلةً: لقد فَتَحْتَ البستانَ والخزانةَ والكتابَ وأدركْتَ أسرارًا لا يَعْرِفُها إلّا آحادُ العارفين، فهل توصَّلْتَ إلى كيفيّة تربيع الخاتم الشريف؟

قلت بنبرة لا تخلو مِنْ ظَفَرٍ: نعم يا حوّاء، لقد لمع في قلبي سِرُّ ذلك الخاتَم ببركة الاسم الأعظم.

وهنا قَفَزَتِ الطاهرة من مكانها وقالت: وهل لديكَ سِرُّ الاسم الأعظم؟

فقلت: لم أقل هذا، وإنّما أعطاني شيخي أبو عليّ الفارمذي تميمةً طَوَّقَ بها عنقي، ذَكَرَ لي أنَّ فيها هذا السِّرّ، وقد أمرني أن لا

أفتَحَها إلّا إذا وقعتُ في ورطة كبيرة. وقد فعلتُ ذلك لمّا كنتُ داخل الخزانة فاهتديتُ إلى السرّ. وقد رأيتُ، في طرفَةِ عَيْنٍ، صورةَ طاوس يلتقِمُ تِسْعَ نملات بترتيب خاصّ. وقد اتَّبَعْتُ ذلك الترتيبَ فَوَجَدْتُ الحلَّ.

فقالت: وما هو تأويلُك للطاوُس والنمل؟

فقلت: لعلّي أنا الطاوس، وهو إشارة إلى طاسين مفتتح سورة النمل، التي كان يَلْتَقِمُهَا ذلك الطائر. وقد جادتْ بنفسها للطاوس في سبيل هدايتي. ولا يَخْفَى عليك ارتباطُ **طاسين** بمدينتي **طوس**. فالمتحقِّق بسورة النمل هو الفتى الطاسيني.

فقالت: فأنت طاسين إذن؟

قلت: أرجو الله أن أكون كذلك. وهو مَقامُ الكَليم الذي ينقص بدرجة واحدة عن ياسين. ولطاسين علاقة بحوّاء، فله عدَدها نفسه بالصغير.

فقالت: لعلّي لا أفهم إشاراتك.

فقلت: لا بأس، حتى أنا لا أَعْقِلُ كلَّ ما أقولُ، لكنّي أنقلُ ما رأيتُ في الواقعة التي مرَّتْ بي كاللمْعَة. ولعلَّنا نقرأُ سورةَ النمْل لِنُدْرِكَ تلك الأسرار.

أسرعَتْ حوّاء إلى مُصحَفٍ وناولَتْنِي إيَّاهُ قائلةً: خُذْ يا طاسين، اِقْرَأْ لنا، فَتَحَ الله عليك.

أَمَّنْتُ على دعائها، وأخذتُ المصحف وقرأتُ بصوت شَجِيٍّ

وغِبْتُ في ذلك المنزل حتى استَوْفَيْتُه. وأخيرًا التفَتُّ إلى حوّاءَ وقلتُ لها: ٱنْظُري معي، إنّ عددَ آيات هذه السورة يبلغ ٩٣، وترتيبُها في المصحف ٢٧.

فقالت: فهل يا تُرَى هناك أسرار لهذه الأعداد.

فقلت: أكيد، لكنّنا لا نعلَمُ ذلك، ولكن انتظري قليلاً، فَمِفتاحُ هذه السورة في مُفتَتَحِها وهو «طس». وهما حرفان، فكم يا تُرى تكرَّرَا في هذه السورة؟ لم أنتظرْ جوابًا من حوَّاءَ لأنّنا لم نكنْ نعلمُ ذلك. تغافَلْتُ عنها وبَدأتُ أتَتَبَّعُ السورةَ حتى أَكْمَلْتُ مُهِمَّة العَدِّ. ولَشَدَّ ما كانت مفاجأتي، فقد تكرَّر حرف الطاء ٢٧ مرّة، وتَكرَّرَ حرف السين ٩٣. شَهِقْتُ من هذه المفاجأة وأخبرتُ الطاهرةَ بهذا الإعجاز الرائع، وكيف أنّ الطاء تكرَّرتْ ٢٧ مرّة، وهو ترتيب السورة في المصحف، كما أنّ السين تكرّر ٩٣ مرّة على عدد آيات السورة نفسه. ثم إذا جمعنا العددين حصلنا على ١٢٠، وهو عدد كلمة «**نمل**» الذي هو اسم السورة.

فَغَرَتْ حوَّاءُ فَمَهَا متعجِّبةً من هذه الموافقات الإلٰهيّة، ثم جَدَّدَتْ عليَّ الطلبَ في كيفيّة تربيع الخاتم الشريف. وهنا قلتُ لها: هل ما زِلْتِ تحتفظين بريشة الطاووس التي أهديتُها لك؟ فقالت: نعم، إنّها عزيزة عليَّ. فقلت: اِئْتِيني بها لأُسَطِّرَ بها الجدول. غابتْ قليلاً ثم عادت بالمحبرة والريشة وناولَتْنِيهِمَا. بدأتُ التسطير عَموديًّا ثم أُفقيًّا من اليمين إلى اليسار كما تَنُصُّ على ذلك القاعدةُ عندَ أصحابِ الشأنِ، ثم مَلأتُ الخانات بحسب ترتيب الْتِقَاطِ

الطاووس للنملات التسع فخرج لنا الخاتم الشريف مربّعًا لأوّل مرّة في التاريخ. وأنشدتها بيتَ المنفرجة الذي فُتِحَ عليَّ بها واستغربت معاني كلماته، لما دخلتُ خزانةَ البستان وصَلَّيْتُ صلاةَ الاستخارة:

وَبِسِرٍّ أُودِعَ فِي بَطَدٍ وَبِمَا فِي وَاحٍ مَعْ زَهَجِ

ب	ط	د
ز	ه	ج
و	ا	ح

تعجَّبَتْ حوّاء من هذا الفتح الذي كان مرصودًا على اسمها، بحيث بإمكانها الآن أن تستبدلَ الحروف بالأعداد لتحصل على مجموع ١٥ (حوّا) في كلّ الأضلاع عموديًّا وأفقيًّا ورأسيًّا. كما أنّ مجموع جميع أعداد المثلّث ١ + ٢ + ٣ + ٤ + ٥ + ٦ + ٧ + ٨ + ٩ = ٤٥، يساوي عدد (آدم).

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

تَنَهَّدَتْ أخيرًا وقالت: لقد كنتُ مُتأكِّدَةً أنَّكَ فَارِسُ أحلامي يا غزالي، فَلَقَدْ غَزَلْتَ لي غَزْلاً رَقِيقًا لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أن يَغْزِلَهُ بهذا الخاتم الشريف. فأنا الجائزةُ الكبرى، فهل تَقْبَلُنِي زَوْجَةً لك؟

ابتسمتُ وكُنْتُ في غايةِ السعادةِ وقلتُ لها: لو أَنَّ مالَ الدنيا كلّها في يدي لأنفقتُهُ، وأرى ذلك لا يَليقُ بِكِ، حتى أَجُودَ بِرُوحِي في سبيل حيازَتِكِ. وحتى أُظْهِرَ لك رغبتي في ذلك، فإنّي سأصنعُ

خاتَمَ زواجِنا من فضّة، وأَنْقُشُ عليه هذا الخاتمَ ليحفَظَنا بِسِرِّ ما فيه مِنْ أَسماء إلٰهيّة، من كلِّ سُوءٍ ومَكْروهٍ، ويَعُمَّنا بسبَبِهِ كلُّ خَيْرٍ وَفَضِيلَةٍ.

فقالت: لبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، ورُوحي بين يَدَيْكَ، وَلْنُسَمِّ هذا الجدولَ المربَّعَ، خاتمَ غَزَالِي. فإن أراد غيرُنا تسميَتَه فَلْيُعَرِّفُوهُ، لكنّنا نَحتفِظُ بالإضافة، فيما بيننا فقط، كدليل على ما بيننا من حبّ. أليس كذلك يا غَزَالِي؟

فقلت: بل أنتِ غزالي يا رِيمَ قلبي، وَرَشَأَ فُؤادي، وظَبْيَ جَنَانِي، ونَمْلَ صَخْرِي. لم أُرَبِّعْ هذا المثلَّثَ إلّا لأجعَلَهُ خاتَم زواجي بحَبَّةِ القَلب ويَعْسوبِ الروح. إنَّ في جمعيَّتنا الآدميَّةِ الحوّائيّة إِمْسَاكًا لِمَيْدِ الأرض التي نمشي عليها. لمّا خَلَقَ اللهُ آدمَ، عَلَّمَهُ هذه الأحرفَ الأولى مع مُقابِلاتِها العدديّة، ثم اشْتَقَّ مِنْ ضِلْعِهِ حَوَّا. أفلا تنظرين إلى هذا الوِفْقِ، وكيف حَلَّتِ الخمسة في مركزه لِتَدُلَّ على حِفْظ هُويَّة آدم. وجاء مجموع الأضلاع الجانبيّة ١٥، على عدد حوّا، المنبعثة من جانب ضلع آدم. ومجموع جميع أعداده ٤٥، على عدد آدم. فها قد اجتمع الفرع والأصول بحبل المودَّة والحُبّ. ولقد كانت سنة ولادتي إشارة إلى آدميّتي، فقد وُلدت سنة ٤٥٠ هـ. فأسقطي صفر المئات تجدي تلك السنة موافقة لعدد آدم.

ثم بدا لي أنّ الفُرصةَ سانحةٌ كَيْ أستعلِمَ مِنْ حَوَّاءَ عن سِرِّ سَفَرِ عليّ إلى أصبهان، إذ إنَّ الطريقةَ التي أخبرَتْني بها عن ذلك

رَابَتْنِي كثيرًا اِمْتَنَعَتْ في أَوَّلِ الأمر، لكنّني أَلحَحْتُ عليها في السؤال لأَسْتَوْضِحَ عن علَّةِ ذلك السفر فأخبرَتْنِي أنّ الحسن بن الصبّاح ربّما قد كلَّفَه باغتيال الوزير نظام الملك. صُدِمْتُ من هذا النبأ العظيم واسْتَشَطْتُ غيظًا، وأَنَّبْتُ حوّاءَ على تَكَتُّمِهَا وقلتُ لها: كيف تَسْكُتِينَ على هذه الجريمة وأنتِ تَعْلَمِينَ أنّ القتلَ والاغتيال حرامٌ في شريعتنا؟

حَاوَلَتْ حوّاءُ أن تُبَرِّرَ موقِفَهَا، وأنّها استَنْتَجَتِ الأمر ولم تسمع ذلك مِنْ عليّ مباشرة، وتَعَثَّرَتْ في الكلام، فوجدتُ أنّ الفرصةَ أَسْنَحُ لكي أُنبِّهَهَا إلى مخاطر هذه الطائفة، فَبيَّنْتُ لها قَدْرَ ما ينبغي ذكرُه ممّا قد تَعلَّمتُه من أستاذي الجويني، ومن تجربتي في القلعة وتخدير الفتيان. ثم خطر لي أن أُسارعَ في إخطار الأستاذ حتى يُبَلِّغَ الوزير قبل فَوْتِ الأوان.

طمأنتُ حوّاء ونصحتُها أن تُقْلِعَ عن هذه العقائد الغريبة التي تُحِلُّ دمَ الإنسان. ثم بدا لي أن أَكْسِرَ حاجزَ قلبِها، فوضعتُ قُبلةً على خَدِّها الوَرْديِّ فزاد احْمِرَارًا، وَخَجِلَتْ مِنْ جُرأتي مع رغبتها في تلك القُبلة التي رفَعَتْ درجةَ حرارَتِها حتى نَضَحَتْ حَبَّاتٌ على جبينها مثلَ الدُّرِّ الأبيض الشفَّافِ. اتَّفَقْتُ معها على الزواج قريبًا ريثما تُخْطِرُ أهلَها ودَّعتُها بقبلة ثانية على خدِّها الثاني، ثم غادرتُ.

كان الأستاذُ الجويني قلِقًا بشأني حيث كان قد استنابني عنه. فلمّا تَغيَّبتُ افتقَدَنِي وسأل عنّي، فلم يُفِدْهُ أَحَدٌ بخبر. ولمّا طَلَعْتُ

عليه قال لي: أهلاً بولدنا محمّد، لقد افتقدناك كثيرًا.

طمأنتُ الأستاذَ على غيابي، وطلبتُ أن أَراهُ مُنفَرِدًا، فاصطحبني إلى بيتِهِ بعد الدرس. وهنا أخبرتُه بجَرِيرَةِ الحسن بن الصبّاح في عزمِه اغتيالَ الوزير نظام الملك. صُدِمَ الأستاذُ من هذا الخبر، وسألني عن حَيْثِيَّاتِ وُصولِ الخبر إليَّ فَلَمْ أُطْلِعْهُ على قِصَّتِي مع حوّاء، وإنّما ذَكَرْتُ له علاقتي بعليّ في مدينة جرجان، وكيف أنّي التَقيتُه مؤخّرًا في نيسابور فأطلعَني على سرِّه، لما سبق من الوُدِّ بيننا. تَلَقَّفَ الأستاذ الخبر مَصدومًا وقال لي: إنّ هؤلاء يَسْعَوْنَ في خراب الإسلام بعدما أَظلَّتْنَا هذه الدولة المباركة التي وَسَّعَتْ رُقعة بلاد المسلمين حتى بلاد الصين، ولَمَّتْ شَعَثَهُمْ وَأَمَّنَتِ الطرقَ والبلادَ، ونَشَرتِ العلم وأَغدَقَتْ على العلماء. إنّ اغتيال الوزير نظام الملك إذا حصل ستعقُبُه كارثة مُحَقَّقَة. فالرجل «سيّد الورى، ومؤيّد الدين والدنيا، ملاذ الأمم، مستخدم السيف والقلم».

ثم قال لي: سأكتب رسالة مستعجلة الآن إلى الوزير حتى يَأخذَ الحذر.

وفعلاً كتبَ الرسالةَ وطلب منّي أن آخذَها إلى ابن نظام الملك في نيسابور على وجه السرعة، بعدما شدَّد عليّ في التكتُّم على الأمر حتى عن أقرب أصدقائي، فربّما يكون من بينهم من هو في خدمة هذا الرجل. خرجتُ من عنده لا أَلْوِي على شيء حتى وَصَلْتُ قَصْر الوالي فاستأذنتُ عليه من قبل أستاذي الجويني. استقبلني بحفاوة بالغة، نظرًا للمكانة التي كان يحظى بها الأستاذ

في الدولة وسألني عن سبب زيارتي فسلَّمْتُهُ الرسالةَ التي كنتُ أُخْفِيهَا بين ثيابي. أخذَها منّي وقرأها فتغيَّرَ لونُه. شكرني على صنيعي وشدَّدَ عليَّ في كَتْمِ الأمْرِ وصَرَفَنِي.

خرجتُ من عند الوالي ورأيت إثر خروجي كتيبةً من الفرسان مُدَجَّجَةً بالسلاح تَخْرُجُ من القصر على وجه السرعة. حَزرْتُ بأنّ الوالي أرسلَها مع الرسالة إلى أصبهان لوالده الوزير نظام الملك. تَنَهَّدْتُ أخيرًا.

مرَّتْ أيّام وعَلِمْتُ من الأستاذ أنّ الجاني كان قد وصل إلى نظام الملك وترك قرب سريره خنجرًا مُثبّتًا على الأرض مع رسالة تهديد. حمدنا الله على نجاة الوزير من هذه الكارثة وأخبرني الأستاذ أنّ الحسن بن الصبّاح كان يريد فقط أن يُهدِّد الوزير حتى يُغيِّر سياستَه المناوئة للإسماعيليّين. ثم أخبرني بأنّ الوزير عَلِمَ عن سعيي واستوصى بي خيرًا

طاسين الخاتم

تَزوَّجتُ من حوّاء وأقمنا عرسًا بالمناسبة، وأَلْبَسْتُ حَوَّاءَ خاتمًا من حَجَرِ الفَيْروز السماوي اللون، الذي كان شائعًا في نيسابور. وألبَسَتْنِي هي الخاتم الفِضِّي الذي صنعه لي أَحَدُ الصاغَة، بالتربيع الجديد، وقالت لي: الْبَسِ الخاتمَ يا غزالي. فابتسمتُ لها في غفلة الحاضرين عن سِرِّ هذه المناداة. فقد ظَنُّوا أنّها تناديني بشُهرتي، وَهْيَ كانت تُناديني بقولها لي: يا حبيبي وغَزالَ قَلْبِي. فما أجملَ تَمْرِير الأَسْرَارِ في وَاضِحَةِ النهار، على مَسْمَعِ الأغيار، وإبصارِ الأنظار، والكلُّ ذَاهِلٌ عن فَحْوَى الخِطَاب، وما تَوَاطَأَ عليه الحِبّ والحِبَّان.

بعد العُرس مباشرة، مرض أستاذي الجويني بمرض اليَرَقَان، وهو مرض يَظْهَرُ فيه الخِلْطُ الصفْرَاوِي على سطح البدن ويَطفُو على الجلد. وبقي أيّامًا في هذا المرض، ثم بَرِئَ منه وعاد إلى التدريس بعد أن استنابني عنه، فَقُمْتُ بالمهمّة خَيْرَ قِيام. وفَرِحْنا بعودته فَرَحًا

كبيرًا، لكنَّ المرضَ عاودَهُ وغلبَتْ عليه الحرارة وازدادَ ضعفُه وفَتَرَتْ همَّتُه، فَحُمِلَ على مِحَفَّةٍ إلى بُشْتَنِقَان في نواحي نيسابور، والتي تمتاز باعتدال الهواء وكثرة الماء والخيرات والغَلَّات.

كنت أزورُه تلك الأيّام كلّما سَنَحَتْ لي الفرصة حتى أُخفِّفَ عنه، وكان يسألني عن الطلبة وعن التدريس. ولمّا كنتُ أباحثه في بعض القضايا المنطقيّة في الإلٰهيّات، قال لي مرّة مع جَمْعٍ مِنْ أَخَصِّ طلبَتِه: «اِشْهَدُوا عَليَّ أنّي قد رجعتُ عن كلّ مقالة تُخالِفُ السُّنَّة، وأنّي أموت على ما تموت عليه عجائز نيسابور». ابتسمتُ من قول الأستاذ الإمام النظَّار وسألته، وهو الذي أعدَّ ألْفَ دليلٍ لإثبات وجود ووحدانيّة الله، كيف يَقْبَلُ بعد أَنْ حَذَّقَتْهُ العلوم والمعارف، بإيمان العجائز؟

فأجاب: يا غزالي، لا تَغتَرَّ بتلك الأدِلّة، فلولا أنَّ بمقابل كلِّ دليلٍ شبهةً عَارِضَة، ما أعددتُ تلك الأدلّة، وقد نبَّهَتْنِي على هذا إحدى عجائز نيسابور لَمَّا نُمِيَ إليها خبر الألف دليل فقالت قولها. فلمّا وصلني انفتح لي باب من العلم واليقين لم يكن عندي من قبل استفَدتُه من كلام العجوز. كنتُ في عُنفوان الشباب ونَضارة العيش وقُوَّة العقل والاعتداد بسلطانه، فلم أقتنع بكلام الإمام لكنّي سايرتُه في كلامه شفقةً عليه من المرض الذي كان يُعانيه. وفي نهاية الزيارة طلب منّي أن أَزُورَ نظام الملك حتى يَنظرَ في شأني. وفي ليلة الأربعاء ٢٥ ربيع الآخر من صيف سنة ٤٧٨ هـ، تُوفّي الإمام

بعد صلاة العشاء. ثم نُقِلَ في تلك الليلة إلى داره في نيسابور بعد جهد كبير، وانتشر الخبر انتشارَ النارِ في الهَشِيم، فَكَثُرَ النحيب والعَويل والبُكاء. وفي يوم الأربعاء حملناه إلى ميدان الحسين في نيسابور، وصلّى عليه ابنه أبو القاسم بعد أن اخترقَ الصفوفَ بمشقّة، ثم عدنا به إلى داره وقتَ التطْفِيل، قبل غروب الشمس، ودُفن هناك. وفي يوم وفاته أُغلِقَتِ الأسواقُ وأبوابُ المدينة، وجلس الناس للعَزاء أيّامًا واضعينَ المنادلَ على رؤوسهم من شدّة الحزن. أمّا طلبتُه، وكانوا نحو أربع مائة طالب، فقد حَلَّت بهم كارثة عظمى لم يكونوا يتوقّعونها، فقد تُوفّي الإمام وهو في سنّ التاسعة والخمسين، وهو في عزّ العطاء والرجولة. ومن شدَّة وَلَهِهِم بالأستاذ كَسَرُوا مِنْبرَه في جامع المنيعي، ثم كَسَرُوا محابِرَهم وأقلامَهم واستمرَّ الأمر على ذلك عامًا كاملاً

وبعد مدّة خرجتُ قاصِدًا نظام الملك في المعسكر، وهو ميدان فسيح بجوار نيسابور أقام فيه الوزير مُعسكرَه، فرحَّب بي وأكرمني، ثم أراد أن يَتحرَّى بنفسه عمَّا ذُكِرَ له عنّي، فأَحْضَر لي العلماء وناظرتُهُم وهزمْتُهُمْ جميعًا سُرِّيَ عن نظام الملك بفقد أستاذي الجويني واستبشر بالعِوَضِ خيرًا ثم إنّه كان يَعْلَمُ ما بَدَرَ منّي في إخطاره بعَزْمَةِ الحسن بن الصبّاح في اغتياله، فذكرها لي. صَرَفَ جلساءَهُ وطلب أن أبقى معه منفردًا، وبدأ بإخباري عن سياسة الدولة والجهود الكبيرة التي بذلها السلاجقة في تقوية أركانها وحماية الخلافة الإسلاميّة في بغداد. ثم عرَّج على سياسته

العلميّة بإنشاء المدراس النظاميّة، بغية تخريج العلماء الذين يَحْمُونَ بَيْضةَ الإسلام من العقائد الفاسدة. وفَطِنْتُ إلى ما يُريد أن يَخْلُصَ إليه، ثم ذكر لي سَعْيَ الخلافة الفاطميّة في مُناوَأَةِ هذه السياسة، وكيف أنّها أرسلَتْ الدعاةَ إلى خراسانَ وغيرِها من البلاد فأنشأوا المدارس التي تُفَرِّخُ الأنصار. كما أخبرني أنّ عددًا من هؤلاء قد دخلوا في المدارس النظاميّة وصاروا يُشوِّشونَ على الطلبة والأساتذة، ويَصرِفُونَ جُهدَهُم لزرع الفتنة وصَرْفِ الناس عن طريق السُّنَّة والجماعة. وأخيرًا ذكر لي بأنّه يحتاج إلى مساعدتي لترسيخ سياسة الدولة في بغداد، قلبِ الخلافة الإسلاميّة. فعلى الرّغم ممّا تعرفُه خراسان من دعوة إسماعيليّة، فالأمر تحت سيطرته لأنّه مُقيم في أصبهان، لكنّ دار الخلافة تَعْرِفُ عِدَّةَ قَلاقِلَ وزَلازلَ فكريّة يقوم بها أصحابُ الأهواء والبِدَع.

ثم قال لي بصراحة: عليك يا غزالي أن تساعدنا بما حَبَاكَ الله من العلم وقُوَّةِ الحُجَّة، حتى نقضي على هذه الفتن، التي إن تركناها، سَتَعْصِفُ بدار الخلافة كما حدث سابقًا وتَعَطَّلَتْ لمدّة يسيرة. ولولا دولةُ السلاجقة المبارَكة التي قامت بإعادة الخليفة إلى مَنصِبِه لانْفَرَطَ حبلُ الأمّة نهائيًّا.

كنت أتابعُ كلامَه باهتمام بالغ وأَهُزُّ رأسي بالموافقة. وأخيرًا ذكر لي عَزْمَه على أن أتولّى التدريس بالمدرسة النظاميّة التي أنشأها في بغداد. لم أكن أتوقَّعُ منه هذا الأمر، وأقصى ما كنت أُؤَمِّل أن

أَلتحِقَ بهيئة التدريس في نيسابور، وقد كنتُ مُتوَجِّسًا، ممّا جُبِلَتْ عليه النفْسُ البشريّة من الأَثَرَةِ والحَسَدِ لدى بعض زملائي، لأنّ المعاصرةَ حِجَابٌ. لقد كنتُ زميلاً لهم، فكيف أُصبحُ أُستاذًا عليهم بَعْدَ غِيابِ عَلَمِ الأعلام. كان نظامُ الملك رجلاً ذكيًّا فَطِنًا، فآثرَ أن يُرسِلَني إلى بغداد، مَقرِّ الخلافة حتى أُبَرْهِنَ على كفاءاتي. أَجَبْتُه إلى ما طَلَب منّي وتجهَّزْتُ صُحْبَةَ أهلي وأخي. وكنتُ قد رُزِقْتُ في تلك الأثناء بنتًا، وزوجتي حامِلٌ مرّة أخرى.

خَرَجْنا مُسافِرين بعد أن وَدَّعتُ أصدقائي. وكان يُرافقني زَميلٌ لي عزيز، درس معي على الإمام الجويني، هو أبو القاسم إسماعيل بن عبد الملك الحاكمي من أهل طوس. وصلنا بغداد مدينة السلام، فرزقني الله بنتًا ثانية أسميتُها **سلمى**، تَيمُّنًا بمدينة السلام. وقد كنتُ أُوثِرَ حَرْفَ الطاء والسين في الأسماء لِتَعَلُّقِي بِحَرْفَيْ مدينتي «طوس» وما حصل لي مِنْ فَكِّ لُغْزِ الخاتم الشريف وتربيعه ببركة سورة «طس». فزوجتي تُدعى الطاهرة وابنتي سلمى، وأنا الطوسي، جامع لِسِرِّ الطاء والسين.

كانت بغدادُ مدينةً عظيمة فيها من كلّ المِلَلِ والنِّحَل، وهي بَيْتُ الخلافة، وخليفةُ الوقت كان المقتدي بأمر الله. اشتَرَيْتُ دارًا في المدينة من المال الذي خَصَّني به نظام الملك، وممّا كنتُ قد وفَّرْتُه سابقًا من أُعْطِياتٍ كان يخُصُّني بها أُستاذي الجُوَيني. وبعد أن أَقمتُ عُشَّ أُسرتي في هذه المدينة، قَدِمْتُ إلى المدرسة النظاميّة

مع زميلي إسماعيل الحاكمي. استقبَلَني الأساتذة بالترْحاب لَمَّا نُمِيَ إليهم خبري. وقد كان قُدومي للمدرسة كارثةً على بعض مَنْ سبقني، فقد عُزِلَ الحسين بن علي الطبري، وكان إمامًا كبيرًا صَحِبَ الشيخَ أبا إسحاق الشيرازي وصار من عظماء أصحابه. كما عُزِل أبو محمّد الفامي. وكان يتناوبان على التدريس، يوم لهذا ويومٌ لذاك. فلمّا عُيِّنْتُ مع الحاكمي صُرِفَا عن النظاميّة. ومِنْ أَغْرَبِ ما أخبرني به الأساتذة أنّ الحسين بن عليّ الطبري كان يعتبر إدخال الصغار والمجانين والنجاسات للمسجد والتغوُّطَ في الطريق وكشفَ العورة في الحمّام من الصغائر. فلمّا عُزِلَ كانوا يتندَّرون عليه بذلك، وكان الخليفةُ المقتدي بالله قد منع الناس مِنْ دخول الحمّام من دون مِئْزَرٍ. فكان رأيُ الطبري في النازلة من أسباب عزله. ومن أطرف ما حصل لي بعد أوّل يوم من وصولي للمدرسة أنّ الفقهاءَ والأساتذةَ طلبوا منّي أن أصنعَ لهم وليمةً بهذه المناسبة، إذ كانت العادةُ قد استحكَمَتْ بينهم على أنَّ مَنْ يلتحقُ بهيئة التدريس يُكرِمُ زملاءَهُ الأساتذة، ويُقِيمُ لهم حفلةَ سماع. ومن لباقتهم أنّهم تركوا التقديرَ لي، واستأثروا بالتعيين، أي أَنْ أُقدِّرَ الوليمةَ وهم يُعَيِّنُونَ وقتَها، لكنّهم حدَّدوها في اليوم نفسه. تعجَّبتُ من هذه العَجَلَةِ وكنتُ قد صَرَفْتُ ما كان معي من مَوفوراتٍ للاستقرار في المدينة وشراء ما يخصُّ أهلَ بيتي. لكنّي لم أَعْدَمْ حيلة للتخَلُّصِ من هؤلاء الطفيليّين فقلت لهم: التقدير (وقد تركوه لي) أَنْ أُطعِمَكُم خبزًا وخَلًّا وبَقْلاً، وهو ما يمكنني في الحال.

لكنّهم رفضوا وطلبوا أن يكونَ لهم التقدير وأن يتركوا لي التعيين فَرَضِيتُ، لكنّهم أضافوا أن يكونَ في الوليمة كذا من الدجاج وكذا من الحُلْوِ. فرضيتُ بحُكمِهم، لكنّني حدَّدتُ لهم التعيين بعد سنتين. أُسقِطَ في يدهم وعجزوا عن المناظرة معي وتركوا الأَمْرَ أخيرًا إليّ.

كانت بغداد مدينة عظيمة، فتعلَّمتُ فيها الكثير وصَرَفْتُ جُهدي للمُطالَعَة والتأليف والتدريس. وكان إسماعيل الحاكمي يُشارِكني في الدرس، وهو يَكبُرُني سِنًّا، فكنت أُقَدِّمُهُ عليّ، بل وأُكْرِمُهُ وأَخْدُمُهُ في بعض الأحيان رَغْبًا لسِنِّه وصداقته. طلع نجمي في سماء بغدادَ عاليًا وتسامع الناس بي من كلّ مكان، وجَمعتُ أموالاً كثيرة حتى كنتُ أَلْبَسُ ما يعادل ٥٠٠ دينار. وأصابني جاه عظيم ورَاشَ جناحي، فقد كنتُ لسانَ الدولة المنافحَ عن سياستها الفكريّة، فَأَصُدُّ خصومَها بقوّة الحجّة. وفي المناظرات التي كانت تجمعني مع الخصوم كنت مُعتدًّا بنفسي، مستخِفًّا بالناس، مستوحشًا عنهم، مُغترًّا بما رزقني المولى من البَسْطَةِ في النطق والنظر والخاطر والعبارة. وبَدأَتْ تَأْتِينِي الأسئِلةُ من مُخْتَلفِ الأمصار فأجيبُ عنها. وكنتُ مُعْتَدًّا بعلمي مفاخرًا به ومُطيحًا بكلّ المناظرين الذين يتصدَّوْنَ لي، فأقارعهم بالحجج الدامغة وأُلقي بهم في بحر النسيان. كما كنت نافرًا ممّا يزعُمُه أصحابُ الرقائق، مُنكِرًا لكثير من كراماتهم وأحوالهم. كنت لا أؤمن إلّا بقوّة العقل التي تميّز الفاسد من الصحيح، والحقّ من الباطل، والصواب من

الخطأ. أمّا تهويلات أرباب الأحوال فلم يكن لي فيها طَعْمٌ، بل كنت محترزًا منها لأنّ أصحابَ التعليم كانوا يتلمَّسون تلك المسالك نفسها لكسب الأتباع والأنصار. فلم يكن من سبيل لردِّهِمْ وصَدِّهِم إلّا بمقارعة الحِجَاجِ. ومع إنكاري لتهويلات أصحاب الأحوال، فقد كنتُ أجلسُ أحيانًا أستمعُ إلى مَجالس أبي الحسين أردشيرن بن منصور الواعظ العبَّادي. وقد كان مَرْوَزِيًّا من أهل مرو. وكان يجلس إليه العلماء والأئمّة ومشايخ الصوفيّة يستمعون إلى وعظه الذي يأخذ بالألباب. وكان الازدحام شديدًا على حلقته التي كانت تبلغ مائة وخمسة وسبعين ذراعًا طولاً، ومائة وعشرين ذراعًا عَرْضًا. وكانت النساء تؤُمُّ مجالسَه بكثرة، وله كرامات ظاهرة وعبادات كثيرة. لم أكن متيقّنًا من صدق جلوسي إلى حلقة هذا الرجل الواعظ، فهل كان قصدي أن أَخْطُرَ كالطاووس بين الناس في ثيابي الرفيعة وأُسْأَلَ في جزئيّات العلوم وغوامض المسائل، مُعقِّبًا على بعض تلك المواعظ، ومُوجِّهًا إلى شُفُوفِ كلامي على كلام غيري؟ أم أنّني كنتُ فعلاً أنجذبُ لتلك المجالس لِسُنَّةٍ فَرَطَتْ لي في سَالِفِ فُتُوَّتِي مع شيخي الفَارَمْذي؟

لقد كان الخَطرُ الأَكبَرُ على الدولة السلجوقيّة العبّاسيّة هو أصحاب التعليميّة، فكان عَلَيَّ أن أُنافِحَ عن الدولة على المستوى العلمي. وقد اخْتَرْتُ أن أَتَبَحَّر في كلّ العلوم حتى أَفُوقَ أهلَها فيها. درستُ المنطقَ والفلسفةَ حتى علِمْتُهُمَا أكثرَ مِنْ أهلِهما. ثم دَرَسْتُ تعاليمَ الإسماعيليّة ومذاهبَهم حتى رتَّبْتُها أحسنَ من ترتيبهم

لها. ثم درستُ الفقه ولُقِّبْتُ بالشافعي الثاني. ودرستُ الكلام الأشعري وفَطِنْتُ إلى ما فيه من تَناقُضٍ في المقدّمات العقليّة، وظهر لي أنّ الإصلاح ينبغي أن يبدأ بإدخال المنطق لتصحيح تلك المقدّمات. ودَرَسْتُ التصوّفَ في كتب المحاسبي والقشيري. توضَّحَ في ذهني المنهَجُ العامّ الذي يجب أن أَتَّبِعَهُ للردِّ على العِرفان الإسماعيلي الذي كان يَحْمِلُ مَشروعًا سياسيًّا لبناء دولة مُناقِضة لدولة السلاجقة والعبّاسيّين. لقد كان هذا المشروع على عَكْسِ المذاهب الأُخرى التي كانت تَدورُ في فَلَكِ الفكر والمعرفة. لقد كنتُ أُعِيدُ بناءَ الفِكْر والمعرفة لدى المسلمين من جديد ضِمْنَ مَشروع يُحْيِيهَا من جديد وَفْقَ صورة متجَدِّدَةٍ.

طاسين الخوف

وفي عاشر رمضان من خريف سنة ٤٨٥، وقعتِ الكارثة التي ما كنتُ أَتَصَوَّرُهَا، فقد اغتال الفِدَاوِيّةُ أتباعُ الحسن بن الصبّاح، الوزير نظامَ الملك الذي كان يحميني ويرعاني ويخصُّني ببالغ الإكرام. ذُهِلْتُ عمّا أصابَ بَيْضَةَ الإسلام بِفَقْدِ هذا الوزير. رجعتُ إلى بيتي فأخبرتُ حوَّاءَ الطاهرة بالأمر، وجَلَسْتُ على الأرض مَهْمُومًا، وقلتُ لها: لقد فَعَلَهَا المجرم، وأتمنّى ألّا يكونَ عَلِيّ هو الذي اغتالَه. وبعد أَيَّامٍ جاءتني تَفاصِيلُ الخبر، حيثُ صلَّى رحمه الله صلاةَ المغرب وجلس على السمَاطِ، وعنده خلق كثير من الفقهاء والقُرَّاء والصوفيّة وأصحاب الحوائج، فجعل يَذْكُرُ شَرَفَ المكان الذي نزلوه من أرض نهاوند وأخبارَ الوَقْعَةِ التي كانت بين الفرس والمسلمين. وذكر لهم كيف كان الخليفةُ عمرُ بن الخطّاب يقولُ وقتَها: «طوبى لمن لَحِقَ بهم». فلمّا فَرَغَ، رحمة الله عليه، من إِفْطارِهِ، خرج قاصدًا مضْربَ حَرَمِهِ فَبَدَرَ إليه فَتًى دَيْلَمِيٌّ كأنّه

يَسْتَميحُهُ في حاجة أو يَسْتَغِيثُه، فَعَلِقَ به وضَرَبَهُ بخنجر وقال: الله أكبر، خُذْ هذه من الحسن بن الصبّاح.

حُمِلَ الوزيرُ إلى مضْربِهِ، وجاء السلطانُ مَلِك شاه حزينًا مُنتحِبًا وجلس ساعة عنده وهو يَجُودُ بِنَفْسِهِ حتى مات. ثم إنّ قاتِلَه تَعَثَّرَ في فِرَارِهِ بِأَطْنَابِ الخيمة فَوَقَعَ على الأرض فلَحِقَ به مماليكُ نظام الملك وقتلوه. وكان آخِر ما قاله الوزير رحمه الله: لا تقتلوا قاتلي، فإنّي قد عَفَوْتُ عنه. ثم تَشَهَّدَ ومات. وحُمِلَ إلى أصفهان فَدُفِنَ بها.

بقيتُ ملازمًا لبيتي أيّامًا حتى قَلِقَ عَلَيَّ الطلبةُ والأساتذة، ثم عُدتُ إلى التدريس بَعْدَ أن قرَّرتُ عَدَمَ المُجَاهَرَةِ بالعَداء أمام الناس كما سَلَفَ منّي، حتى لا يَغتالني أحدُ فِتيانِ شَيْخِ الجَبَل، الحسن بن الصبّاح، الذين كانوا مُنْدَسِّينَ في كلّ المجالس. وممّا زاد الأمر سوءًا أنّه بَعْدَ شَهْرٍ مِن اغْتِيَالِ الوزير، ماتَ السلطانُ ملك شاه مِيتَةً غريبة، فقد قِيلَ إنّه حُمَّ بعد أَكْلِهِ لحمَ صَيْدٍ فمات. لكنَّ الشكوكَ تَحومُ حولَ الإسماعيليّة. وقد تخوَّفَ المعارضون لهذه الطائفة بعد مثل هذه العمليّات التي كانت نَذِير شُؤْمٍ لكلّ من سَوَّلَتْ له نَفْسُهُ مجاهَرَتَهُم بالعَداء، فَلزِمَ العلماءُ الحذرَ حتى لا تمتَدَّ إليهم الأيادي القاتلة. وخلال تلك المدّة جاءَتْني رسالةٌ مِنْ عليّ يُحَذِّرُنِي فيها من مَغبَّة الاستمرار في مُهاجمة الإسماعيليّة، ويَنْصَحُني بالإقلاع عن ذلك، ثم ذَكَّرَنِي بأنَّ شَافِعِي لِحَدِّ الآنَ هو زوجتي الطاهرة التي

كانت تحت كَنَفِي، ولولا رَعْيُهُمْ لِمَا لها من الحُرْمَة الواجِبَة لآل البَيْتِ لَكُنْتُ لَحِقْتُ بالوزير والسلطان.

لمّا وصلَتْنِي تلك الرسالةُ المحذِّرَةُ ارتَعَبْتُ وكلَّمْتُ زوجتي في الأمر، فطلَبَتْ منّي أن أَصْرِفَ همِّي لتدريس العِلْم بَدَلَ الهُجوم على عقائد الإسماعيليّة وأصحاب التعليم. ثم إنّها وَجَّهتْ خطابًا من دون علمي إلى أهلها لكي يُكاتِبوا الحسنَ بن الصبّاح حتى لا يتعرَّض لي بالقتل. وقد عَلِمْتُ ذلك بعد مدّة من قيامها بهذا الأمر.

كما أنّ هجمات قُطّاع الطرُق والأعراب اسْتَشْرَتْ بعد موت السلطان، فتعرَّضوا للحُجّاج الذين خرجوا من بغداد، وفَتَكُوا بهم وقتلوا مَنْ كان يُرافقهم مِنَ الجند، بل ودخلوا الكوفة. وقد حدثَتْ قلاقلُ كثيرة بعد موت السلطان، حتى خَلُصَ الأمر لِوَلَدِ ملك شاه، السلطان بَرْكِيارُق وخُطِبَ له في المنابر ولُقِّبَ بركن الدين.

وفي اليوم الذي عُرِض مَرسومُ التقليد على الخليفة المقتدي بأمر الله ليُعَلِّمَ عليه بإمضاءه وختمه، حصل أَمْرٌ مُرِيب. فبعد أن قرأ الخليفة المرسومَ وتَدبَّر فيه وعَلَّمَ عليه، قُدِّمَ له طعام فأكل منه وتُوفّي فجأة وبُويعَ لِوَلِيِّ عهده، المستظهر بالله، وهو الذي صَلَّى على والده. فلمّا كان اليوم الثالث من موته، حضرتُ البيعة، وحضر الوزير عزّ الملك ابن نظام الملك، وأخوه بهاء الملك، أمّا أخوهما الثالث فخر الملك فكان بخراسان، وأخوهم الآخر مؤيّد الملك كان غائبًا وحضر أيضًا أمراء السلطان، وجميع أصحاب المناصب، والنقيبان طِراد الزينبي العبّاسي، والمعمّر العلوي

ورجالهما، وقاضي القضاة. كما حضر أبو بكر الشاشي، شيخ الشافعيّة ومجموعة من العلماء، وبايعوا الخليفة الجديد، المستظهر بالله.

عُدتُ إلى التدريس والردِّ على أسئلة المستفتين، فأفتيتُ في مسألة لَعْنِ يزيد بن معاوية، بسبب قَتْلِ سيّدِنا الحسين رضي الله عنه، وشدَّدتُ على حرْمَةِ لَعْنِ المسلم، خاصّة وأنْ لا يقين لنا ولا تحقُّقَ من أنَّ يزيد أَمَرَ بقتل الحسين، وحتى على افتراض ذلك، فَقَتْلُ المسلم معصيةٌ لا تُوجِبُ اللعْنَ. وعليه فلا يَجوزُ لَعْنُ يزيدَ مطلقًا.

ومن أهمّ الكتب التي ألَّفْتُها خلال هذه الفترة، كتاب «مقاصد الفلاسفة»، وأتبعتُه بكتاب «تهافت الفلاسفة»، رددتُ عليهم في عشرين مسألة، وكفَّرْتُهُم في ثلاث منها، حول أزليّةِ العالم، ونفيِهم عِلْمَ الله بالجزئيّات، وإنكارِهم بَعْثَ الأجساد. وأمّا ما دون ذلك من القضايا المنطقيّة والرياضيّة وغيرها، فليس بمنكور عليهم ولا على الفلسفة عمومًا، وإنّما الإنكار على تهافت الفلاسفة في الإلٰهيّات فقط.

ثم حدثَتْ أمور مزعجة في هذه السنوات، حيث تُوفّي المستنصر، خليفة الفاطميّين، وكان قد بقي في خلافته ستّين سنة. وبعد وفاته انقسم الإسماعيليّة فريقين، حيث إنّه كان قد أوصى لولده الأكبر نزار من بعده، لكنّ الأفضل بن بدر الدين الجمالي، صاحب الجيش بمصر كان على خلاف مع نزار، فخالف الوصيّة.

وكان هو الحاكمَ في دولة المستنصر، والمرجوعَ إليه بعد وفاة والده بدر الدين. فنصَّبَ ابن أخته أبا القاسم أحمد المستعلي بالله، وهو الابن الثاني للمستنصر، خليفة من بعده على مصر والشام. لكنّ نزارًا هرب وانقسم الفاطميّون إلى مستعلية في مصر والشام، ونزاريّة في العراق وخراسان والديلم. وإنّني أذكر أنّ صديقي عليًّا أخبرني، لمّا رأيت الحسن بن الصبّاح لأوّل مرّة في جرجان، أنّه عاد من زيارة للمستنصر في مصر. وكان قد أخبرني أيضًا أنّه دخل على خليفتهم في زيٍّ تاجر وخاطبه في إقامة الدعوة في بلاد العجم، وسأله عن الإمام بعد المستنصر، فأعلمه أنّه نزار. ومن وقتها جَهِدَ في خدمة المستنصر وابنه نزار من بعده. فلمّا حدث انقلاب الأفضل الجمالي، اسْتَقَلَّ الحسن بن الصبّاح بالأمر ودعا لإمامة نزار. ثم لمّا قَتَلَ المستعلي أخاه نزارًا، ادَّعَى الحسن بن الصبّاح أنّ الإمامةَ انتقلَتْ إلى حفيدٍ لنزار أُحْضِر سِرًّا إلى ألموت، وأنّه طفل جرى تهريبه من مصر إلى فارس، وبقي أَمْرُ هذا الإمام طَيَّ الكِتمان. *مكتبة الرمحي أحمد*

في ظلّ هذه الأجواء انصرفتُ إلى التأليف والكتابة والدرْسِ فكتبتُ عدَّةَ كُتبٍ في علم المناظرة لنُدْرَتِهَا، وشيوعِ كُتبِ الفقه بالخصوص. ومن بين الكتب التي ألَّفتُها في هذا الفَنِّ، «مآخذ الخلاف» و«لباب النظر» و«تحصين المآخذ» وكتاب «المبادئ والغايات»، كما كتبت كتبًا أخرى.

ولـمّا استوثق الأمر للخليفة، ألحّ عليَّ في الردِّ على

الإسماعيليّة وتسفيه آرائهم ودَحْضِها بالحجّة والبرهان في دروسي التي كنتُ أُعطيها في المدرسة النظاميّة. ثم طلب منّي بعد ذلك تأليفَ كتاب للردّ على الباطنيّة التي سَنَّتِ القتلَ والاغتيالَ شريعةً لها. كنت دائمًا أُسَوِّفُ الأمر وأتعلَّلُ بانعدام الكتب التي تُوضِّحُ مذهبَهم حتى يستقيم رَدِّي عليها. لكنَّ أوامر الخليفة زادت إمعانًا، وجاءني الرسُلُ مِنْ عنده يُلِحُّون عليّ ويهدِّدونَني إن تخلَّفتُ عن هذه المهمّة التي لا يُمكِنُ أن يقومَ بها إلّا الإمام أبو حامد. وكان الخليفةُ قد منحني لقبَ الإمام، وحجّةَ الإسلام، في مقابل حُجَّةِ الإسماعيليّة.

وبجانب إلحاحِ الخليفة دسَّ الباطنيّةُ طلبَتَهُم بين طلبتي، فكانوا يتركون لي رسائل تهديد. كنت بين فَكَّيْ عِفْريتٍ لا أدري ما أصنع. ورغم اقتناعي بوجاهة مَطلب الخليفة وضرورة الردِّ على الباطنيّة، إلّا أنّ المهمّةَ كانت تعني تَعريضَ نفسي للقتل. ومع ذلك فقد أجبتُ إلى بعض ذلك، فكتبتُ كتاب «حجّة الحقّ» في بيان فساد مذهب الباطنيّة، وهو «جواب كلام لهم عُرِضَ عليَّ في بغداد». ثم لمّا زاد إلحاحُ الخليفة بتخصيص كتاب جامع للردّ عليهم، تحيَّرْتُ في الأمر وأسلمتُ أمري إلى الله.

ورغم التهديدات التي كانت تصلني من الباطنيّة، إلّا أنّني لم أَكنْ أَملِكُ أن أمتنعَ عن أمر الخليفة، فكتبتُ أخيرًا كتاب **المستظهري** في الردّ على الباطنيّة. لكنّي كنت أتحايل في تلطيف الأمر بالتعميم وعدم التعيين، وأَذْكُرُ الفِرَقَ الضالّة، وأَحُضُّ على

وحدة المسلمين وأعِظُ الناس. وحدث أن كان أخي أحمد ينصحني بالرجوع إلى طريق الآخرة وترك الجاه والوجاهة، ويُذكِّرني بحال وَالِدِنا، فَرَقَّ قلبي لما كان يقول، لكنّ ارتباطي بالدولة لم يكن يتركني أتنازل عمّا كنت عليه فلم أسمع لقوله. وكان يُحذِّرني كثيرًا من مَغَبَّةِ الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة. فلمّا أعياه الوعظ دخل عليّ مرّة في حلقة الدرس وأنشدني أمام الحاضرين قائلاً:

أَخَذْتَ بأعضادِهِمْ إِذْ وَنَوْا وخلَّفَكَ الجَهْدُ إذ أَسْرَعُوا
وأَصبَحْتَ تَهْدِي ولا تَهْتَدِي وتُسْمِعُ وعظًا ولا تَسْمَعُ
فيا حَجَرَ الشَّحْذِ حَتى متى تَسُنُّ الحديدَ ولا تَقْطَعُ؟

اهتزَّ كِياني كُلُّهُ لمّا سمِعتُ هذه الأبيات العجيبة، وتأثَّرتُ بذلك غاية التأثّر، وزُلزلتُ زلزالاً شديدًا حتى كاد يُغمى عَلَيّ، فخرجتُ من حَلْقَة الدرس لا أَلْوي على شيء. وكان قد صَحَّ عندي سُلُوكُ طريقِ الزهد كما كان عليه حالُ أخي أحمد، ممّا كنتُ قد قَرأتُهُ في كتب القَوم. فقد كان مؤمنًا حقًّا لا ينتابه ما ينتابني من مَخُوفَاتِ الدنيا والحِرص على زخارفها.

وكانت زوجتي في هذه الأيّام حاملاً، ولم تكن تحتمِلُ ما كنتُ أَمُرُّ به من أَزماتٍ وما ألقاهُ من تهديدات، فَأَكْسَبَها ذلك حزنًا حتى خِفْتُ عليها من الهلاك. فلمّا جاء إبَّانُ وَضعِها لَقِيَتْ عَنَتًا شديدًا فتعاهَدَها الأطبَّاء بالدَّواء وسَهِروا على راحتها، وجَهِدَتِ القابلاتُ في تَيسيرِ وضعِها. وكنتُ أُكْثِرُ من الحمد والشُّكْرِ أثناءَ

حملِها اشْتَكَتْ إليَّ حوّاءُ من عُسْرِ الطلْقِ، ولمّا أعيتني الحيلةُ ولم ينفعْ دواءُ الأطبّاء، تذكَّرتُ ما كنتُ رأيتُه من الخواصّ العجيبة للمثلّث في كتاب جدّها الإمام جعفر الصادق الذي استطعتُ الوصولَ إليه بِفَكِّ إعجامه وفتح مغاليقه. دخلتُ مكتبتي وفتحتُ الكتاب مرّة أخرى عند صفحات المثلّث فوجدتُه يذكر أنَّ مِنْ خواص هذا المثلّث تسهيل وضع الحامل التي عَسُرَ عليها الطلق. استبشرتُ خيرًا وعَمِلتُ المطلوبَ حيث كتبتُ الجدولَ على خِرقتين جديدتين لم يُصِبْهُما ماء من قبل، في الأولى وضعتُ الحروف، وفي الثانية كتبتُ الأعدادَ المقابلة لها فلمّا أتممتُ ذلك رجعتُ إلى حوّاءَ، وطلبتُ منها أن تنظرَ في الجدولين فَفَعَلَتْ. ثم طلبتُ منها أن تضَعَهُمَا تحت قدميها، فامتثَلَتْ راجيةً الخلاص بسرعة.

وبعد حين أخذها الطلق من جديد وسال ماؤها، فناديتُ بسرعة على القابلة. ولم تمض لحظات على وصولها حتى هَلَّ صارخًا وَضَعَتْ حوّاءُ ولدًا، فَرِحْتُ به فرحًا شديدًا إذ كان أوّلَ ولدٍ ذكرٍ أُرْزَقُهُ، فسمَّيتُهُ حامدًا تَيمُّنًا بألوية الحمد والمقام المحمود، وما جرى على لساني تلك الأيّام من الحمد. وكانت فرحتي مضاعفةً إذ أصبحَ الناسُ يدعونني الإمامَ أبا حامد، وكان هذا من أَحَبِّ الكُنَى إليَّ وأسناها لكنّ القَدَرَ اختطفَ منّي ولدي بعد سابِعِه بقليل. حزنتُ لهذا الأمر كثيرًا، وبقيتُ مُتَفَكِّرًا في حالي ومآلي، واستَمَرَّ الأمرُ سوءًا حتى أورثَتْنِي هذه الحالةُ خوفًا وسُقمًا ومرضًا ونحولاً، فامتنعتُ عن الطعام والشراب، واكتفيتُ بالنزْرِ اليَسير الذي يُبقي حُشاشَةَ الروح لكنّه لا يَكفي الجسدَ للقيام والسَّعي.

و«لاحظتُ أحوالي، فإذا أنا مُنغَمِسٌ في العَلائِق، ولاحظتُ أعمالي وأحسنُها التدريسُ والتعليم، فإذا أنا فيها مُقبِلٌ على علومٍ غيرِ مُهِمَّةٍ ولا نافعةٍ في طريق الآخرة.

ثم تَفَكَّرْتُ في نِيَّتي في التدريس فإذا هي غيرُ خالصةٍ لوجه الله تعالى، بل باعِثُهَا ومُحَرِّكُهَا طَلَبُ الجاه وانتشارُ الصيتِ، فَتَيَقَّنْتُ أَنّي على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، وأنّي قد أَشْفَيْتُ على النار، إنْ لم أَشْتَغِلْ بتلافي الأحوال. فلم أَزَلْ أَتَفَكَّرُ فيه مدّة، وأنا بَعْدُ على مَقام الاختيار، أُصَمِّمُ العزمَ على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يومًا، وأَحُلُّ العزمَ يومًا، وأُقَدِّمُ فيه رجلاً وأُؤَخِّرُ عنه أخرى. لا تَصْدُقُ لي رغبة في طلب الآخرة بُكْرَةً، إلّا ويَحْمِلُ عليه جُنْدُ الشهوة حَمْلَةً فَيُفَتِّرُهَا عَشِيَّةً. فصارت شهوات الدنيا تُجاذِبني بسلاسلها إلى المُقام، ومُنادي الإيمان ينادي: الرحيلَ، الرحيلَ، فلم يبق من العُمْرِ إلّا قليل، وبين يديك السفرُ الطويل، وجميعُ ما أنتَ فيه من العلم والعمل رياءٌ وتخييل، فإن لم تَسْتَعِدَّ الآنَ للآخرة فمتى تستعدّ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائقَ فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعثُ الداعية، وينجَزِمُ العزمُ على الهرب والفرار. ثم يعودُ الشيطان ويقولُ: هذه حالةٌ عارِضةٌ، إيّاكَ أن تُطاوِعَها، فإنّها سريعةُ الزوال، فإن أَذْعَنْتَ لها وتَرَكْتَ هذا الجاهَ العَريضَ، والشأنَ المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المُسَلَّمَ الصافي عن مُنازعة الخُصوم، ربّما الْتَفَتَتْ إليه نَفْسُك، ولا يَتيسَّرُ لك المعاودة.

فلم أَزَلْ أَتردَّدُ بين تجاذُبِ شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة،

قريبًا من ستّة أشهر. حتى جاوز الأمرُ حَدَّ الاختيار إلى الاضطرار».

واختبرني الحقّ تعالى فتفاقم عليّ الأمر وركبني خوف شديد واعتُقِلَ لساني عن الكلام، فلم أَعُدْ أستطيع التحدُّثَ. وقد كان بعض طلبتي يتحاملونني من بيتي إلى المدرسة تطييبًا لخواطرهم، وحالما أجلسُ للدرس ينقطع لساني، فلا أَنْبِسُ بكلمة، فتعجَّبَ الناسُ من أمري، وحَسِبوها عَيْنًا أصابتِ الإسلام في مَقْتَلٍ. دام الأمر أيّامًا فَلَزِمْتُ بيتي، وحَزِنَ الطلبةُ والناسُ عَلَيّ. وأَرْسَلَ الخليفةُ أطبّاءَهُ لمعالجتي فلم ينفعْ فيّ الدواءُ، وذكروا في تشخيصِهم لحالي بأنّ هذا الفُتورَ نَابِعٌ من القلب ومنه سرى إلى المزاج وليس له علاج ولا سبب ظاهر. بدأتْ أَزْمَتِي في رجب ٤٨٨، فقرّرتُ الانقطاعَ عن التدريس في ذي القعدة من العام نفسه.

«ثم لمّا أَحسستُ بعجزي، وَسَقَطَ بالكلّيّة اختياري، الْتَجَأْتُ إلى الله تعالى التجاءَ المُضْطَرِّ الذي لا حيلةَ له، فأجابني الذي يُجيبُ المضطرَّ إذا دَعاهُ، وسهَّلَ على قلبي الإعراضَ عن الجاهِ والمال والأَهْلِ والولد والأصحاب»، ثم جرى لساني بالمنفرجة:

الشِّدَّةُ أَوْدَتْ بِالمُهَجِ يَا رَبِّ فَعَجِّلْ بِالفَرَجِ
والأَنْفُسُ أَضْحَتْ فِي حَرَجٍ وَبِيدِكَ تَفْرِيجُ الحَرَجِ
هَاجَتْ لِدُعَاكَ خَوَاطِرُنَا وَالوَيْلُ لَهَا إِنْ لَمْ تَهِجِ
يَا مَنْ عَوَّدْتَ اللُّطْفَ أَعِدْ عَادَاتِكَ بِاللُّطْفِ البَهِجِ

وَاغْلِقْ ذَا الضيقَ وَشِدَّتَهُ وَافْتَحْ مَا سُدَّ مِنَ الفُرَجِ
عُجْنَا لِجَنَابِكَ نَقْصِدُهُ وَالأَنْفُسُ فِي أَوْجِ الوَهَجِ
وَإِلَى أَفْضَالِكَ يَا أَمَلِي يَا ضَيْعَتَنَا إِنْ لَمْ نَعُجِ
مَنْ لِلْمَلْهُوفِ سِوَاكَ يُغِثْ؟ أَوْ لِلْمُضْطَرِّ سِوَاكَ نَجِي؟

وانفتح لي نور من السماء وخرجتُ عن جاهي ووجاهتي وزَهِدْتُ في كلّ شيء. وساق لي الحقُّ سبحانه وتعالى مَنْ أعانني على أمري، حيث نصحني أخي أحمد بملازمة الشيخ يوسف النسّاج الذي كان يَحْتَرِفُ نَسْجَ الأثواب. فلمّا التقيتُه قال لي: أَمَا آنَ لكَ يا أبا حامد أن تَلْبَسَ غزلاً رقيقًا؟ فقلت: أما ترى ما عليّ من هذه الأثواب التي لو أَمْعَنْتَ فيها النظر لرأيتَ أنّها من أَرَقِّ ما غُزِلَ وأَثمنِ ما بِيعَ. ضحك الشيخُ من جوابي، وأَدركتُ وقتَها أنّي لم أَفْطنْ لمقصودِه. فقد كان يتكلَّمُ في وَادٍ، وهِمْتُ بجوابي في وَادٍ آخر، فقال لي: يا أبا حامد، المقصودُ أن تَغْزِلَ غَزْلَكَ بنفسِكَ لا أن تَلْبَسَ غَزْلَ غيرك. فوالله، ما هذه ثيابُك. فقلتُ وقد عَقَلْتُ المقصود: لعلّ الله يُقيِّضُ لي من يُعينني على ذلك. فقال: يا أبا حامد الْزَمْ طريقَ أَهْلِ الآخرة تَرَ العجائب.

طاسين الرؤية

كنتُ أرغبُ في تصديق الشيخ، لكنَّ قُوَّةً فقهيّة كانت تمنعني من إدراك فحوى ما كان يرمي إليه، حتى كان ذلك اليومُ الموعودُ، فرأيتُ في المنام رُؤْيَا قَلَبَتْ مَعدني الخَسيس إلى الذهب النفيس. لم أَكَدْ أُصَدّقُ هذا الأمر حتى رأيتُ الحقّ تعالى في المنام فقال لي: يا أبا حامد، دَعْ شواغِلَكَ واصحبْ أقوامًا جَعَلْتُهُمْ في أرضي مَحَلَّ نظري، وهم الذين باعوا الدارين بحبّي. قلت: بعزّتك إلّا أَذَقْتَنِي حُسْنَ الظنّ بهم، قال: قد فعلتُ، والقاطعُ بينَك وبينهم تشاغُلُكَ بِحُبِّ الدنيا، فَاخْرُجْ منها مختارًا قبل أن تَخْرُجَ منها صاغِرًا، فقد أَفَضْتُ عليكَ أنوارًا مِنْ جِوَارِ قُدسي. فاستيقظتُ فَرِحًا مسرورًا، وجئتُ إلى شيخي يُوسُفَ النسَّاجَ فقصصتُ عليه المنام فتبسَّمَ وقال: يا أبا حامد، هذه ألواحُنا في البداية، بل إن صَحِبْتَنِي سَتُكَحِّلُ بَصِيرَتَكَ بِإِثْمِدِ التأْيِيدِ.

وطَّنْتُ نفسي على ملازمته، وطَرْحِ النفس في مزبلة

الخمول، وتخريب الظاهر كما كنتُ أقرأ في كتب الصوفيّة عند أبي طالب المكّي في قوت القلوب، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرّقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي. وبعد أن كنتُ ألبس ما يربو على خمس مائة دينار من رقيق النسيج، طرحتُ ما عليّ، واتّخذت لباس أهل الإرادة المتواضع. وزاد حُسْنُ ظنّي بأهل الله، بعد أن كنتُ أُنْكِرُ أحوالَهُم وكراماتِهِم، كما يقع لعامَّة الفقهاء وأهلِ الرسُّوم الذين لا ذوقَ لهم في مراتبِ أهل العرفان، فحمِدتُ الله أنَّ ما كان لي إنكارًا انقلبَ اعتقادًا وصار ذوقًا أَجِدُهُ في نفسي.

ثم إنّه لم يكن لي خِيارٌ غيرُ هذا. فالتدريس في النظاميّة محفوفٌ بالمخاطر التي لا قِبَلَ لي برَدِّها ودَفْعِهَا وكنتُ أرى من حال أخي أحمدَ سعادةً أَغْبِطُهُ عليها فلمّا جَدَّ جِدِّي طلبتُ منه أن يَخْلُفَنِي في النظاميّة ريثَما يَستقِرُّ حالي. والحقيقة أنّي كنتُ قد عَزَمْتُ على ترك التدريس بها نهائيًّا. لم يكن أحمد من أهل الظهور لكنّه كان واعظًا مُتمَكِّنًا، فأقبلَ على هذه المُهِمَّة، وأَلْهَبَ قلوبَ الناس في بغداد بِطِيبِ كلامِهِ ونُفُوذِ حُجَّتِهِ وبَيَانِ فَصَاحَتِهِ. وقد كان يَعلَمُ، بِصَفَاءِ سَرِيرَتِهِ مع الله، أنّي مغادِرٌ بلا عودة عن التدريس في النظاميّة، فَآثَرَ أَنْ يحمِلَ عنّي، كما يفعلُ أهل الله بالتفَتِّي عادةً على الإخوان والضعفاء مِنْ أمثالي. وذكرتُ له أَنِّي طائرٌ في أرض الله، فَاخْلُفْنِي طائرًا في الله، عسى أن يَهَبَنَا اللهُ منطقَ الطيْرِ، فيصفو الوُدُّ، وتكتمل الهداية، وينفحنا بنفحات أهل الأرواح، فيكتب أحدُنا في منطق الطير. ثم أنشدته من قصيدة للإمام الشافعي، فتح

الله عليّ باستحضارها، بعد أن غلب عليّ الاعتبار، واستولى عليّ الاختبار:

دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَلْ مَا تَشَاءُ ... وَطِبْ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ
وَلاَ تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ اللَّيالِي ... فَمَا لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ
وَكُنْ رَجُلاً عَلَى الأَهْوَالِ جَلْدًا ... وَشِيمَتُكَ السَّمَاحَةُ وَالوَفَاءُ
وَإِنْ كَثُرَتْ عُيُوبُكَ فِي البَرَايَا ... وَسَرَّكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا غِطَاءُ
تَسَتَّرْ بِالسَّخَاءِ فَكُلُّ عَيْبٍ ... يُغَطِّيهِ كَمَا قِيلَ السَّخَاءُ
وَلاَ تُرِ لِلْأَعَادِي قَطُّ ذُلًّا ... فَإِنَّ شَمَاتَةَ الأَعْدَا بَلاَءُ
وَلاَ تَرْجُ السَّمَاحَةَ مِنْ بَخِيلٍ ... فَمَا فِي النَّارِ لِلظَّمْآنِ مَاءُ
وَرِزْقُكَ لَيْس يُنْقِصُهُ التأَنِّي ... وَلَيْس يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ العَنَاءُ
وَلاَ حُزْنٌ يَدُومُ وَلاَ سُرُورٌ ... وَلاَ بُؤْسٌ عَلَيْكَ وَلاَ رَخَاءُ
إِذَا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قَنُوعٍ ... فَأَنْتَ وَمَالِكُ الدنْيَا سَوَاءُ
وَمَنْ نَزَلَتْ بِسَاحَتِهِ المَنَايَا ... فَلاَ أَرْضٌ تَقِيهِ وَلاَ سَمَاءُ
وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ وَلَكِنْ ... إِذَا نَزَلَ القَضَا ضَاقَ الفَضَاءُ
دَعِ الأَيَّامَ تَغْدِرُ كُلَّ حِينٍ ... فَمَا يُغْنِي عَنِ المَوْتِ الدَّوَاءُ

طَرِب أحمد أيَّمَا طَرب لهذه القصيدة، حتى تواجد ودمَعَتْ عيناه بماء الصفاء والصدق والإخلاص، فعانقني وشَدَّ على عَضُدِي وقال لي: يا أخي، وبهجةَ نفسي، لقد كنتُ أسهر الليالي ذواتِ

العدد مُتَحَنِّثًا رَافِعًا أَكُفِّي للمولى أن ينفَعَك وينفعَ بك الأمّة. وها قد هداك الحقّ إلى طريق أهل الصدق والصلاح، ودلّك على التجريد والاعتبار. فطوبى لك. ولعلّ قصيدة الشافعي التي طَرَقْتَ بها بَابَ قلبي قبل مسامِعي تُشِيرُ إلى التجربة نفسها التي تعيشُها اليوم. فأنت الشافعي الثاني.

شكرت أخي وأخبرته بقصيدتي المنفرجة التي نظمتها لتفريج كربتي فرفع الله بها غُمَّتي. حمدتُ الله أن فَسَحَ لي هذه الفرصة لِتَعَلُّم علوم الآخرة والزهْدِ في الدنيا، فأقبلتُ على ذلك بنَهَم كبير ولَزِمْتُ الشيخَ أَنْهَلُ من علومه وسلوكه. وساعدني سانِحُ العناية الأزليّة لهذا الأمر، فَزَهِدْتُ في ما كان بيدي وتصدَّقْتُ بمالي ولم أترك إلّا ما يكفي لعِيالِ أطفالي. كما طَرَحْتُ الفُضُولَ مِنْ كُلِّ شيء، مثلما انْطَرَحَ مِنْ لساني كلُّ كَلام سوى كلام أهل الحقيقة. وبَدَأَتْ تَلُوحُ لي لَوَامِعُ من مَواطن السعادة، ولوائحُ بَرْقِيَّةٌ من نُجودِ الوِجَادة، وعَزَمْتُ على ترك بغدادَ حتى يصفو لي أمري، بعدما استَشَرْتُ شيخي في ذلك فأذن لي. «وأظهرتُ أمر الخروج إلى مكّة وأنا أُدَبِّرُ في نفسي سَفَرَ الشام حَذَارِ أن يَطَّلِعَ الخليفةُ وجُمْلَةُ الأصحاب على عزمي على المقام بالشام، فَتَلَطَّفْتُ بلطائف الحِيَلِ في الخروج من بغداد على عزم أن لا أُعاوِدَها أبدًا. واسْتَهْدَفْتُ لائِمَةَ أَهْلِ العراق كافَّةً، إذ لم يكن فيهم من يُجَوِّزُ أن يكونَ للإعراض عمّا كنتُ فيه سببًا دينيًّا، إذ ظنّوا أنّ ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم.

ثم ارتبكَ الناس في الاستنباطات، وظنَّ من بَعُدَ عن العراق أنّ ذلك كان لاستشعارٍ من جهة الوُلاة. وأمّا من قَرُبَ من الولاة فكان يُشاهِدُ إلحاحَهُم في التعلُّق بي والانكباب عليّ، وإعراضي عنهم، وعن الالتفات لقولهم، فيقولون: هذا أمر سماوي، ليس له سببٌ إلّا عَيْنٌ أصابتْ أهلَ الإسلام وزُمْرةَ أهلِ العلم».

وخلال تلك الأيّام جاءني أحد الطلبة من أهل المغرب، يُدعى أبا بكر بن العربي المعافري، مع والده الفقيه الرئيس أبي محمّد. وكانا قد هاجرا سنة ٤٨٥ بعد عام من استيلاء سلطان المغارب ناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين على مملكة إشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس. وطلب منّي الفقيه أبو محمّد بن العربي فتوى وكتابًا في مسألة وجوب قتال ثوّار الأندلس، ومشايعتهم للنصارى ضدّ الأمير، واعتلال فقهائهم بأنّ طاعته غير واجبة حتى يخطب للخليفة ويأتيه تقليد منه لما تحته من البلاد. فأجاب إلى ما طلبوا لكنّهم لم يستجيبوا له. وضرب السكّة باسم أمير المؤمنين، وسنَّ الدعاء له مِنْ على ما يزيد على ألفين وخمسمائة منبر من أوّل بلاد الإفرنج إلى أقصى بلاد السوس ممّا يلي بلاد غانة. والمسافة بين الحدّين المذكورين خمسة أشهر. فأجبت الفقيه بكتاب لأمير المسلمين **وناصر الدين** يوسف بن تاشفين الذي لبّى نداء المسلمين في الأندلس بالنصرة لما قال «أنا أوّل منتدب **لنصرة الدين** ولا يتولّى هذا الأمر أحد إلّا أنا بنفسي». وانتصر في معركة الزلّاقة وتسمّى بأمير المسلمين، وبايعه ملوك الأندلس وأمراؤها، وكانوا ثلاثة عشر ملكًا، لكنّهم غدروا به بعد

ذلك، فلم ير بدًّا من قتالهم وتوحيد تلك البلاد. وكنت أثناء استفتائي هذا مُظهرًا العجلة في الخروج إلى الحجاز، فكتبت له «وأعجلني المسير إلى سفر الحجاز، وتركته مشمّرًا عن ساق الجدّ في طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة، يتضمّن شكر صنيع الأمير ناصر الدين، في حمايته لثغور المسلمين، ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه، ليكون رؤساؤها ومرؤوسوها تحت طاعته».

فارقتُ بغداد بعد أن فرَّقتُ ما كان معي من المال على الفقراء وأصحاب الحاجات، ولم أَدَّخِرْ إلّا قَدْرَ الكَفاف وإعالة الأطفال. وما إن فارقتُ مدينة السلام حتى بَدَأْتُ أَتَعَافى، وأَسْرَعَتْ بي نُجُبُ الهداية نحو الشام، التي يجتبي إليها اللهُ خيرةَ عباده. كان أَشَدَّ ما يُرْهِبُني سَعْيُ الباطنيّة للبطش بي واغتيالي، فقد كنتُ أَغْتى أعدائِهم بتأليفي في الردِّ عليهم وتسفيه آرائهم. فلمّا كان يومُ الرحيلِ تَظاهَرْتُ بالتوَجُّه إلى الحجاز مع الركب المتوجّه إلى مكّة باتّجاه الجنوب، فلمّا أَمْعَنَّا في الطريق تخلَّفتُ بأهلي في إحدى المحطّات ثم يَمَّمْتُ باتّجاه الغرب صَوْبَ الشام مُتخفِّيًا في زيّ الفقراء حتى لا يَطْمَعَ فيَّ قُطّاعُ الطرق، ولا أُثير فضولَ مَنْ يَعْتَرِضُنَا. قطعنا باديةَ الشام على طول نهر الفرات، في منطقة تزخر بالأوابد الأثريّة التي تركَتْهَا الحضاراتُ القديمة حتى وصلنا إلى مدينة ديرِ الرمّان على الضفّة اليسرى للنهر، وبهذه المدينة الكثير من التُّرَعِ والجداول. ويشتغل أهلها بزراعة القمح والقطن والسمسم والخضار.

أمضينا بضعة أيّام للراحة في هذه المدينة الهادئة التي تعبق بأريج الحضارة، قبل أن ننفصل عن نهر الفرات، ونمعن السير في الصحراء، إلى أن وصلنا إلى مدينة تدمر الأثريّة التي بُنيت عند معبر جبلي اضطراري على سفح جبل المنطار من سلسلة الجبال التدمريّة، في حوض نبع غزير الماء أَوْجَدَ واحة خضراء أصبحتْ محطّةَ استراحةٍ بين العراق والشام. تنتشر معالم تدمر القديمة على مساحة كبيرة مثل الشارع المستقيم الذي تحيط به الأعمدة وقوس النصر، والمسرح والمدرج والساحة العامّة والقصور والمعابد، وأهمّها معبد بعل، والمدافن الملكيّة وتماثيل وآثار كثيرة. وقد كانت المدينة في وقت من الأوقات عاصمة لإحدى أهمّ ممالك الشرق القديمة تحكمها الملكة العربيّة زنّوبيا الشهيرة التي احتلّت مصر والأناضول، زوجة ملك الملوك أُذَيْنَة الذي أعاد لمملكة تدمر قُوَّتَها بعد أن رَدَّ قوّات خصومه الفرس إلى عاصمتهم المدائن. وقد دخل خالد بن الوليد المدينة سِلْمًا. وهذه المحطّة واحة جميلة تزخر بمختلف المزروعات وأشجار النخيل، وبها أنظمة للريّ تَدُلُّ على تدبير حَسَنٍ لأهلها. يَتَدَفَّقُ الماء من كهفٍ في جوف جبل المنطار، مياهُه معدنيّة كبريتيّة، حرارتها ثابتة. وقد دخلتُ أحدَ حمَّاماتها ونَعِمَتْ مفاصلي وعظامي بهذه المياه الكبريتيّة من وَعْثَاءِ السفر. وبهذه المدينة أجناس مختلفة وفِرَقٌ دينيّة متعدّدة حيث بها اليهود والنصارى وبعض عبدة الشمس والنار، فضلاً عن أغلبيّة سكّانها المسلمين بمختلف فِرقهم. بل لقد أخبرني بعض أهلها أنّ تمثالي اللات والعزّى ما زالا قائِمَيْن في أحد المعابد المنتشرة في

المدينة. وبها تماثيل أخرى، منها تمثال لباخوس إلٰه الخمر عند الرومان، وعشتار إلٰهة الخير، وبعل حامي المدينة إلٰه الشمس كما يزعمون. أهل المدينة يتكلّمون اللهجة التدمريّة التي هي اللغة الآراميّة التي كان يتكلّم بها السيّد المسيح عليه السلام.

قضينا أيّامًا قلائل في تدمر بعدما تعرَّفْتُ على تاريخها ومعالمها، ثم توجَّهنا جهة الغرب حتى وصلنا إلى دمشق. فلمّا وصلتها قصدت الجامع الأموي وجلست في زاوية الشيخ نصر المقدسي. وكنت أقصد الاجتماع به. فلمّا دخلت إلى الزاوية التي كان يجلس فيها جلست وأنا على هيئة الفقراء، فجاءني بعض الطلبة وشاكلوني في مجموعة من العلوم، فطربوا وتحلَّقوا حولي لِمَا طَرَقَ أسماعهم. ثم سألتهم عن الشيخ أبي نصر المقدسي، فاجتمعت به.

كنت مُتوجِّسًا من الباطنيّة بعدما اشتَهَرَ أَمْرُ الكتب التي أَلَّفْتُهَا في الردِّ عليهم، لهذا عمِلتُ على قاعدة الصوفيّة في كثرة الرياضة والعُزلة والخلوة والمجاهدة. واتَّخذْتُ من مسجد دمشق مَكانًا لاعتكافي، حيث كنتُ أدخلُ **المنارةَ الغربيّة** أمكثُ فيها طول النهار وأغلقُ بابها على نفسي. لقد كنت أنظر في أمر الذهاب إلى الغرب لأقضي شطر عمري في **بلاد المغرب**، الذي كان يَنْعَمُ بوحدة روحيّة وفكريّة وعقديّة ومذهبيّة وسياسيّة لا تَشُوبُهَا شَوَائِبُ التشَرْذُم السائدة في بلدان المشرق. ولعلّ الله أن يُخْرِجَ مِنْ هناك مَنْ يَحْمِل بعدي أنفاس التجْدِيدِ في هذه الأمّة، بعد أن رأيتُ تَرَدِّي الأحوال في الشرق. لقد استويتُ قريبًا من الأربعين وهداني الحقّ لأشتغل

بالذكر والمجاهدة، وأُطهِّرَ النفس مِنْ أَدْرَانِ الغفلة التي لزمتني بالشفوف بالعلم والاقتصار عليه وإهمال أعمال القلوب. لكنّ سانحَ العناية انتشَلَني من الغفلة وعرَّفني بسابق الفضل والمِنَّة في صورة المحنة. ولقد تبيَّنتُ تلك الحقيقة في أُتُونِ تلك الأيّام الحَوَالك بعدما قاسيتُ مِنْ تَتَبُّعِ الباطنيّة لي، وحِرْصِ الخليفة والسلاطين عليَّ في رَدِّ شُبَهِهِمْ والإنْكِفَاءِ على تعاليمهم بالطعن والتسْفيه، فكنتُ بين فَكَّيْنِ لا أُطيقُ دفعَهُما، حتى يَسَّرَ الله لي انحباس النطق وانقطاعَ البيان، وركبني الخوف الشديد، وشفقةَ الناس عليّ فَخَلَّفْتُ أخي في نظاميّة بغداد، وأظهرت أنّي أنوي الحجَّ بعدما أَعْيا الأطبّاءَ أمرُ علاجي، فكان لي العُذْرُ أمام الجميع أَنّي اخْتُبِلْتُ بالسوَيْدَاءِ وانْطَرَحْتُ عن النسْبَةِ لِشُمُوخِ الأئمّة الأعلام، وانْحَشْتُ إلى فُلُولِ العُبَّاد والزهَّاد ممَّنْ أَهْمَلَ الوقتُ ذكرَهُم، وأَخْمَلَ السرُّ إشهارَهم، فَانْدَسُّوا في أَطْمَارِ الخُضوع وانْزَوَوْا في ثنايا الخُشوع، لا يَلْوُونَ على دنيا الناس، بل يَعْزِلُونَ مِنْ أرواحِهم أَنْسِجَةَ الصفاء، ويَطْرُقُونَ بمُجاهَداتهم حَديدَ نُفوسِ الوفاء. كانت الحياة الجديدة التي نهجتُها مخرجًا عظيمًا لي من فتنة الناس، وفرجًا في صورة محنة، فابتهجتُ بها أيَّمَا ابتهاج، ونسي الناس ذكري، فانشغلتُ بمعاطِنِ إبِلِ نفسي، أَكْنُسُهَا مِنْ نَجاسات الأغيار حتى خَفَتَ ذكري، واستوهبني الوهّاب من سَنِيِّ المراتب وعَلِيِّ المواكب، أَخْتَرِقُ بها مسافات الأزمان، وأطوي بها مراحلَ الأمكنة في أَقَلَّ من طرفة الأعيان. وهناك دَلَفْتُ إلى وطن السعادة وانعطفتُ في دِهليز الوِلاية لأدخلَ دار الصلاح التي سلكها الأنبياء والصِّدِّيقون والصالحون

لحضرة الحقّ. وانقشَعَتْ سماءُ كوني، فأشرقَتْ شمسُ ذاتي بأنواعِ العلوم وأجناسِ المعارف. وطِرْتُ إلى تلك البلاد على رَفارِفَ من نور أَلْبَسُ خِلَعَ السيادة وأتحقَّقُ بنعيم يوم القيامة، قبل القيامة. في دمشق وجبل قاسيون أمسكتُ أخيرًا بطاسين الغزالي، وسمعتُ دبيبَ النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصمَّاء. كنتُ طاووس الفقراء في بستان المعرفة، ولَهجْتُ بذكر الأنفاس المحمَّلة بعاطر الأنفاس.

حمدت الله كثيرًا، قيامًا بحقّ ما استوجَبَتْهُ منّي كُنْيَتِي، بعد أن خَلَّصني الله من بطش الباطنيّة وفتنة الجاه. لم أَنْفَكّ عن التدريس في دمشق لبعض أصحابي وتلامذتي. ومن هؤلاء الشابّ جمال الإسلام أبو الحسن عليّ بن المسلم السلمي، الفقيه الفرضي. وقد لزمني مدّة مُكثي في دمشق، وأرجو الله أن يجعل منه أحد العلماء الأعلام.

* * *

وصَلَتْنِي أخبارُ ما حصل في نيسابور، بعد أن سار إليها أحد كبار الأمراء فحاصرها، لكنّ أهلَها أجمعوا له وقاتلوه قتالاً شديدًا، وبقي في حصارها أربعين يومًا فلمّا لم يجد له فيها مطمعًا غادرها، فحدثَتْ فتنة من بعده بين فرقة الكراميّة وسائر الطوائف الأخرى من أهل المدينة، واستَحَرَّ القتلُ بينهم. واتَّفَقَ مُقَدَّمُ الشافعيّة، صاحبُنا أبو القاسم ابنُ أستاذِنا إمامِ الحرمين أبي المعالي الجويني، ومقدَّمُ الحنفيّة القاضي محمّدُ بنَ أحمد بن صاعد على مُقاتَلَةِ الكراميّة، فظفِروا بهم وخَرَّبوا مدارِسَهُم. وقُتِلَ منهم خَلْقٌ كثير، وكانت فتنةً عظيمة. وهذه الفرقة المنحرفة تقول بالتجسيم، وبأنّ الله جالس على العرش استقرارًا، وأنّه بجهة الفوق ذاتًا، وأطلقوا عليه اسم الجسم. كما أثبتوا لله يدًا ووجهًا واعتبروهما صفات قديمة. وأثبتوا له النهاية كما للأجسام في الجهات الستّ. ومؤسّسها هو محمّد بن كرام السجستاني في القرن الثالث الهجري. وتزعم هذه الفرقة أنّ الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون

القلب، وأنكروا أن تكون معرفةُ القلب غير التصديق باللسان إيمانًا، وزعموا أنّ المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله كانوا مؤمنين على الحقيقة، وزعموا أنّ الكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان.

وكلّما وصلتني أخبار الباطنيّة ارتَعَبْتُ من بطشهم على الرّغم من انخمال ذكري، بعيدًا عن بهارج الجاه والظهور. لقد كنت شبه متيقّن أنّي على لائحة اغتيالاتهم. فقد حاولوا اغتيال السلطان بركيارق، وتمّ القبض على الفاعل فلم يعترف، لكنّه أشار إلى رجلين من أصحابه ساعداه على فعلته، فاعترفا لكنّهما لم يُقِرَّا على مَنْ أَمَرَهُما بذلك، فَقُرِّبَا إلى الفيل ليُجعَلا تحت قوائمه. وكاد أحدُهما أن يَعترفَ لكنَّ الآخر ذكَّرَه بعدم إفشاء سِرِّ أهل سجستان. كان واضحًا أنّ الحسنَ بن الصبّاح، شيخَ الجبل، هو من أرسلَ هؤلاء القتلة. فلمّا وصلتني هذه الأخبارُ انْزَعَجْتُ لها، إذ بإمكان هؤلاء القتلة أن يَصِلُوا إليَّ ويغتالوني بِيُسْرٍ ما داموا قد وصلوا إلى السلاطين. فَقَرَّرْتُ أن أُغادرَ دِمشقَ إلى بيت المقدس لإخفاء حالي.

طاسين الإحياء

وفي بيت المقدس، مهدِ عيسى عليه السلام، شَرَعْتُ في تصنيف كتاب الإحياء، رجاء أن يحيي الله به الملّة والدين، ويجدِّدَ أمرَهُمَا على يد هذا العبد الضعيف. لقد تَبَيَّنْتُ الخيط الناظم لهذا الكتاب الجليل، وعملت على تقسيمه إلى أربعة أقسام: قسم العبادات، وقسم العادات، وقسم المُهلكات، وقسم المُنجّيات. وجعلت لكلّ قسم عشرة كتب، فهي أربعون كتابًا، لتمام التسوية عند الأربعين وكمالها وكنت عند الأربعين أرجو الله أن يتقبَّل منّي هذا العمل، لِمَا أرجو له من الذُّيوع والانتشار حتى ينتفعَ به الناس. كما أنّ الأمّة قد استوَتْ على سَاقٍ، واكتمَلَتْ في معارفها على سائر الأمم. لقد كان هدفي أن أُقدِّمَ للأمّة كتابًا جامعًا في كلّ المناحي الفكريّة والعقليّة والنفسيّة والروحيّة. ولقد كتبتُ في علم الكلام والفقه والأصول والمناظرة والمنطق والفلسفة، ورَدَدْتُ على الفِرَقِ المنحرفة. وكان لا بدّ من إعادة تشكيل المعرفة وإلحامِهَا بالسلوك، فيما أسميتُه بعلوم المعاملة. سألني أحد الطلبة عن سرّ

عزمي على تأليف الإحياء وتقسيمه إلى أربعين كتابًا.

فأجبته قائلاً: إنّي سمعت عن شيوخي أثرًا غريبًا، وهو أنّ الميّت مِنْ حِين يوضع على النعش يُوقَفُ في أربعين موقفًا، يُسائله ربُّه عزَّ وجَلَّ. فجعلت هذا الكتاب على وفق هذا الأثر، لكلّ موقف كتاب أُجيب به في الدنيا قبل الآخرة، وليشهد عليّ جميع من وصله كتابي وطالعه بذلك. وأرجو أن ينفع الله به.

ثم سألني طالب نبيه فقال: هل تأليفك الإحياء، يا إمام، إشارة إلى أنّ بشارةً قد وصلتك بأنّك المجدّد والمحيي لعلوم الأمّة؟

فقلت: لقد كان عليّ، يا أخي، أن أُعيدَ ترتيبَ المعارف في الأمّة من جديد، وأن أتجاوزَ كلّ المراحل الفكريّة التي وصلَتْ إلى منتهى نُضجها في الأمّة. لقد أخذتُ، كما تعلمون، عن الإمام الجويني قضايا علم الكلام الأشعري الذي وصل إليه، فأَثْرَاهُ بالردِّ على المعتزلة والفلاسفة، لكنّي حاولتُ أن أرتفعَ بعلم الكلام درجةً أعلى لَمَّا اعتبَرْتُ المنطقَ آلةً ضروريّةً لتحرير المسائل وتجاوز التناقض الحاصل في مقدّمات علم الكلام العقليّة. وتبيَّن لي أنّ ردَّ الإمام الجويني على الفلاسفة لم يكن بما يكفي من العُمْقِ والسطوة، بحيث حام حول قضاياهم ولم يَتَغَلْغَلْ فيها، على حين دَرَسْتُ قضاياهم بعمق، وبارَزْتُهُمْ في ميدانهم وفَقَهْتُ كبراءَهُم في الفلسفة، فصحَّ لي الردُّ عليهم وإبطالُ الكثير من دعاويهم، وخاصّة في الإلٰهيّات.

فقال الطالب: وما دور المنطق في هذا البناء الفكري والمعرفي، والذي ما فَتِئْتَ تُنبِّهُنا إلى قيمته؟

فأجبت: لقد ربطتُ بين المعرفة ومنطق أرسطو، وبيَّنتُ في كتبي أنَّ الذي «لا يحيط بالمنطق علمًا فلا ثِقَةَ بعلومه». ورددت على الفارابي الذي كان يقول بأنّ «المنطق مجرّد آلة يقوى بها الإنسان على معرفة الموجودات، وبالتالي، ليس ينبغي أن يُعْتَقَدَ في هذه الصناعة أنّها جزءٌ من صناعة الفلسفة، ولكنّها صناعةٌ قائمة بنفسها وليست جزءًا لصناعة أخرى، ولا أنّها آلةٌ وجزءٌ منها». و«نسبة صناعة المنطق إلى العقل والمعقولات كنسبة صناعة النحو إلى اللسان والألفاظ». في حين أنّي رَدَدْتُ هذا الأمر وأَكَّدْتُ على أنّ المنطقيّات لا يَتَعَلَّقُ شيء منها بالدين نفيًا وإثباتًا، بل هي النظر في الأدِلَّةِ والمقاييس وشروط مُقَدِّمَاتِ البرهان وكيفيّة ترتيبها، وشروط الحدّ الصحيح وكيفيّة ترتيبه، وليس في هذا ما ينبغي أن يُنْكَرَ. فإذا كان المعلّم الثاني يريد من المنطق أن يكون كما أراده المعلّم الأوّل، منهجًا لتحصيل العلم بطريق برهاني، انطلاقًا من مقدّمات يقينيّة صادقة، فإنّني لا أريد من المنطق إلّا أن يكون آلة للدفاع عن رأي وإبطال آخر.

ثم نهض طالب يميل إلى الرقائق فسألني قائلاً: وما دور التصوّف، يا إمام، في عمليّة الإحياء التي ترومُها؟

فقلت: أمّا بالنسبة للتصوّف، فقد سبقني أبو الحارث المحاسبي وأبو القاسم القشيري في إضفاء شرعيّة دينيّة عليه، ممّا

لم يعد ينكره أحد من أئمّة الإسلام المعتبَرين. لكنّ منهجَ المحاسبي قَصَر التماس الشرعيّة على الجانب السلوكي، ومنهجَ القشيري لم يجعل من التصوّف منهجًا لِكُلِّ الأمّة، بل بقي مقتصرًا على الخواصّ، فلم يحدث الانقلاب المطلوب، وبقي مُحتشِمًا في جعل التصوّف في مركز اهتمامات الأمّة، لأنّ مَرْحَلَتَه أَوْجَبَتْ عليه أن يبقى في هامش المُدافِع. وأريد للإحياء أن يكون مُجاهرًا بالحقيقة الناصعة، من دون مُوارَبَةٍ ولا تَكَتُّم، وأن يُصبحَ البُعْدُ الروحي في الإسلام ركنًا لا يمكن بأيّ حال للأمّة أن تُسقِطه في مواجهتها للأمم الأخرى التي تَفْخَرُ علينا بمعارفها الروحيّة. وهنا الفارق بين هذه المناهج والمنهاج الذي اتَّخَذْتُهُ لنفسي. لقد اتَّضَحَ لي أنّ التصوّف يقوم على نوعين من العلوم: علوم المعاملة وعلوم المكاشفة. وأريد لكتاب الإحياء أن يكون مختصًّا بعلوم المعاملة، الذي يوازي الفقه، ولا قيمة للفقه من دونه، إذ هو الروح بالنسبة للجسد. فالفقه يُعَلِّمُ كيفيّةَ أداءِ الصلاة والزكاة والحجّ والصوم، بالأشباح والجوارح، والتصوُّفُ أو علمُ المعاملة وفقهُ القلوب، يُعلِّمُ كيفيّةَ أداء العبادات والفروض نفسها رُوحِيًّا وباطنيًّا فالفقه له شقَّان، أحدُهُما يتعلَّقُ بالأبدان، والثاني بالأرواح والجَنان. هذه هي الهزّة الجديدة التي ستحيي الدين والملّة على أسس قويّة. لقد أردتُ للتصوّف أن يَخرُجَ من الهامش، ليصبحَ في قلب الأمّة وفِقْهِهَا واهتماماتها وأعمالها ومعارفها، وإلّا تحوَّلَ الدِّينُ إلى صُوَرٍ وطقوسٍ ومَرَاسِيمَ بِدُونِ رُوحٍ. أمّا علوم المكاشفة فسأكتفي فيها بالترميز إلى أن يبعثَ الله للأمّة من يُجَدِّدُ لها في دينها فَيَبْسُطَ

معارفَ علومِ المكاشفة على بِساطٍ آخَرَ لم أُوَفَّقْ إليه، ولعلَّ اللهَ ادَّخَرَهُ لأهلِ المغرب، فالشرق أرض النبوّات، والغَرب أرض الولايات.

ثم نهض طالب آخر، وسألني قائلاً: وما موقع الباطنيّة في هذا البناء المتكامل يا إمامنا؟

فقلت مجيبًا: أمّا بالنسبة للإسماعيليّة، فالردُّ عليهم كان مختلفًا، لأنّ النقاشَ مع كلِّ الفِرق السابقة، من فقهاء ومتكلّمين وفلاسفة وأصوليّين وصوفيّة، كان مُنْصَبًّا على المعرفة، في حين كان لهذه الفرقة مشروع سياسي في إقامة دولة. واختلف الردُّ عليها حسب أهدافها المُعْلَنَة والخَفِيَّة. فالإسماعيليّة مذهبٌ ديني وفلسفي وسياسي، وإبطالُ آرائهم السياسيّة والدينيّة يستلزِمُ إبطالَ فلسفتهم. لكنّ فلسفَتَهم ليست شيئًا مُغايرًا تمام المغايرة للفلسفة السائدة عند أهل عصرنا اليوم. فرسائلُ إخوانِ الصفاء وغيرها يشتبك فيها الهِرْمِسي بالرياضي والهندسي والطبيعي، والإلٰهيّات مع العرفان. ولعلّي أَصْدُقُكُم القولَ بأنّ تصنيفي لكتاب «تهافت الفلاسفة» كان مِنْ أَجْلِ كتابي الآخر «فضائح الباطنيّة». فإبطالُ فلسفة الباطنيّة هي الخطوةُ الأولى لإبطال مشروعهم السياسي والديني. وحيث إنّ أمرَهم جسيم وخطرهم عظيم؛ فلا يمكن لبضاعة الفقهاء أن تبطله بالوعظ والتبْكيت، بل لا بدّ للعالم المطلق من إشهار جملة العلوم في وجه ما نجم عن هذه الأهواء من الفتن.

ثم تنهَّدتُ قليلاً كي أستريحَ، وأضفتُ قائلاً: إنّ إبطالَ قولهم

بأنّ المعرفةَ لا تُنالُ إلّا من المعلّم بالتعليم، إنكارٌ للعقل وللمنطق. فالجواب عن هذا المذهب، وإبطالُه، هو بإعلاء شأن المنطق في اكتساب المعرفة وتحصيلها من دون حاجة إلى المعلّم. فالحاجة إلى المنطق هي أيضًا الطريق إلى إبطال نظريّة المعلّم التي تقول بها الباطنيّة. إنّ علم الكلام الأشعري كان لا بدّ أن يتقَوَّى بالمنطق، باعتباره آلةً وسلاحًا للدفاع عن الآراء، أو لإبطال الدعاوى وتأسيس الخلافة على أسس قويّة في مواجهة المشروع الإسماعيلي. وأخيرًا، إنّ إعلاء التصوّف والجانب الروحي له فضيلة كبرى في مواجهة العرفان الشيعي. فلا يمكن إبطال ذلك العرفان بسلاح المنطق الذي رفعناه سابقًا لنصرة علم الكلام. فقد كان رأيي أن يَتِمَّ تَجريدُ ركن العِرفان ممّا طبَعَتْهُ به الباطنيّة الإسماعيليّة والإماميّة، وإقامَتُه على أساس جديد من داخل الشرعيّة السُّنِّيَّة.

ثم نطق طالبٌ وَلُوعٌ بالمناظرة فقال: لعلّ في هذا المذهب الذي اختَرْتَه، يا إمام، بعضَ التناقض بين المقدّمات النظريّة، والنتيجة التي تُرِيدُ الوصولَ إليها

فقلت: صدقتَ يا بنيّ، إنّ هذا المنهاج التجديدي الإحيائي يُظهِرُ تناقضًا صارخًا، لكنّه تناقضٌ شَكْلِيٌّ فقط، سُرعانَ ما يزول. وفي رأيي، هو الحلّ الأمثل أمام المعضلات التي تُواجهُ الأمَّة. فالدعوة إلى التصوّف، والردّ على الفلاسفة في التهافت، والالتزام بصناعة المنطق، أمورٌ تبدو متناقضة في ظاهرها، من وجهة النظر

المعرفيّة، لكنّها على مستوى بناء مشروع الأمّة تُشَكِّلُ الوسيلةَ المثلى والمتكاملة لمواجهة خطر الباطنيّة ومشروعهم السياسي، الذي إن تُرِكَ سَيَعْصِفُ بها نهائيًّا. أمّا العلماء الأعلام في الأمّة فقد جعلت لهم نظرًا في السياسة الشرعيّة العامّة، لأنّهم حكّام على الملوك، يُقَوِّمُونَهُم ويَنْصَحُونَهم. وكلُّ عِزٍّ أو مُلْكٍ لم يُوَطَّدْ بِعِلْمٍ فإلى ذُلٍّ يَصِير. ولا يخفى على كلّ أَريبٍ أنّ العلمَ لا يَقبلُ العَزْلَ والإبطال، كما قد يحصل للولاة وغيرهم.

ثم استأذَنْتُ الطلبة في الانصراف بعد هذا الدرس المنهجي حول مشروعي الفكري للأمّة.

* * *

لقد كان بيتُ المقدس مدينةً يقصدها العلماء والزهّاد والعُبَّاد من مختلف بلاد الإسلام للمجاورة فيها وقد كانت به ثمانٍ وعشرون حلقة للعلم، ومدرستان، إحداهما للشافعيّة بباب الأسباط، والأخرى للحنفيّة بإزاء قمامة تعرف بمدرسة أبي عقبة. وكان فيه من رؤساء العلماء ورؤوس المبتدعة، على اختلاف طبقاتهم، كثير. حَلَلْتُها وألَّفتُ لأهلها رسالة أَسميتُها «الرسالة القدسيّة»، وقد ضمَّنتُها بعد ذلك في رُبْع العبادات من كتاب إحياء علوم الدين. كان برنامجي اليومي أن أَدخلَ الصخرةَ وأَتَحَنَّثَ ما شاءَ الله، أَنْفِرُ من الخلق، فإذا نودي للصلاة خرجتُ فَصلَّيْتُ مع الناس. في بيت المقدس نسيَ الناسُ أَمْرَ الإمام الغزالي النظَّار، فلم يَعُدْ يُثِيرُ فِيهِم سِوَى الإشفاق. لقد كان إسقاطُ المكانة أقصى مُرادي، حيث توجَّهتُ بِكُلِّيَّتِي لمولايَ بأنواعِ المجاهدات، فإذا فَتَرْتُ عنها قُمْتُ لتدوين نتائج تلك الأذكار في كتاب الإحياء.

ومرّة خرجتُ مع طلبتي إلى قرية خارج بيت المقدس نتباحث أثناء مشينا، على عادة الحكماء المشّائين حتى وصلنا إلى مسجد له عَرِيشُ عِنَبٍ، فاستأذنني الطلبة في تناول حِصْرِمٍ من ذلك العَريش، فقلت لهم بأن يسألوا إمام المسجد عمّن حُبِّسَ عليه هذا العريش حتى يستأذنوه في الأخذ منه، فسألوا إمام المسجد فقال لهم: لا أدري على من حُبِّس، ولا تَعَرَّضْتُ له ولا أَكَلْتُ منه قَطُّ شيئًا. فذكروا ذلك لي فقلت لهم: هذا مغربي له أعوام في هذا المسجد لم يَتَعَرَّضْ لهذا العريش ولا عَرَفَ خَبَرَهُ، وأنتم من ساعة واحدة لم تَمْلِكُوا أَنْفُسَكُم. ثم ذهبتُ إلى ذلك الإمام المغربي وتباحثت معه وسألتُه عن اسمه فأخبرني بأنّه يُكَنَّى بأبي محمّد، صالح بن محمّد ابن حرزهم الفاسي.

وخلال مقامي ببيت المقدس امتنع المطر فتكلَّم الناس في الاستسقاء، وطلبوا منّي الخروج معهم لظاهر البلدة والدعاء لهم لحسن ظنِّهم بي، فاعتذرتُ لهم بِلَطِيفِ الاعتذار، وطلبتُ منهم أن يَطْلُبُوا مَنْ هُوَ أَصْدَقُ منّي حالاً مع الله، ثم دَخَلْتُ الصخْرَةَ وجَلَسْتُ أَشْتَغِلُ بأنواعٍ من الذكر، فإذا حَصَلْتُ على وَارِدٍ دَوَّنْتُهُ، وانتقلتُ إلى ذكر آخر وانتظار نتائجه. وبينما كنت خائضًا في لُجَّة الأذكار، مُنتظرًا للنتائج والواردات، لمحتُ نملة سوداء مستلقيةً على ظهرها رافعةً قوائمَها إلى السماء. ثم رأيتُها تَصْعَدُ الصخرة بعد أن حمَلَتْ حَبَّةَ قَمْحٍ، تحاول أن تَرْتَقِي بها مُرْتَقًى صعبًا، فإذا أوشكَتْ على الوصول إلى أعلى الصخرة تَدَحْرَجَتْ مع حبَّتها إلى الأرض، وصنعَتْ ذلك مرارًا. وبدل أن تَكُفَّ عن الزجِّ بنفسها في

مهالك الارتقاء والسقوط، فإنّها لم تَنْفَكَّ دائبةً على ذلك الأمر بدون كَلَل ولا مَلَل. تفكَّرتُ في نفسي، ونِدِمْتُ عمَّا سلَفَ منها في الزعَارَةِ، والشفُوف على الناس، والاغترار بالمنصب والجاه، ولُيونَة العيش، وكثرة المتاع. تنبَّهتُ بفعل هذه النملة الدائبِ إلى مُجاهَدَتِها وصبرها، بُغيَة الوُصول إلى هدفها، ولو كلَّفَها ذلك حتفَها. زِدْتُ من الذكر وأصابتني غيبة روحيّة، فسمعتُ النملةَ تتكلّم وتقول: اللهمّ إنّي خَلْقٌ من خلقك، ولا غِنَى بنا عن سُقْيَاك، وإن لم تَسْقِنَا تُهْلِكْنَا.

ثم الْتَفَتَتْ إليَّ وقالت: وأخيرًا جئتَ يا إمامُ لتتعلَّم مِنْ أَحْقَرِ مخلوق. لقد دعاك الناسُ لتستسقي لهم فصرفْتَهُم واشتغلتَ بنفسك بدل أن تبذُلها لهم. لكن الله أسمعَكَ قولي حتى تَفهمَ أنّ مجاهدة نفسِكَ، وإن كانت مطلوبة، فالأَوْلَى بَذْلُها حين يحتاجُ إليك خلق الله. لقد دَلَّسَ عليك الشيطان وأوهمَكَ بالتواضع، فصرفتَ الناس لمن هو أوفى صدقًا منك، لكنّك لم تَفْطنْ إلى أنّك اشتغلتَ بأنانيّتك عن خدمة الخلق، ففوَّتَّ واجبًا في الوقت. فتعال الآن أُعَلِّمْكَ كيف تدعو لترى أنّ الله قد كفاكُمْ، معشرَ الآدميّين، الدُّعاءَ، بِدُعَائِي. وقد كنتُ أصعدُ الصخرةَ ثم أسقُطُ مع الحبّة عمدًا، لأُعَلِّمَكَ المجاهدة والصبر على الأذى حتى تدركَ أنّ دون المطلوب عَقَبَاتٍ وأعمالاً

فقلت: ومن دَلَّكِ على حالي، وَمَنْ أَخْبرك بمقامي، ومن أعلَمَك بشؤوني؟

فأجابت وهي تبتسم: أنسيتَ الصندوق يا غزالي؟ ألا تذكر هداية النمل والطاووس لك لِفَكِّ المثلّث؟ لقد أعلَمَني بذلك مَنْ أعلمَ سليمانَ عليه السلام لمّا مَرَّ بوادي النمل في الشام، فنهضَتْ جدَّتي تُخبرُ قومَها بالأمر.

فقلت: وهل لكم نَسَبٌ، كما لنا نَسبٌ أيّتها النملة؟

تبسَّمَتِ النملة مرّة أخرى وقالت: ما أجهلَك بخلق الله يا إمام. لولا النسبُ لبقي الخلق في نَصَب. لقد كانت جدّتي الحكيمة تُدعى مُنذِرَة.

فقلتُ: جزاكِ الله خيرًا أيّتها النملةُ، فقد أَفَدْتِني عن كونها أنثى، ولطالما تساءلتُ عن تاء «نملة» هل هي للتأنيث أم للوحدة؟

فقالت: أما نظرتَ في كتاب الله حين قال؟ ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، ولو كان نملةً ذكرًا لقال «قال نملة»، كما هو الشأن في الحمامة؟

ثم حَدَجَتْني بنظرةٍ مُتعجِّبةٍ وأضافت: أمَا سَمِعْتَ بما جرى للإمام أبي حنيفة مع قتادة؟

فقلت، وأنا أتعجَّب من معرفتها بالنحو وبأبي حنيفة وقتادة: لا

فقالت: لمّا دخل قتادةُ الكوفةَ، الْتَفَّ حوله الناس فَصَعِد المنبر، وأخذوا في سؤاله، حتى سأله أحدهم عن جِنْسِ النملة التي كلَّمت سليمان عليه السلام، فلم يستطعِ الإجابة. وهنا قام أبو حنيفة وكان شابًّا، فذكر لهم ما ذكرتُ لك، وعلَّل الأمرَ بأنّ النملةَ مثلُ

الحمامة في وقوعِها على الذَّكَر والأنثى، فَيُمَيَّزُ بينهما بعلامة، نحو نملة أو حمامة ذكر، ونملة أو حمامة أنثى، وهو وهي.

تعجَّبتُ من علم النملة بدقائق لسان العربيّة، واستحيَيْتُ، لكنّني زدتُ حرصًا على سؤالها والتعلّم منها فقلتُ: يا أيّتها النملة، هل كان سليمانُ يفهم كلام النمل؟

فقالت: وكيف لا؟ وقد تبسَّم من قول جدّتي منذرة حين قالتْ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

فقلتُ: ولماذا تبسَّمَ؟

تبسَّمَتِ النملةُ وقالت: لأنّ الجدّةَ اعتذرتْ عنه بقولها ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾. ألا ترى أنّ خطابها مقسّم إلى أربعة أقسام: أوّلاً، نبَّهتِ النمل بقولها ﴿يا أيّها النمل﴾. ثانيًا، وجَّهتِ النملَ إلى ما يجب القيام به بقولها ﴿ادخلوا مساكنكم﴾. ثالثًا نبَّهتهم إلى سبب الخطر بقولها ﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾. ورابعًا وأخيرًا، اعتذرتْ عن سليمانَ وجنودِه بقولها ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾. فلو لم تعتذر عنهم وقالت مثلاً «وهم يشعرون» لهاجم النمل، وكانوا بالملايين في ذلك الوادي، جيشَ سليمان. فابتسامُه كان لكونه سَمِعَ كلامَها وعَلِمَ اعتذارَها الجميل لإخوانها بعدم جدوى مهاجمته مع جيشه.

ثم خطر لي أن أسأل النملة عن أُمَّة النمل، وكيف يُديرون أمورَهم، فقلت لها: هل لكِ في أن تُخبريني عن أُمَّتِكُم؟

فقالت: نحن أنواع كثيرة مثلَكم، ففينا الأحمر والأسود والأصفر أو الأبيض. نسكن الأرض أو الأشجار. ونحن أكبر أمّة على الأرض من حيث العدد. ونحن في عبادة دائمة وعمل دائم، فلا نَفْتُرُ. وأغلبُ أُمَّتِنَا من الإناث، أمّا الذكور فعددهم قليل، ولا يصلحون إلّا لتلقيح الملكة، حيث تصير لهم أجنحة يطيرون بها خلفها، إلّا أنّهم بعد التلقيح يموتون. خلق الله فينا قوّة عظيمة؛ إذ تستطيع نملة واحدة أن تحمل أضعاف وزنها بكثير ولمسافة طويلة. ونحن نعيش مثلَكم تمامًا، وممالكنا تمتَدُّ تحت الأرض على مسافة كبيرة، فقرب الباب يقف الحرس لمنع دخول الغرباء، ثم هناك طبقة ثانية لراحة العاملات، وتحتها مخزن ندَّخِرُ فيه الأقوات. ثم طبقة أخرى، هي قاعة تناول الطعام، وتحتها ثكنة العساكر، وتحتها الغرفة الملكيّة حيث تبيض الملكة، ثم إسطبل بقر النمل وعلفه، ثم إسطبل آخر لحلب هذا البقر، وغرفة لتفقيس البيض، وأخرى لحضانة الصغار، ومنتجع لقضاء فصل الشتاء، ثم أخيرًا مقبرة لدفن الموتى.

بقيت مشدوهًا من كلام النملة عن هذا التنظيم العجيب، وعن اتّخاذه دوَابَّ مثل ما نَتَّخِذُ نحنُ البقرَ والغنم. ثم بدا لي أن أسألها سؤالاً فلسفيًّا لأرى هل النمل يتفلسف هو الآخر أم لا، فقلت: هل للنمل نَفْسٌ ناطقة كما لبني آدم؟

ضَحِكَتِ النملةُ حتى اسْتَلْقَتْ على ظهرها وقالت: سبحان الله، أَبَعْدَ الذي ذكرتُ لك، ما زلتَ تطرحُ عليّ هذا السؤال، فقد قلتُ لك إنّ جدَّتي تُدْعَى منذرة، وأنا أُدْعَى مُخْبِرَة. وأنت تعلم، يا حجّةَ الإسلام وإمام الأنام، أنّ الاسمَ العَلَمَ لا يكون إلّا لمن له نَفْسٌ ناطقة، لكنّها بألفاظٍ غيرِ ألفاظِكم، وإنّما بلسانِنا الخاصّ بنا، ويعلم هذا أصحابُ النفوس القُدْسِيَّة منكُم فيترجِمُونَ لكم أسماءَنا.

ثم قلت: وهل لكم حروف مخصوصة، وكَمْ عددُها؟

فقالت: لغتُنا لغةُ النور، ونحن نُفْرِزُ مَوَادَّ نورانيّة في تخاطُبِنَا. كما أنّنا نفهَمُ بعضُنا بعضًا بالشمِّ، لأنّنا من عالم الأنفاس، لكنّنا نسمع بعض الأصوات. فأحرُفُنَا محدودة، فهناك حرف النور، وحرف النفَس، وحرف الصوت.

تعجَّبتُ من علم النملة وسُررتُ بما استفدتُه منها، فأضفتُ قائلاً لقد ورد ذكر النمل في سورة النمل في ثلاثة مواضع من السورة نفسها، والآية نفسها، في القرآن، لكنّ هذه السورة تُفتَتَحُ بحرفين فقط هما طس، فلماذا خُصِصْتُم هنا بحرفين، وأحرُفُكُمْ ثلاثة كما تقولين؟

طَرِبتِ النملةُ لسؤالي وقالت: ها قد بَدَأْتَ تَروقُ لي يا إمام. لقد وَرَدَ ذكرُ النملِ كما قلتَ في ثلاثة مواضع، وهي إشارة إلى أحرفنا الثلاثة. ولسانكم يجعل حروفنا ثلاثة: ن م ل. وقد راعيتم في ذلك فعل التنَمُّلِ، وهو الحركة الدَّائبةُ بلا انقطاعٍ كما هو ظاهر من حالنا وهذه الأحرف الثلاثة مِنْ أَسْهَلِ الحروفِ نُطقًا وحَركةً

في أَلْسُنِ الآدميّين. والميم أشدّ دلالة علينا لأنّ رأسَه دائرةٌ مغلقة كما في كلمة «موت»، لأنّنا ألصق بالأرض ونعيش في باطنها، وهي سكنى الأموات، وشكل أجسادنا يشبه الميم. لكنّ الميم سقط من مفتتح سورة النمل (طس)، وعَلِقَ بالسورة التي قبلها وبعدَها، وهما سورة الشعراء والقصص، وتفتتحان بـ: طسم. والسور الثلاث كلّها تبتدئ بالسين وتنتهي بالنون. ومع أنّنا أقربُ إلى الموت، فَذِكْرُنَا الغالبُ هو «حيّ» الذي كان من أذكار جبريل، وآدم الجامع للأسماء التسعة والتسعين، لذا ورد ذكرنا في الآية ١٨ (حيّ) من سورة النمل التي تشير إلى معنى الحياة التي نبَّهَتْ عليها جدّتنا منذرة، لمّا سألَتْ قومَها أن يَهرَعُوا إلى مساكنهم فِرارًا من الموت، وطلبًا للنجاة والحياة. وكما تعلم يا أبا حامد، فإنّ مرآة ١٨، تعطي ٨١، ومجموعهما ٩٩، يشير إلى الأسماء الحسنى. ومن كان ذاكرًا بهذه الأسماء لم يَمُتْ أبدًا، فإن مَلَّ غيرُنا بذكر الأسماء، فنحن معشر النمل لا نَمَلّ.

تعجَّبت من مُناداتها عليَّ بأبي حامد، فسألتُها عن سِرِّ نَعْتِهَا لي بَغْتَةً بذلك.

فأجابت: المؤمن مرآة أخيه المؤمن، فاجمَعْ أعدادَ كُنْيَتِكَ وظلِّها، تُدْرِكْ ما رمزتُ لكَ به. فأنت وَفْقَ الحساب الكبير، بالرفع **حبيب الله** (أبو حامد = ٨٨)، وأنت بالحساب نفسه، بالنصب وارث **محمّد** (أبا حامد = ١٣٢)، وبتحقّقك بالخفض والعبوديّة، صرت **عبد الله** (أبي حامد = ٦٦). فأبشر يا أبا حامد، فقد نلتَ

طاسين (١٣٠)، وارتقيتَ إلى ياسين (١٣١) وحططتَ الرحالَ عند من جاء بالإسلام، **محمّد** (١٣٢) عليه الصلاة والسلام.

ثم أضافت: من الآن، أكثر من ذكر «الحيّ» وسَمِّ كتابَك «الإحياء»، وقَسِّمْهُ أربعةَ أقسام، **وَفْقَ** التربيع الذي صنعْتَهُ للخاتم المثلّث، واجعَلْ يومَك وليلَك **وَفْقَ** هذا التربيع مثلَ كتابِكَ: قسمٌ للعبادات، وقسمٌ للعادات، وقسم للمُهلكات، وقسم للمُنجّيات. فلكلّ يوم حَظٌّ من هذه الأرباع. ألا تَذكرُ ما قالته جدّتي منذرة لمّا نبَّهت قومها، فقد تضمَّن خطابُها أربعةَ أقسام: تَنبيهٌ، أمرٌ بالاختباء، سَببُ الخطر، أمرٌ ثانٍ بعدم الهجوم لكون جيش سليمانَ لم يتعمَّد تحطيمَ النمل.

أردتُ أن أستزيدَ من تعليم النملة لي، لكنّي أبصرتُ أنّها كانت تتأهَّبُ لتوديعي، لحَدْسِهَا بِوُشُوكِ نُزول المطر، فأسرعتُ بطلب النصيحة منها.

فأجابت: عليكَ بفتية الكهف، فنَمْ مثل النمل في باطن الأرض مثلَ ما نام الفتيةُ لتصبحَ منهم وتُدركَ سِرَّ الموت والحياة. لقد ﴿لَبِثُوا في كَهْفِهِمْ **ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ** وَازْدَادُوا **تِسْعًا**﴾. فإذا سَرَتِ التسعةُ في الثلاثة (٩ × ٣) أَعْطَتْ عَددَ المرَّات التي تَكرَّر فيها حرفُ الطاء (٢٧) في سورة النمل، وهو ترتيبُ هذه السورة في المصحف. كما أنّ السين تكرَّر في السورة نفسها ٩٣ مرّة، وهو عدد آيات سورة النمل، وقد أدركتَ بالملاحظة العيانيّة أنّ هذا العدد مقلوب ٣٩. ثم لا تغفل عن تكرار كلمة «تسعة» في سورة

النمل في موضعين، ففي هذا إشارة. وقد سقط صفر المئات من ٣٠٩ لأنّه معلوم. فأهل الكهف أهل طس حقًّا، فَكُنْ نَمْلَ الحقائق وطاووس الرقائق.

وهنا أَفَقْتُ وأنا أَحُكُّ ساقي، فإذا بي أرى نملة قد صعِدَتْ على ساقي حتى وصلت إلى أعلى الصخرة. نظرَتْ إليَّ نظرةً أخيرة ثم اختفَتْ بين الشقوق.

خرجتُ لِتَوَّي من كهف الصخرة فأَلْفَيْتُ الناس يتأهَّبُونَ للخروج إلى ظاهر البلدة للاستسقاء فقلتُ لهم: ارْجِعُوا، فَقَدْ سُقِيتُمْ بدعوةِ غَيْرِكُم.

لم أُنْهِ كلامي حتى قامتِ الريح وتلبَّدَتِ السماءُ بالغيوم وجادَ الربُّ على عِباده جميعًا، مُؤْمِنِهِمْ وكافِرِهِمْ، بأمطار الخير والغَيْث. ابتسمتُ كأنّي أبتسمُ لصاحبتي مُخْبِرَة وتلفَّعْتُ في مُرقَّعَتي، ثم أسرعتُ لمحلِّ سكناي.

مكتبة الروحي أحمد ٦٦

طاسين التجريد

بعد ذلك المشهد البرزخي، سال قلمي بِدُرَرٍ مِنَ البَيَانِ مَحْفُوفَة بِنُكَتٍ بلاغيّة وأحوال ربّانيّة وصفات روحانيّة، لم أَكُنْ لِأَطْمَعَ بمثلها، لولا سابِقُ العناية بالاصطفاء في بيت المقدس. كنت ألبس المرقعة وبيدي رَكْوَةُ مَاءٍ، وبالأخرى عُكَّازٌ، لا أملك من الدنيا غير هذا وحين أضيق بالوحشة من الناس، أعود إلى الجلوس إلى بعض أصحابي للترويح عن النفس. فأركان الطريق ذكر ومذاكرة وعلم ومحبّة.

ومرّة اجتمعتُ مع ثُلَّةٍ من أصحابي، فيهم إسماعيل الحاكمي وأبو الحسن البصري وإبراهيم الشباك الجرجاني، وجماعة كثيرة من الغرباء والصلحاء، وأخذنا في السماع، فأنشدنا قَوَّالٌ هذين البيتين:

فَدَيتُكَ لولا الحُبُّ كُنْتَ فَدَيْتَنِي ولكنْ بِسِحْرِ المُقْلَتَيْنِ سَبَيْتَنِي

أتيتُكَ لمّا ضاقَ صدري مِنَ الهوى ولو كُنْتَ تَدْرِي كيفَ شوقي أَتَيْتَنِي

فتواجد أبو الحسن البصري وَجْدًا أثَّر في الحاضرين، حتى

هَلَكَ محمّد الكازروني من شِدَّةِ الوَجْدِ، وتُوُفِّيَ أَمَامَنَا وَأَسْلَمَ رُوحَهُ لمولاه. وهكذا تكون المحبّة للحبيب، بحيث يَجودُ المُحِبُّ بروحه هَديَّةً للحبيب. وللحكماء أقوال في السماع، حيث ذكروا أنّ في القلب فضيلةً شريفة لم تَقْدِرْ قُوَّةُ النطْقِ على إخراجها باللفظ، فأخرَجَتْهَا النفْسُ بالألحان. ففي كلّ إنسان قُوَّةٌ على السماع، فإن وافق ما في النفْسِ ما تَنَغَّمَتْ به الأوتار، أو نَطَقَتْ به الأصواتُ الحسانُ، أَحْدَثَ فيها وَجْدًا، فتحرَّكت، فإن تمادى بها الأمر إلى الحَدِّ الذي لا تَقْوَى فيه على تَحَمُّلِ المكاشفات والواردات والمشاهدات النورانيّة، هَلَكَتْ وعادت إلى مُستَقَرِّ وُجودها، لَمَّا أنْ خاطبَها الحقُّ فطرِبَتْ لذلك السمَاع الأَزَلي. فهذا سِرُّ الوَجْد الذي يُفني الذوات. وعلى إثر هذه الحادثة كتبتُ كتاب المحبّة من رُبْعِ المنجّيات. وقد فتح الله عليّ فقلتُ فيها «المحبّة هي الغاية القصوى من المقامات. فما بعد إدراك المحبّة مقام إلّا وهو ثمرة من ثمارها. كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبّة مقام إلّا وهو مقدّمة من مقدّماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها. وأمّا محبّة الله تعالى فقد عزَّ الإيمانُ بها حتى أنكرَ بعضُ العلماء إمكانَها وقال: لا معنى لها إلّا المواظبةُ على طاعة الله تعالى، وأمّا حقيقةُ المحبّة فَمُحَالٌ إلّا مع الجِنْسِ والمثال. ولمّا أنكروا المحبّة أنكروا الأنس والشوقَ ولذَّةَ المناجاة وسائرَ لوازم الحبِّ وتوابِعِه». ثم شرعتُ في رفع الغطاء عن هذا الأمر وبيَّنت شواهدَ الشرع في المحبّة وحقيقَتِها وأسبابِها، وأنْ لا مستحقَّ للمحبّة إلّا الله، وغير ذلك من القضايا المتّصلة بها.

وكيف تُفَسَّرُ المحبّةُ بالطاعة؟ وليستِ الطاعةُ إلّا ثمرةً للمحبّة تابعة لها، فلا بدّ أن يتقدَّم الحبُّ، ثم بعد ذلك تتبعه طاعة مَنْ يُحَبّ. وعلى الجملة، فلا تُتصوَّرُ محبّةٌ إلّا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يُحِبُّ الإنسانُ إلّا ما يَعرفُه، ومَنْ يعرفه، فإن حصلَتْ معرفَتُهُ أحدثَتْ ميلاً في الطبع له، فإذا قويَ ذلك الميلُ سُمِّيَ عشقًا. فالمحبّة إذن تابعة للمعرفة والإدراك، والمُدْرَكَاتُ متنوّعة، ولكلّ واحدة منها لذّة معيّنة. فلذّة العين في إدراك المبصرات الجميلة، ولذَّة الأذن في النغمات الحَسَنة الموزونة، ولذّة الشمِّ في الروائح الطيِّبة، ولذَّة الذوق في الطعوم الطيّبة، ولذَّة اللمس في الملموسات الناعمة اللّيّنة.

وأعظم محبّة هي محبّة الله، وليس معنى ذلك أن لا يُحِبَّ ما سواه من المحبوبين، بل تكون محبَّتُه لهم عينَ محبَّتِه لله، فمن أحبَّ رسولَ الله أحبَّ اللهَ قطعًا، لأنّ محبوبَ الحبيبِ محبوبٌ. وقد استفدتُ أنّ الوصولَ إلى محبّةِ الله يكون بِقَلْعِ صَنَمِ الدنيا من القلب، وسلوكِ طريقِ الزهد ومُلازمةِ الصبر، والانقيادِ إليهما بزمام الخوف والرجاء. وقد أفردتُهُما في باب المنجّيات من الإحياء. وعلى الجملة، فالخوف والرجاء يكونان لمتوَقَّع في المستقبل. والمتوَقَّعُ إمّا مَكروه فيُنتِجُ الخوفَ، وإمّا محبوبٌ فينتِجُ الرَّجاءَ. ونظيرُ الخوف والرجاء من المقامات في الزمان الحاضر، القبضُ والبسط. فإنّهما يكونان في الحاضر بعد ابتعادِ المرءِ عن حالَتَي الخوف والرجاء. فالقبضُ للعارف بمنزلة الخوفِ للمستأنِفِ. والبسط للعارف بمنزلة الرجاء لذلك المستأنف. فالقبضُ والبسط

لأهل الحضور. أمّا نظيرُ هذه المقامات في الزمان الماضي، فَهُمَا الهيبةُ والأنس. وهما فوقَ مرتبة القبض والبسط، كما كانا هما فوقَ مرتبة الخوف والرجاء. فالهيبة أكمل من القبض، والأنس أتمّ من البسط. ومن لزم الهيبة أنتجت له الغيبة، لأنّ كلّ هائب غائب. كما أنّ من لزم الأنس أنتج له الصحو، لأنّ كلّ مستأنِسٍ صَاحٍ. فهذه أَزْمِنَةُ أهلِ الله يملؤونها بما يوافِقُهَا من المقامات والأحوال، فأهل المستقبل بين خوف ورجاء. وأهل الحاضر بين قبض وبسط. وأهل الماضي بين أنس وهيبة. كنت أملأ أزماني وأنفاسي بهذه الأحوال ثم أُفنيها وأُقابل الشفع بالوتر، فيفنى الكلّ ويبقى الحقّ. فَطَوْرًا من أهل التلوين، وطورًا من أهل التمكين. ألبسُ اللونين ثم أخلع المَلَوَيْن، وأُوسَمُ بصاحب الألوان، ثم بالمصبوغ بصبغة الله، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾. كنت كأهل الكهف في صخرة بيت المقدس، والمناسبة بيني وبينهم ظاهرة من تحقّقي بـ: طس (٣٠٩). فقد ﴿لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، وأنا آدم (٩) المثلّث بالحكمة (٣ × ٣)، الذي تقلّب في بطن الحقائق تسعة أشهر. والمثلّث هو الجبل الذي يوجد في قلبه الكهف، والكهف حوّاء، وأنا آدم الجبل. وأخلاق آدم ثلاثمائة (٣٠٠) كما ورد في الأثر. والجبل محلّ الظهور، فله التقدّم على الكهف، المنعوتِ بالضمُورِ والبُطون. لكن في كلِّ جبلٍ كهفٌ، ولكلِّ كهفٍ جبلٌ. فالرجل جبلٌ وهو آدم، والمرأة كهف وهي حوّاء. لقد فككتُ إعجام المثلّث الآدمي، الحامل لمثلّث حوّاء المُنْكَفِئِ إلى الأسفل، مثل رَحِمِ المرأة. ففي قلب جبل قاف،

يَثْوِي أهل **طس** من فتية الكهف برفقة كلبهم. لقد توارَتِ الحكمة من رأس الجبل وانطَوَتْ في مركزه عند طس الكهف، كلّما ابتعدت الإنسانيّة عن أصل فطرتها عبر الدورات الزمنيّة. ولما تَنَزَّلَتْ هذه الحكمة من القِمَّةِ (كما كانت في البداية) إلى المركز (لبعد الناس عن الفطرة) انْقَلَبَتْ فَظَهَرَتْ في صورة طس الكهف، كما في الخاتم الآدمي. وهذا المثلّث الحوّائي الصغير المحمول داخل المثلّث الآدمي هو قلب طس الحامل للحقائق العلويّة المستترة. فمن لم يصعد جبل قاف، عليه بالبحث عن فتية أهل الكهف، فهناك السرّ. فإنّ لم يظفر به، فليجلس كالكلب على بابهم حارسًا حتى يأذنوا له في الدخول. إنَّ حوّاءَ ظلُّ آدم، والإنسانَ الصغير ظلُّ العالم الكبير، كما أنّ مُثلَّثَ حوَّاءَ ظلٌّ لمثلث آدم:

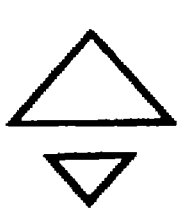

لقد حَلَلْتُ إشكال المثلّثين في مواضع مختلفة، في قَبْوِ القَلعة والبستان والخزانة والصندوق، ولعلّي أقول اليوم إنّ المثلّث الكبير والمثلّث الصغير هما حالة الإنسان منذ أن ابتعد عن الحقيقة، فقد صار ظلًّا لها، وأقصى مراده اليوم أن يعودَ القلبُ (المثلّث الصغير) إلى قلبِ المثلّث الكبير (الجبل) حتى يَتَّحِدَ مركزُهُما. هناك

يتوحَّدَان مِنْ جَدِيدٍ في كهف طس، وبتوحّدهما يمتلك المُتَوَحِّدُ سِرَّ الخاتم السليماني ويُكلِّمُ النمل. فَأَلِفُ «آدم» في رأس المثلّث الأعلى يقابله أَلِفُ «حوّا» في المثلّث الأسفل. وسيعود ذلك القلب إلى قمّة الجبل مرّة أخرى حين تقوم القيامة. لقد فهمتُ حقيقة المثلّث، فجعلتُ ذكري موزّعًا بين خوف ورجاء ومعرفة. المعرفة في أعلى المثلّث، والخوف والرجاء على جانبيه. الخوف رأس الحكمة، والرجاء محبّة، والمعرفة في القمّة. لقد أدركت أخيرًا أنّ الطاووس لم يكن في حقيقة الأمر سوى كمون حقيقة حوّاء في آدم، فهي الطاووس الحقيقي.

في بيت المقدس انكشفَتْ لي هذه الأسرار، فقد كنتُ في قلب كهف صخرة الجبل، ومنها يَتِمُّ العروجُ من المُلك إلى المَلكوت. لقد أحيا الله قلبي بالحياة الأبديّة وفهِمتُ السِّرَّ الوجودي، لكنّي لم أكن مثل حلّاج الأسرار لمّا باح بِالسِرِّ فاستوجبَ اقتصاص سيف طواسين الشريعة، فمات مصلوبًا عام ٣٠٩. بيني وبين الحلّاج نسبة، إلّا أنّه كان يَحْلِجُ وكنت أَغْزِلُ، فَكِلانَا كان نَسَّاجًا، إلّا أنّه أراد إصلاحَ كثافة العِباد، واشتغلتُ بغزل لطائف الوِداد. لقد تصدَّق بروحه على كلّ المحبّين في سبيل حبيبه. لقد ذاق اليقينَ بأنواعه، مثل الفَراش يحوم حول المصباح، وقنعنا من اليقين بِعلم الحقيقة. فضوء المصباح علم اليقين، وحرارته عين اليقين، والاحتراق به حقّ اليقين. كان الحلّاجُ فَرَاشَ الحقيقة الذي احترقَ من شدّة القرب إلى حَدٍّ

المُمَاهَاة، ولم يَدْرِ أنّ حقيقةَ الفَراش وحقيقةَ المصباح مختلفتان. عِلمُنا أَتَمُّ، وذَوْقُهُ أَكْمَلُ. لم يَرْض من المصباح بالضوء والحرارة بل ألقى نفسه في نار المصباح فتلاشى غُبارًا. لم يبق منه رسم ولا جسم ولا عين. ومن كانت له عينٌ كان أَدْعَى للنظر. ومن وصل للمنظور ما حاجَتُهُ للعين والنَّظر؟ و«ما صَحَّتِ الدعَاوَى لأحدٍ إلّا لإبليس وأحمدَ، غيرَ أنَّ إبليس سَقَطَ عن العين، وأحمدَ كُشِفَ له عن العين. قيل لإبليس اسجد، ولأحمد انظر. هذا ما سجد، وأحمد ما التفتَ يمينًا ولا شمالاً ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى﴾». هكذا كان أبو المغيث حسين بن منصور الحلّاج، يا إخوتي وأحبّتي، شهيدَ المحبّة، أحسنَ الله مثواه.

من القدس يَمَّمْتُ صَوْبَ الخليل حيث مقام إبراهيم الخليل، أسلمتني المحبّةُ للخُلَّةِ، فزرتُ كمالَها في كَلِمَةِ الله، إبراهيمَ عليه السلام. كنت أريد اليقينَ في مسجد اليقين بالخليل ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. وكلّ يقين يُتَصَوَّرُ جحودُه، بخلاف الطمأنينة فلا يُتَصَوَّرُ عليها الجحود ﴿وجَحدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

ومن الخليل راودني الخاطر في ترك بلاد الشرق والسفر إلى بلاد المغرب، حيث يحكُمُ أميرُ المسلمين يوسف بن تاشفين، وَلِي عِنْدَهُ مكانةٌ جليلة، بعد أن بلَغَتْهُ أخباري واستفتاني في ملوك

الطوائف فأفتيتُه بوجوب مقاتَلَتِهِم، وقد فَعَلَ، فَدَانَ له مُلْكُ المغرب.

يَمَّمْتُ صَوْبَ مِصْر فدخلتُها حَذِرًا، فإنَّ بها الخلافةَ الفاطميّة المستعلية. وعلى الرّغم ممّا بينها وبين النزاريّة مِنَ الخِلاف، فلا شَكَّ أنّ خبر كتابي في الردِّ على الباطنيّة قد وصلهم، لكنّي كنت آمنًا من شرِّ الاغتيال على أيدي فتية الحسن بن الصبّاح في مصر. قصدت الإسكندريّة التي يغلب على أهلها المذهب المالكي، والميلُ إلى أهل المغرب حتى إنّهم يعتبرون أنفُسَهُم الطرَفَ الشرقي للمغرب. كان المُكثُ بها آمَنَ لي من اللبْثِ في القاهرة، حاضرةِ الخلافة الفاطميّة. ولمّا وصلتُ هذه المدينة الساحليّة قرَّرتُ السفر بحرًا إلى سبتة، إلّا أنّ بعضَ عُلماءِ أهلِ المغرب ممّن كان مُتوَجِّهًا للحجّ صرفني عن وجهتي لكون البحث في الإلٰهيّات وعلم الكلام والتوحيد كان كاسدًا بها، ولا يَعْرِفُ فقهاؤُها إلّا الفقه المالكي. وهناك عِلَّةٌ أخرى أعظم من هذه، وهي أنّ بعض قضاة بلاد الأندلس الذين كانوا يشغلون مناصب عليا عند ملوك الطوائف، نَقمُوا على الفتوى التي أصدرتُها بخصوص مُقاتلة تلك الممالك وضَمِّها لحكم المرابطين، بعد أن جُرِّدُوا من مناصبهم السابقة. وقد نَقلوا لي بعض تلك الأقوال المغرضة لتأليبِ الناس وحُكّام المغرب عليّ.

صرفتُ الخاطر عن السفر إلى المغرب، وضاقت عليّ

الأرض بما رَحُبَتْ، ففي المشرق يَتوعَّدُني الحسن الصبّاح وفِتيانه بخناجر الغَدْر، وفي بلاد الأندلس بالمغرب يُؤَلِّبُ أصحابُ الرسوم والمناصب عليّ الساسةَ والناس. أمّا في بغداد، فالدولة تريدني لأمر لا أريده لنفسي. أريدُ وجهَ الله تعالى، والدولةُ تريد لي أن أدفع عن وجهها هجمات خصومها. وفي دفاعي عنها هلاكي المحقَّق، فماذا أصنع؟

طاسين الحجّ

لم يكن لي من مخرج سوى أن أُصحِّحَ القصدَ إلى المولى، فقرَّرتُ السفر مع حجّاج المغرب إلى الحجاز لتأدية الفريضة. ركبنا على سفينةٍ في النيل تخترق بنا صعيد مصر، لأنّ الطريق البرّي الشامي لم يَعُدْ آمنًا حيث كانت سفُنُ الفرنج بدأت تأتي بكثرة لأمر يَعْلَمُهُ الله. فلعلّهم أزمعوا على أخذ بيت المقدس. مررنا على عدّة مدن وقرى صغيرة مثل منفلوط وأسيوط وإخميم. وهي مدينة قديمة، بها مسجد ذي النون المصري، دخلنا إليه وصلّينا فيه تبرّكًا كما أنّ بهذه المدينة آثارًا قديمة، وكنائس لنصارى الأقباط. ومن أقبح ما رأيتُ، النهْبُ الذي كان يقوم به عُمَّالُ المُكُوسِ حيث يتعرَّضون للحجّاج، ويذيقونهم ألوانَ العَسْفِ والذُّلِّ ويُبَعْثِرُونَ أغراضَهم. وقد أنجاني الله تعالى من زَرِيِّ فعَالِهِم لِفَقْرِي وجواز التصَدُّقِ عليّ. فلم أكن أملك سوى خِرقتي التي تسترني وعُكّازتي التي أستند عليها، ورَكْوَتِي التي أشربُ منها. حدجوني بنظرة مُستشيطة، وانصرفوا يَسلبون هؤلاء الغرباء المنقطعين إلى الله. بعد

هذه الحوادث المؤلمة، أكمَلْنَا طريقَنا حتى وصلنا دَنْدَرَة، وهي معروفة بكثرة نخيلها وشُهرة رُطَبِهَا، وليس بينها وبين مدينة قُوص سوى بَريدٍ واحد. ثم وصلنا مدينة قِنا، وإلى الشرق من النيل مدينة قِفْط، التي يُنسَبُ إليها لباس القفطان. وبعدها وصلنا إلى قوص بعد أن استغرَقَتْ رحلتُنا على النيل ثمانية عشر يومًا. وهذه المدينة مجتمع الحجّاج والتجّار من كلّ الأجناس، ومحطُّ الرحَالِ للمغاربة والمصريّين والإسكندريّين. وبعد أن استَرَحْنَا بضعةَ أيّام في قوص رُمنا السفر عبر الصحراء الشرقيّة باتّجاه عَيْذَاب. لم يكن معي دابّة، إلّا أنّ بعض أهل الخير من المغاربة استأجَرَ لنا دابّةً نركبُ عليها معًا، لأنّ السفر عبر هذه الصحراء لا يكون إلّا على الإبل لصبرها على العطش. فركبتُ من جانب، ورَكِبَ عَدِيلِي من جانب آخر، وكانت تُظَلِّلُنا مِظَلَّةٌ من لَفْحِ الهاجرة. كانت الرحلة بهذه الطريقة مُريحة حيث اشتغلت أثناءها بالمطالعة أو الذكر أو المذاكرة مع عديلي. وكان غيرُنا يفعل مثلَ فعلنا أو يطالع في سِفْرٍ أو يحفظ كتابَ الله، أو يلعب مع صاحبه لعبة الشطرنج، استِجمامًا للنفس واستِرْوَاحًا لها من مَلَلِ الصحراء. وأغلبُ المسافرين كانوا يركبون على أحمال الإبل، فكانت الرحلةُ مُنْصِبَة، إذ يكابدون من حَرِّ الشمس ولَفْحِهَا المحرق. على طول الرحلة كنّا ننزل في بعض الآبار للتزَوُّدِ بالماء. ومنه ما كان ثِمَادًا لا تَجودُ به الأرض إلّا قليلاً فَيُنْضِبُهُ النفَرُ اليسير في الزمن القليل. والطريق في هذه الصحراء آمِنٌ حيث القوافل الصادرة أو الواردة لا تَكادُ تُحصى، وقد حُمِّلَتْ إِبِلُها بأنواع السلع وخاصّة الفلفل والقرفة. قطعنا

الطريق في هذه الصحراء حتى وصلنا إلى عَيذاب على ساحل بحر جُدّة. جُلُّ مداخيل المدينة من التجارة والحجّاج وليس بها شيء يُذكر. وأهلُها من البُجاة، من قبائل السودان، وهم أقرب إلى الجنّ منهم إلى الإنس، لسوء أخلاقهم وفظاظتهم وسوء معاملتهم للحجّاج. ويتندَّرُ الناس عن عيذاب وأهلها بالقول إنّها كانت سجنًا لسليمان يَزُجُّ فيه العفاريتَ والمَرَدَةَ. ومن له منهم مركب يَشْحَنُهُ بأكبر عدد من الحجّاج ولا يَهُمُّهُ أن يَغْرَقَ بعد ذلك. وكثيرًا ما كان يحصل ذلك. كما أنّ هذه المراكب غير مُسَمَّرَة، وإنّما مشدودة بحبال لأنّ البحر الذي تقطعه كثير المُعتَرَضَات فلا تصلح فيه المراكب المسمّرة. ولو كنّا نعلم لسلكنا الطريق الشامي، فهو أفضل من هذا الطريق البحري المحفوف بالمخاطر الكثيرة، زيادة على ما فيه من الجَوْرِ والعَنَتِ الحاصل من سلب الحجّاج. مكثنا في عيذاب قريبًا من أسبوع، في مدينةٍ كلُّ شيء فيها مَجلوبٌ حتى الماء، وحَسبُكَ بهذا حُسْنَ ظَنٍّ. ركبنا البحر الأحمر بعد أن انتظرنا قيامَ الريح بعد ركود طويل. فلمّا واتَتْنَا الريحُ الرخاءُ سلك الربَّانُ بنا على مركبه أيّامًا رأينا فيها تَرادُفَ الصحْوِ والغَيْمِ، وشارفنا في بعضها على الهلاك ليلاً، فلمّا أصبح الصباح عاد الماءُ صفحةً من زجاج، وتراءى لنا ساحل الحجاز فنزلنا على جزيرة هناك. ثم أكملنا مسيرَنا حتى رَسَوْنَا بالساحل. ورأينا من حِذْقِ الربَّان ونُوتِيَّتِهِ عَجَبًا بحيث كنّا نراه يُشاكِس بمركَبِه الماءَ والمضايقَ المعترِضَة والشعابَ الملتوية، فيخرِجُه بسهولة ويُسْرٍ كما لو كان يَسُوسُ جوادًا جامحًا بين صخور عظيمة. أمضينا في البحر الأحمر ثمانية أيّام

لاقينا فيها الشدائد والأهوال، فلمّا رسا بنا المركب في جُدّة، حمدنا الله بجميع المحامد على السلامة والنجاة.

وزرت بها قبّة عتيقة، يُذْكَرُ أنّ **حوّاء** عليها السلام كانت تسكُنُها عند توجُّهِهَا إلى مكّة. تذكّرتُ زوجتي أثناء الزيارة وأصابني الحنين إلى أهلي وبناتي. وتمنَّيْتُ لو عُدتُ إلى بغداد وخراسان، بعد أن رأيتُ أنّ الحاجَّ إلى بيت الله الحرام، بالنسبة لأغلب الظاعنين على طريقه، مَوْرِدٌ للغَلَّات، حيث ينهَبونَهُ نهبًا ويُرَوِّعُونَه ترويعًا. غادرنا جدّة وواصلنا حتى وصلنا إلى ميقات الإحرام وهي بلدة تُعرف بالقَرين. أحرمتُ بعمرة وأسرينا ليلنا حتى وصلنا عند الفجر إلى مكّة. وكان الحجّاج في تلبية غير منقطعة منذ أحرمنا من الميقات، فتارة ترتفع أصواتهم وتارة تنخفض كلّما أعياهم الجهد. فلمّا رأيت الكعبة الحرام غشيتني أنوار عظيمة، فَطُفْتُ طوافَ القُدوم وصلَّيت خلف المقام وشربت ماء زمزم، ثم سعيت بين الصفا والمروة، وحلقت وتحلَّلتُ وأَدَّيْتُ ما عليّ.

مكثت في مكّة أيّامًا لا أَفْتُرُ عن الطواف والصلاة والذكر حتى كان يوم الثامن من ذي الحجّة، فأحرمنا بالحجّ وارتحلنا إلى منى وبتنا بها. وفي يوم التاسع قصدنا جبل عرفة حيث صلّينا الظهر والعصر جمعًا وقصرًا، ثم وقفنا إلى ما بعد الغروب. وبدأنا النَفْرَ إلى مزدلفة، فصلّينا بها المغرب والعشاء وبتنا بها إلى الصبح. ثم انفصلنا عنها إلى منى فرمينا جمرة العقبة ثم حَلَقْتُ، ونزلتُ مكّة لأداء طواف الإفاضة. وبعد ذلك عدت إلى منى حيث قضيتُ بها ثلاثة أيّام. وبعد أداء جميع المناسك قصدتُ المدينة لزيارة

المصطفى عليه الصلاة والسلام. فانتعش الروح والجسد ونُفِحْتُ بأنوار القُرْبِ من جناب المصطفى. فلمّا تمّ لنا من السعادة ما تمّ، يمَّمْتُ صوبَ بلاد الشام أَرُومُ دِمشقَ من جديد. كانت دمشق تناسبني لاعتدال هوائها وطيب أهلها، فكنت أدخلُ المنارةَ الغربيّة طولَ النهار، أغلِقُ بابَها عليّ وأَشتغل بالذكر حتى إذا وفَّيْتُ الحقَّ أثمرَتْ لي تلك الأذكار لواقِحَ النتائج، فَأَكُبُّ على الإحياء أُصَنِّفُ في مجامع الأرباع التي قَسَّمْتُ عليها الكتاب حتى أنهيتُه بحمد الله. فلمّا أن بلغتُ النهاية، حمِدتُ الله وشَعَرتُ بسعادة بالغة فأَمْلَيْتُ على الطلبة منه، وأَجَزْتُ فيه بعض من طلبني بذلك، وفيهم من خيرة بلاد الإسلام، وخاصّة من أهل المغرب، فقد كان لهم تَعلُّقٌ كبير بهذا الكتاب وصاحبِه، فحمَلَهُ عنّي الكثيرون.

وفي بداية سنة ٤٩٠ وصلتني رسالة من الأهل يَشْكُونَ البُعْدَ والفِراقَ، فأجبتُ داعيَ الطلَبِ، وَرُمْتُ السفَرَ إلى بغدادَ بعد طول غيبةٍ، وتناسي أهلِها لأمري. لم يكن هدفي أن أمكثَ بها وإنّما كنت أنوي أن أَمُرَّ عليها لآخذ أهلي إلى خراسان. فلمّا وصلتُها أقمت بها خمسةَ أشهر، وفضَّلْتُ النزولَ مع الصوفيّة والغرباء برباط أبي سعيد النيسابوري المواجه لنظاميّة بغداد. فلمّا سمع بي الأصحاب والطلبة كَثُرَتْ زياراتهم وأسئلتهم لي.

ومن بين من زارني طالب مغربي نبيه من أهل العلم يُعرف بأبي بكر ابن العربي المعافري، كنت قد التقيت به سابقًا في مدينة السلام، ثم بعد ذلك في الحجاز. كانت حالي مختلفة عمّا كان قد أَلِفَهُ الناس عن أبي حامد حجّة الإسلام، لمّا كنت قبل خمس

سنوات مَرَّتْ في بغداد. فلمّا دخل عليَّ أبو بكر استغرب من حالي بعد الذي رآه من حالي قبل خروجي من بغداد. التقيتُه خارج رباط أبي سعيد مع والده أبي محمّد الوزير، فعرض عليّ الولد أمنيته في الأخذ عنّي، وقال لي: «أنتَ ضالَّتُنَا التي نَنْشُدُ وإمامُنا الذي نسترشد به. .»، فأَذِنْتُ له في مُلازمتي والمجيء إليّ في رباط أبي سعيد، فكان يلازمني كالظلّ في الصباح والمساء والظهيرة والعشاء.

وكنت قد كتبت فتوى للأمير ناصر الدين، وحَمِدْتُ لهذا السلطان الصالح سيرَتَه وفِقْهَه وتَحَرِّيَه في أمور الشريعة، وأجبته إلى ما طلب. كما كتبت وقتها على ذيل الفتوى التي أجبت بها عن سؤال الفقيه الوزير ابن العربي ثناء عليه، وتزكية لولده، قلت فيها «وولَدُهُ الشيخُ الإمام أبو بكر قد أحرز من العلم في وقت تَرَدُّدِهِ إليَّ ما لم يحرزه غيره مع طول الأَمَد. وذلك لما خُصَّ به من مضاء الذهن، وذكاء الحسّ، واتّقاد القريحة. وما يَخْرُجُ من العراق إلّا وهو مُستَقِلٌّ بنفسه، حائزٌ قصبَ السبْقِ بين أقرانه».

وخلال ملازمته لي في رباط أبي سعيد، استأذنني في بَعضٍ مِنْ كُتُبِي وقرَأَهَا عليّ، ومن بينها كتاب الإحياء الذي شَرَّقَ ذِكرُه وغَرَّبَ. وسألني سؤالَ المسترشِد عن بعض الإشارات العجيبة والعِبارات المبهَمَة والرُّمُوز المطلسَمَة التي صادفها في كتبي، فأراد الاستيقان من ذلك فأجبته لما أراد، وكتبتُ له بخطّ يدي ما يلي: «إنّ القلبَ إذا تطهَّرَ عن علاقة البدن المحسوس وتجرَّد للمعقول انكشفَتْ له الحقائق. وهذه أمور لا تُدْرَكُ إلّا بالتجربة لها عند

أربابها، بالكَوْنِ معهم والصحبة لهم، ويُرْشِدُ إليها طريقٌ من النظر، وهو أنّ القلبَ جوهر صقيل مُستعِدٌّ لتجلّي المعلومات فيه عند مُقابلتها عَرِيًّا عن الحجب. لكنّه بتراكم الآفات عليه يصدأ حتى لا يتجلّى فيه شيء، أو يتجلّى معلوم دون معلوم بحسب مُواراة الحجاب له مِنِ ازْوِرَارٍ أو كثافة أو شَفَفٍ. ألا ترى إلى النائم إذا أَفْلَتَ قلبُه من يد الحواسّ وانفَكَّ مِنْ أَسْرِهَا كيف تَتَجَلَّى له الحقائقُ، تارة بعينِها وأخرى بمثالها؟». وسألني مسائل أخرى وطلب منّي أن أُمِدَّهُ بقانونٍ للتأويل بين صريح النقل وصحيح العقل، إذ الحقُّ أن لا تعارضَ بينهما، فأجبتُه إلى ما طلبَهُ، وعَيَّنْتُ له أصنافَ الطالبين في هذه القضايا إلى خمس فرق. وبَيَّنْتُ أَنَّ الناجِيةَ المُحِقَّةَ واحدة، وهي التي جمعَتْ بينهما فلم تَتَطَرَّفْ لجهة النقل والنصّ فقط مثل الفرقة الأولى؛ ولم تَتَطَرَّفْ لجهة العقل فقط، كالفرقة الثانية؛ ولم تتطرَّفْ للتي جعلت النقل أصلاً والعقل تابعًا؛ مثل الفرقة الثالثة، ولا للتي جعلت العقل أصلاً والنقل فرعًا كالفرقة الرابعة؛ بل اتّخَذَتْ كُلَّ واحد منهما أصلاً، وأَنْكَرَتْ تعارُضَهُمَا، وهي الفرقة الناجية. فمن كَذَّبَ العَقلَ فقد كَذَّبَ الشرْعَ، إذ بالعقل عَرَفْنَا صِدْقَ الشرع. كما عرفنا بالعقل، الفرقَ بين النبيّ والمُتَنَبِّي، والصادقِ والكاذب. ولا يستقيم التأويل دائمًا حتى للعقول الأولى، فما بالك بعامّة الناس؟ لكن من كَثُرَتْ مخالَطَتُهُ للعلوم وممارسَتُهُ لها يَقْدِرُ، بتأويلات قريبة، أن يُقَرِّبَ بين النصوص التي يبدو فيها تعارض بين النقل والعقل. وعلى الرّغم من استفراغ جهده، تبقى حالات أخرى يتوسَّلُ فيها بتأويلات بعيدة

لا تَفْهَمُهَا العقول، أو حالات لا يَتَبَيَّنُ له وجه التأويل، ويَعْسُرُ عليه حَلُّ التعَارُضِ. وهذا ما قد يظنّه البعض استقالةً من العقل، والحقيقة أنّ العقل لا يَسْتَقِلُّ بإدراك كلّ أنواع المعارف، بل له حدود، كما لغيره حدود يقف عندها. وهنا تبدأ إدراكات أخرى في الإنسان بقدر صفائه واستعداده لِتَلَقِّي الفَيْضِ الأَقْدَسِ، فَيُنْفَخُ في عقله من جانب الروح القدس، حتى يَظْهَرَ له وَجْهُ الحقّ.

وطلب منّي ابن العربي الإجازة في الإحياء فأجزته، واستأذنني في إدخال الكتاب إلى بلاد المغرب، فأَذِنْتُ له.

ثم التقيتُ به مرّة أخرى في البَرِيَّةِ، وكنتُ لابسًا مُرَقَّعَةً وبيدي رَكْوَةٌ وعُكَّازٌ، وكانت فيه جَرَاءَةُ الشباب، فقال لي بعض ما كان يُرَدِّدُه بعض فقهاء أهل بغداد عنّي: أليس تدريسُ العلم ببغدادَ خيرٌ مِنْ هذا؟ فنظرتُ إليه شَزْرًا وعَلِمْتُ قُوَّةَ حِجَابِهِ وقلتُ: لمّا بزغَ بَدْرُ السعادة في سماء الإرادة وجَنَحَتْ شَمْسُ مَعَارِفِ الوُصُولِ في مَغَارِبِ الأُصُول:

تركتُ هَوَى لَيْلَى وَسُعْدَى بمَعْزِلِ ... وَعُدْتُ إلى تَصْحِيحِ أَوَّلِ مَنْزِلِ

ونادتْ بيَ الأَشْواقُ مَهْلاً فَهٰذِهِ ... مَنَازِلُ مَنْ تَهْوَى، رُوَيْدَكَ فَانْزِلِ

غَزَلْتُ لَهُمْ غَزْلاً رَقِيقًا فَلَمْ أَجِدْ ... لِغَزْلِيَ نَسَّاجًا فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِي

لم يَطِبْ لي المقامُ في بغدادَ لكَثْرَةِ التشْغِيبِ عَلَيَّ، ومُطَالَبَتِي بالعَوْدَةِ إلى التدْرِيسِ في النظَامِيَّةِ، فَخِفْتُ أَنْ يَأْتِي الأَمْرُ مِنَ الخَلِيفَةِ أَوْ مِنْ السلْطَانِ فَلا أَقْدِرُ عَلَى رَدِّهِ، فَمَكَثْتُ فيها حتى أقضي بعضَ أغراضِ أهلي الذين صَرَفْتُهُم إلى طوس في قافلة مأمونة، قبل أن

ألتحقَ بهم. لم يسبق لأحد بَلَغَ الذُّرَى في العلم والجاه في دولة الخلافة، أن اعتزلَ بهذه الطريقة العجيبة، وطلَّقَ الدنيا وما فيها لقد صَرَفَ الحقُّ عنّي كلّ هذه الابتلاءات الدنيويّة، واختصَّني بمجالسته، فلم أَعُدْ أُطيقُ سيرتي الأولى. ولم يَعُدْ يهُمُّني ما يقولُه الناس من اختبال عقلي وفساد مِزاجي. فلو عَلِمُوا ما كنتُ فيه من السعادة الروحيّة لحاربونا عليها بالسيوف ولزاحمونا عليها بالركَبِ والمناكب. لكنَّ الله حَجَبَهُمْ عن حقيقة ما نحن فيه، وصرفهم إلى ما خلقهم له، فتلك حكمتُه ومشيئته، يفعل ما يريد. وليس لأحد أن يَحُلَّ محلَّ أحد، إذ كلّ مخلوق يتصرَّف حسب ما أعطاه استعدادُه. كما أنّه **ليس في الإمكان أبدع ممّا كان**. وما أشدَّ حجابَ أهلِ الرسوم الذين تَنكَّبوا على الأمور يَفُلُّونَ ذَهَبَ القلوب بميزان الحديد. فكيف يا ترى يَصِحُّ وزنُ الذَّهب بميزان الحديد؟ ولو علموا أنّ الحقّ لا يُتَصَوَّرُ في صورة واحدة لرحِموا الخلق، لكنّ سطوةَ الصورة أوهَمَتْهُم أنّ التوحيد لا يكون إلّا على مقتضى ما تخيَّلوه مِنْ صُوَرِ أذهانهم. ولو رجعوا إلى الأثر المشهور حول رؤية المؤمنين للحقّ في موقف القيامة أربع مرّات، في المرّة الأولى: يرونه، ثم يتجلّى لهم في غير الصورة التي يعرفون؛ فينكرون، يقولون: حتى يأتينا ربّنا؛ فيتجلّى في الصورة التي يعرفون؛ فيسجدون له، ثم يرفعون رؤوسهم، فيتجلّى لهم؛ فيرونه كما رأوه أوّل مرّة، وفي الجنّة يرونه.

فلو تأمَّلَ المُنكِر هذا الأثر لَعَلِمَ أنّ تجلِّيّات الحقّ أوسعُ من أن تُختزلَ في صورة واحدة.

طاسين الإبداع

حين كنتُ في بغدادَ عابِر سَبِيلٍ، لقيني بعضُ متحذلِقَةِ الوَقْتِ، يروم تسفيهَ قولٍ رقمتُه في الإحياء، في معرض ذكري لعجائب الله في خلقه وحكمته، مِنْ أن «ليس في الإمكان أبدع ممّا كان»، فقال: يا إمام، وحجّة الإسلام، كلُّنا يعرف أنّ الله قادر على أن يجعل الناس كلَّهم مؤمنين على الفطرة، وأن يجعل الأرض كلَّها ذهبًا، وأن يزيل الجبَلَ الفلاني حتى تمرَّ الريحُ، وكلّ ما جرى على هذا النمط من أنواع الاحتمالات، لا يُنكِرُه أجهلُ السوقِيَّةِ ولا يَشُكُّونَ في صلاح القدرة على إيجاد كَلّ ذلك، فضلاً عن طالب علم، فضلاً عن عالم، فضلاً عنك يا حُجَّةَ الإسلام وإمامَ الأنام، فكيف جوَّزتَ القولَ بذلك، وهو بَيِّنُ الحِرْمَةِ؟

فقلت لهذا المترسِّم الذي يتظاهر بالأدب، ويُضْمِرُ سوءَ الأدب: نعم، ليس في الإمكان أبدع ممّا كان. ولو أمعنتَ النظر يا فقيه بعين المنصف الحصيف لم تَرَ في هذا القول إلّا عينَ الحقّ.

ولَمَا تسرَّعتَ في صَرْفِهِ إلى حُكْم التحريم، بل مبنى ذلك القول الذي ذكرتُه على آثار الأسماء الإلٰهيّة وتصرُّفَاتِها. ومعناهُ أَنْ ليس في الإمكان أبدع ممّا كان، على أحسن الوجوه وأكمَلِها وأتَمِّها وأَعْدَلِهَا. فكلُّ ما بَرَزَ من القدرة (ولا نقص فيها) وخصَّصَتْهُ الإرادة (ولا نقص فيها) وأُتْقِنَ بالعلم الإلٰهي (ولا نقص فيه) لا يَصِحُّ أن يكون ناقصًا في وجوده لكمال الأوصاف الإلٰهيّة التي وُجِدَ عنها ويلزم مِنْ وصفِ الوجود بالنقص، نسبةُ النقص إلى تلك الأوصاف العَلِيَّة، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا

وبدل أن يقنعَ المعترض بالجواب، شاكَس وعاند وزاد: لمّا سمعنا هذه القولةَ الشنيعةَ رفَضْنَا أن نَنسُبَها لك يا إمام، وها نحن نرى أنّك تدافع عنها وتُزيلُ كلّ لَبْسٍ حول هُويَّة قائلها. وكنتُ قبل أن أسمعَ جوابك أَرُدُّها وأَظُنُّهَا مدسوسةً عليك. فهي مِنْ جِنْسِ ما تقولُ المعتزلة بوجوبِ الأَصْلَحِ على الله تعالى.

فقلت: هَبْ أنّ هذه القولة تُوافِقُ قول المعتزلة فيما ذكروا من وجوب الأصلح على الله تعالى، فالمطلوب، كما قال الإمام عليّ كرَّمَ الله وجهَه: «لا يُعرَفُ الحقّ بالرجال، ولكن اعْرِفِ الحقَّ تَعْرِفْ أَهلَه». فنحن لا يَضُرُّنا أن نَقولَ ما يقولُه المعتزلة، إن كان حقًّا لأنّ مقصودَنا الحقُّ وليس قائلَ الحقّ، ولا الذي وافقه. وليس على الأرض مَنْ يُوَافِقُ الحقَّ تمام الحَقِّ، بل كلّ الخلق فيهم مِنَ الحَقِّ بقدر تحقُّقِهِم بمعاني الحقّ. وأراك تَلْمِزُ في المعتزلة لمزًا غير محمود، فلا يَسبِقْ إلى وهمِكَ أنّنا وإن ناظرْنَاهُم على الحقّ،

فليسوا بكفّار، معاذ الله، بل هم مسلمون مؤمنون مثلنا، قد فَرُّوا من الكفر واعتزلوا. والإيمان يتفاضل فيه الناس. ولكنَّ الأمر كلَّه لله، وإليه الرجوع.

فزاد في القول: بل «في الإمكان أفضل ممّا كان»، والقول بغير هذا زندقة، لأنّه تقييد للقدرة.

ثم قام مُترسِّمٌ آخر، وردّ على قول صاحبه قائلاً: بل كِلا القولين زندقة. فعلى القول الأوّل، القائل المعتقِد بصدق قوله زنديقٌ لأنّه حَدَّ من قدرة الله، وعلى القول الثاني، فالقائل كذلك زنديق لأنّه افترض أن يوجد في الوجود أفضل ممّا أبدع الخلّاق، فقد افترض قدرة أخرى مضادّة لقدرة الحقّ، أو قدرة ثانية للحقّ أفضل من قدرته الأولى.

علمتُ مدى شدّة الحجاب المسبَل على قلوب هؤلاء، فأجبتُ قائلاً بلسان المُناظِر: إنّ القدرةَ تتعلّق بالممكن وليس بالمستحيل. والوجود كما نراه ونعرفه هو الممكن، والعدم مستحيل وافتراضاتكم من العدم، فهي من المستحيل. فأبسط درس في علم التوحيد يؤكّد على هذه القاعدة الذهبيّة من أنّ القدرة لا تتعلّق بالمستحيلات. والجواب الثاني على اعتراضاتكم أنّ النفي في قولي: «ليس في الإمكان أبدع ممّا كان» ليس متعلّقًا بإمكان وجود شيء غير هذا الموجود، بل إنّ النفي المذكور يتعلَّقُ بنفي أن يكونَ ذلك المَنْفِيُّ أبدعَ من هذا الموجود. فأنا أُسَلِّمُ لكم أنّ القدرة الإلٰهيّة قادرة على أن تجعل منكم مثلاً قردة وحميرًا، وقادرةٌ على

أن تجعل جميعَ الناس أغنياءَ أصِحَّاءَ مؤمنين، مِصداقًا لقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فالمنفِيُّ كونُ ذلك، لو وَقَعَ، كان أبدعَ ممّا هو كائن. أيُّ مَزيَّةٍ كانت ستحصلُ (ولو أنّنا جميعًا نفضّل هذا الاحتمال لنقص عقولنا وعدم إدراك حكمة خالقنا) إذا كان جميع الناس مؤمنين؟ فلولا الكفر لم يُعرف الإيمان، ولولا النار لم تُطلب الجِنَان. وهذا من أسرار الله في الوجود. فهذا التفاوت في الوجود هو أَبْدَعُ من جعلهم متساوين لتظهر مَزِيَّةُ هذا من ذاك. وإلّا تَعطَّلَ العقلُ والمسؤوليّةُ والتكليفُ والعملُ وتنافسُ الناس في الخيرات، وغيرُ ذلك من ألوان سعي الناس في اكتساب الأفضل. فالأبدع في الوجود كامن في هذا التفاوُت الحاصل بين الموجودات، بل بين الموجود وذاته، فَطَوْرًا يكونُ الأبدعُ في زمان غير الأبدعِ في زمان آخر، وهكذا

ثم قام منهم آخر فقال: لقد قرأنا كُتُبَكَ يا إمام، لكن لم نَتبيَّنْ عقيدَتَك على وجه الصواب، وإنَّ مَنْ تَصَفَّحَ هذه الكتبَ لم يعلم رأيَك، فمثلاً نراك تُكَفِّرُ الفلاسفةَ في كتاب التهافت، لإنكارهم بعث الأجساد، وإثباتِهم الثوابَ والعقابَ للنفوس خاصّة، ثم إنّك تقول في كتابك الآخر ميزان العمل، بأنّ هذا الاعتقاد هو اعتقاد مشايخ الصوفيّة من مجاري أحوالهم على القطع، وأنت واحد منهم ذوقًا وحالاً، فكيف تَرْبِطُ في مَوْضِعٍ وتَحُلُّ في مَوْضِعٍ آخَرَ؟

فأجبت: معك حقّ في هذا الذي لاحظتَه، لكنّ من تَلَبَّس بكتبي وشاهَدَ أحوالي، عَلِمَ قطعًا أنّ الآراءَ ثلاثةُ أقسام: رأيٌ

أشارك فيه الجمهور فيما هم عليه، ورأي يكون بحسب ما أخاطب به كلّ سائل ومسترشد، ورأي يكون بين الإنسان وبين نفسه، لا يَطَّلِعُ عليه إلّا من هو شَرِيكُه في الاعتقاد. وقد صرَّحتُ بهذا الأمر في كتابي ميزان العمل، ويظهر لي أنّك لم تَسْتَوْفِ قراءَتَه، وإنْ أَوْهَمْتَنا أَنَّكَ قَرَأْتَهُ، أو أنك حَاكٍ لاعتراضات من نَقَلْتَ عنه، إذ ما اعْتَرَضْتَ به وسُقْتَهُ من كلامي في الميزان، مذكور في مقدّمة الكتاب، وما أجبتُكَ به هو في آخر الكتاب نفسه. فكيف تَعْقِلُ الأَوَّلَ وتذكره ولا تَعْقِلُ الثاني وتغفله؟ أم أنّك تريدُ المناقضةَ والسفسطة فقط؟ ولو لم يكن في هذه الأقسام إلّا ما يُشَكِّكُ في اعتقادك الموروث، لكفى بذلك نفعًا. فإن من لم يَشُكَّ لم يَنْظُرْ، ومن لم يَنظر لم يُبصر، ومن لم يُبصر بقي في العمى والحيرة، وأنشدت:

فُـقَـهَـاؤُنَـا كَـذُبَـالَـةِ الـنِّـبْـرَاسِ هِيَ فِي الحَرِيقِ وَضَوْؤُهَا لِلنَّاسِ

خَـبَـرٌ ذَمِـيـمٌ تَـحْـتَ رَائِـقِ مَـنْـظَـرٍ كَـالـفِـضَّـةِ الـبَـيْـضَـاءِ فَـوْقَ نُـحَـاسِ

ثم حَملتُ نعلي وتَزَمَّلتُ في مُرقَّعَتي واستنَدتُ إلى عُكّازَتي، وتَركتُهُم يَتَلَمَّظُونَ حَسْرَةً على تَسْفِيهِهِمْ، فَسَمِعْتُهُم يَلُوكُونَ الكلامَ بأنواع الاحتمالات. وَلَوْ صَفَا لَهُمُ الوُدُّ لما عَكَّروا صَفْوَ الحَبِيب.

ضِقْتُ ذَرْعًا بِضِيقِ سَعَةِ مُتَفَقِّهَةِ الوقت، مِمَّنْ لم يُحَرِّرُوا المسائل، ولم يَصْفُ قَلبُهم لاسْتِجْلابِ المواهِب، وهزَّني الحنينُ إلى مَسقط رأسي فَقَصَدْتُ طوس، مدينتي التي وُلِدْتُ وتَرعرعتُ فيها، ومررتُ بجرجان ومنها لمرو، تجنّبًا للمرور من مدينة نيسابور

التي انتزعَها سَنْجر من عمّه أرسلان أرغون، أخي السلطان ملك شاه. لم أَكُنْ أَرغبُ في أن أُوَرِّطَ نفسي في هذه الصراعات التي كانت بين الأمراء حتى لا أُتَّهَمَ بِمُشَايَعَةِ أَحدِهِمْ ضِدَّ الآخَرِ، لذا عَمِلْتُ على الاشتِغَالِ بنفسي وخاصّة أصحابي. نزلتُ بمرو، مدينة المروءة والمرور، ودرَّست الإحياء، وحصل مرَّةً أن أَنشدتُ مِنْ قَوْلِ ابن الرومي، مُتَواجِدًا، فبكيتُ وأَبْكَيْتُ أثناء تدريسي لكتابي الإحياء:

وحَبَّبَ أوطانَ الرجَالِ إليهِمُ مآرِبُ قَضَّاهَا الفُؤادُ هُنَالِكَا

إذا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذكَّرَتْهُمُ عُهُودَ الصِّبا فِيهَا فَحَنُّوا لِذلِكَا

وعَزَمْتُ على الذهاب إلى طوس، فَتَوَجَّهْتُ صَوْبَ الجَنُوب ووصَلْتُ المدينةَ التي دَرَجْتُ فيها بعد غيبة طويلة.

انْتَصَبْتُ لتدريس بعض كتبي فيها، وأقام عندي مِنْ طَلَبَتي، عبد الرحمن بن عليّ بن أبي العبّاس النعيمي الموقفي، المعروف بالبارباباذي، وهي مَحَلَّةٌ بمدينة مَرْو. كما صَحِبَنِي في طوس، وتفقَّه عليّ أبو الحسن عليّ بن محمّد بن حَمَوَيْه. ومن تلامذتي أيضًا أبو نصر أحمد بن عبد الله بن شمر الخمقري البَهُوني، من أهل بَهُونَةَ، وهي إحدى القرى الخمس في مرو. كما تفقَّه عليّ أبو منصور محمّد بن أسعد العَطاري الطوسي، وكذلك أبو سعد محمّد بن أسعد النوقائي، وأبو الفتح محمّد بن الفضل بن عليّ المارِشْكي، ومارشك من قرى طوس، وهو من أنجب تلامذتي، وغير هؤلاء كثير لا يُحْصَوْنَ عددًا.

لم أَعُدْ أَرْهَبُ، كما كنت من قبل، هجمات الإسماعيليّة وبطشَهُمْ بي، فقد كانت غيبتي عن النظاميّة ودوائرِ الخليفة والسلطان كفيلةٌ باهتمام الباطنيّة بأعدائهم السياسيّين فقتلوا عددًا منهم، وتغافَلُوا عنّي بعد أن طَوَانِي الخُمُول. ثم إنَّ ما كنتُ فيه لم يَتْرُكْ لي ذَرَّةً مِنْ خَوْفٍ لأَحَدٍ من الخَلْق، فقد كان يتنازعني الخوف والرجاء، والبسط والقبض، والهيبة والأنس، بحَسَبِ الوَقت. كنتُ أَدْخُلُ الخلوة لا أَلْوِي على شيء إلّا مجالسةَ الحبيب، لا أَفْتُرُ عن الذِّكْرِ ولا أنتهي عن الشكر، ولا ينتابني شكٌّ، إلّا وأَغْرَقُ بَعدَهُ في بَحرٍ مِنَ اليقين. كنتُ في سابق عهدي أَرْكَنُ إلى تقسيمات العقلاء، فلم تَعُدْ تُجْدِي عندي شيئًا بعد أَنْ طَلبتُ الهِمَّةَ لمعرفَةِ وَاهِبِ العقول.

* * *

مكتبة الرمحي أحمد

ومن بين المصائب التي عمَّتِ المسلمينَ خروجُ الفرنج إلى بلاد الشام سنة ٤٩٠، ثم احتلُّوا بعد ذلك أنطاكية، ولم يزالوا يتقدَّمون في البلاد ويستغِلُّونَ خلافات أمراء المسلمين فيما بينهم حتى ملكوا كثيرًا من بلاد الشام بالطريقة هذه. وكان واضحًا أنّ هدفَهم هو بيت المقدس، ولَئِنِ استمرَّ الحالُ على ما هو عليه فسيدخلونَه قريبًا وعلى الرّغم من اجتماع المسلمين لردِّ الفرنج بعد أخذهم أنطاكية، إلّا أنّ سوءَ التدبير وتَفرُّقَ الكلمة، أفشلَ خُططَهم فانهزموا أمام الفرنج المتعَصِّبِينَ. وطَمِعَ هؤلاء فتقدَّموا في البلاد وحاصروا مَعَرَّةَ النعْمَان وأخذوها، لكنّي أعتقد أنّ الخطرَ الداخلي أعظمُ من هذا الخطر الخارجي، إذ لا أشكّ في أنّه سيزول لأنّ قاعدته بعيدة في أورو

مكتبة الرمحي أحمد ٨٦

أمّا في أصبهان وأذربيجان وبلاد الجبل فقد انتشر فيها أمر الباطنيّة انتشارًا كبيرًا، فعيَّن السلطان بركيارُق، الأميرَ أُنَر

لمقاتلتهم، بيد أنّه انهزم وسَوَّلَتْ له نفسُه عصيان السلطان وأظهر ذلك، فقام إليه بعض مماليكه وقتلوه. أمّا بيت المقدس، فقد كان بِيَدِ تاج الدولة تُتُش، وأَقطَعَهُ للأمير سُقمان بن أُرتُق التركماني. وبعد وَقْعَةِ أنطاكية وانتصار الفِرَنْجِ، ضَعُفَ أمرُ الأتراك، فَطمِعَ الفاطميّون في مصر، في امتلاك بيت المقدس وحَاصَر الأفضلُ بن بدر الجمالي، الأمير سقمانَ بالمدينة حتى مَلَكَهَا بالأمان. ثم غادر الأفضلُ المدينة وترك فيها مَنْ يحكُمُها لكنّ الفرنجَ قصدوا بيتَ المقدِس فأخذوها في شعبان عام ٤٩٢، وقتلوا الآلافَ من المسلمين شَرَّ قتلة، ومَثَّلُوا بهم ونهبوا المدينة نهبًا وسَبَوا النساءَ والأطفالَ. ومات في الوَقْعَةِ كثير من الأئمّة والعلماء والعُبَّاد والزهَّاد ممّن جاور ببيت المقدس. وصلَتْ تلك الأخبار إلينا من بغداد والناس يَبْكونَ ويَسْتَغِيثون. أمّا السلطانُ بركيارُق فقد كان في صراع مع أخيه محمّد، وصرفَا جُهدَهُمَا لمقاتلة بعضهما بعضًا بدلَ تَوْحِيدِ الصفِّ والظفرِ بالفرنج، فضاع أَمْرُ بلاد المسلمين بينهما.

ثم إنّ سنجر اتَّحَدَ مع أخيه محمّد على أخيهما الثالث السلطان بركيارق، وحصلتْ بينهم معارك، فجمع محمّد وأخوه سنجر العساكر وساروا إلى بغداد ليَفُلُّوا حديدَ أخيهم بركيارق هناك. وكان السلطان قد اعتلَّ، وتفرَّقَتْ عنه عساكِرُه وامتعَضَ منه أهل بغداد لأنّه ترك عساكره تنهبُ الناس، على الرّغم من الضيق الشديد الذي كانوا فيه. ثم إنّ بركيارق كان يُتَّهَمُ مِنْ قِبَلِ خُصومه بميله إلى الباطنيّة، وقد قَتَلَ مُؤيّد الملك ابن نظام الملك، وزير السلطان محمّد، فَنَقِمَ أَشياعُ النظاميّة عليه. فلمّا دخل جيش محمّد

@ktabpdf تيليجرام

بغداد ووقف بالضفّة الشرقيّة بدأوا يَسُبُّون جيش بركيارق على الضفَّةِ الغَربيَّة، ويُعَيِّرُونَهُم: يا باطنيّة. ثم إنّ الخليفة المستظهر بالله، أظهر الامتعاض مِنْ سُوءِ سِيرَةِ بَرْكِيَارُق ومَنْ مَعَهُ، وأبدى الاِسْتِبْشَارَ بالسلطان محمّد. لم يكن أمام بركيارق سوى أن يغادر بغداد مريضًا إلى مدينة واسط.

وحتى يدفعَ بركيارق عن نفسه تهمةَ مُشايَعة الباطنيّة، أَمَرَ السلطانُ بقتل الإسماعيليّة، لأنّهم دأبوا على اغتيال أصحاب أخيه محمّد، سلطان خراسان، المخالفين للسلطان بركيارق، فَتَبِعَتْهُ هذه التهمة. وظهر أمر كثير من رجاله بمشايعة الباطنيّة، حتى صاروا يُظهرونها عِيانًا ويُهَدِّدُونَ مَنْ خَالَفَهُم مِنْ بَقيَّة الجند. فلمّا استفحلَ الأمرُ قرَّر الفتكَ بهم قبل أن يَذهَب أَمرُه، فأخذوا مَنْ كان بجيشه من الباطنيّة وقتلوهم، ولم يُفلِتْ منهم إلّا مَنْ لم يُعرَف. كما قُتل أُناسٌ براءٌ من هذه التهمة. بعد هذه الكوارث قامتِ الدولةُ بِتَتَبُّعِ أنصار الإسماعيليّة، وَوُجِّهَتِ التُّهَمُ إلى كثيرين ممّن كان يُساندهم، وحتى مِمَّنْ اشْتُبِهَ بمساندتهم وهو بريء. فقد حَصلتْ لصديقي عليّ الكيا الهراسي نَكبةٌ، وأُشيعَ عنه بأنّه باطني إسماعيلي، يَرَى رَأْيَهُم. والحقّ أنّ الإسماعيليّة كانوا يقومون بالدعاية لمذهبهم ويَحْدِبُونَ على الطلبة، فقد يَعْرِضُ للبعض مخالَطَتُهم من غير ترتيب منه ولا تخطيط. وقد سبق أن زُرتُ إحدى قِلاعِهم مع الكيا ونحن فتية، إلّا أنّ الرجُلَ دَرَس معي على أستاذنا الجويني، وطَرَحَ كُلَّ ما يَرْبِطُهُ بهم. ولكنّ الحسدَ كان السببَ في إثارة هذه التهمَةِ ضِدَّ الكِيَا، عِلْمًا أنَّ مَنْ وَشَى به احتالَ في الكيد له لموافقة اسمه لاسم

داعيتِهم في خراسان، الحسنِ بن الصبّاح، الذي كان يُعرَفُ أيضًا بالكِيا. ولعلّ المناظرات التي كان يُجريها الهراسي مع خصومه هي التي سبَّبَتْ له هذه النكبة، فقد كان يُناظر الحنابلةَ وغيرَهُم كثيرًا حتى قال له مَرَّةً أبو الوفا بن عقيل الحنبلي بعد أن أَفْحَمَهُ بالحجّة:

اِرْفِقْ بِعَبْدِكَ إِنَّ فِيهِ يُبُوسَةً جَبَلِيَّةً، وَلَكَ العِراقُ وماؤُهُ

فلمّا سمعتُ بهذه المحنة تَوَسَّطْتُ وغيري للهراسي، وذَكَرْتُ عنه لِأُولي الأَمْر ما أَعْرِفُ عن عِماد الدين من سَمْتٍ حَسَنٍ، ولطافة في المناظرة، وعِلم صحيح، وعقيدة سليمة، ودفاع عن مذهب أهل السنّة والجماعة، وأنّه من فحول العلماء، فقهًا وأصولاً وجدلاً وحفظًا لمتون أحاديث الأحكام. ورغم ذلك، بقيَ مُدَّةً وهو في كُرْبَةٍ ممّا نَمَا له مِنْ فِتْنَةٍ هائلة، حتى بَلَجَتِ الحقيقةُ وظَهَرَ الاشتباهُ وفُرِجَتْ كُرْبَةُ شَمْسِ الإِسْلام، لمّا تدخَّلَ الخليفة المستظهر أخيرًا لصالحه واستخلصه من هذه المحنة، وشهد له بصحّة الاعتقاد.

ولم تَكَدْ تَحُلُّ سنةُ أربع مائة وخمس وتسعين حتى بلغتنا أخبار وفاة المستعلي بالله بن المستنصر بالله العلوي، صاحب الخلافة الفاطميّة في مصر. وولي بعده ابنه الآمر بأحكام الله، وهو ابن خمس سنين. وقام بتدبير دولته الأفضل ابن أمير الجيوش.

ثم عَقَدَ بركيارق الصلْحَ مع أخيه محمّد، واتَّفَقَا أن يكونَ بركيارق السلطان، ومحمّد الملك، واقتسما البلاد بعد أن سئم الناس معاركهم ونهبهم. لكنّ ذلك لم يدم طويلاً، فعادا إلى الحرب، وانهزم السلطان محمّد.

طاسين الفهم

انصرفتُ إلى الذكر والخلوات وتدريس العلم والتأليف. «وكانت حوادث الزمان، ومُهمَّات العيال، وضرورات المعيشة، تُغيِّرُ فيَّ وجهَ المراد، وتُشوِّشُ صفوة الخلوة. وكان لا يصفو الحال إلّا في أوقات متفرّقة. لكنّي مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني العوائق وأعود إليها». فكنت أشكو إلى مولاي بقصيدة المنفرجة:

يَـا نَـفْـسُ وَمَـا لَـكِ مِـنْ فَـرَجٍ إِلَّا مَـوْلاَكِ لَـهُ فَـعُـجِ
وَبِـهِ فَـلُـذِي وَبِـهِ فُـوزِي وَلِـبَـابِ مَـكَـارِمِـهِ فَـلِـجِـي
كَيْ تَنْصَلِحِي كَيْ تَنْشَرِحِي كَيْ تَنْبَسِطِي كَيْ تَبْتَهِجِي
وَيَـطِـيـبُ مُـقَـامُـكِ مَـعْ نَـفَـرٍ أَضْحَوْا فِي الحِنْدِسِ كَالسرَجِ
وَفَّـوا للهِ بِـمَـا عَـهَـدُوا فِـي بَـيْـعِ الأَنْـفُـسِ وَالـمُـهَـجِ

دمت على هذه الحال مدّة طويلة، وانكشف لي في أثناء هذه الرياضات والخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها.

وقد «علمتُ يقينًا أنّ الصوفيّة هم السالكون لطريق الله خاصّة، وأنّ سيرتَهم أحسنُ السير، وطريقَهم أصوبُ الطرق، وأخلاقَهم أزكى الأخلاق. بل لو جُمع عقلُ العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليُغيِّروا شيئًا من سِيرِهِمْ وأخلاقهم، ويبدِّلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً فإنّ جميعَ حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسةٌ من نور مشكاة النبوّة؛ وليس وراء نور النبوّة على وجه الأرض نورٌ يُستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتُها، وهي أوّلُ شروطها، تطهيرُ القلب بالكلّيّة عمّا سوى الله تعالى، ومفتاحُها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراقُ القلب بالكلّيّة بذكر الله تعالى، وآخرُها الفناء بالكلّيّة في الله تعالى. وهذه آخرها بالإضافة إلى ما لا يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي على التحقيق أوّل الطريقة، وما بَعْدَ ذلك كالدهليز للسالك إليه.

ومن أوّل الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنّهم في يقظتهم يشاهدون الملائكةَ، وأرواحَ الأنبياء ويسمعون منهم أصواتًا يقتبسون منها فوائد. ثم يترقّى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نِطاقُ النطق، فلا يحاول مُعَبِّرٌ أن يُعَبِّرَ عنها إلّا اشتمل لفظُه على خَطَإٍ صريح لا يمكنه الاحتراز منه».

كنت في غاية السعادة لأنّ الله اجتباني واصطفاني، وسلكني في زمرة أهل الحقّ ونُثارَة أَكْمَلِ الخلق، ولم يتركني مع أهل الحجاب الذين قنعوا من الدنيا بالمال والجاه وطلب العلم الذي يُرجى منه الجاه، لا العلم الذي يُفضي إلى إسقاط الجاه. أكببتُ على العلم والتأليف، أَكتبُ شهادتي للعالمين، وأُكمِل مشروع حياتي لِلَّاحِقين. وتحقَّقْتُ يقينًا أنّ من لم يَخُضْ لُجَّةَ الحقائق ويَكْرَعْ من مائها المطلق الدافق، لم يَعْرِفِ الله حقَّ معرفته. فلا كلام ولا أحلام لمن لم يذق من كأس المحبّة الصافي. وكيف يَعْرِفُ النبوّةَ والنبيَّ، والولايةَ والوليَّ؟ وليس له ذوق، فيما يقول السادة الكرام عن أنفسهم، ويخبرون بإخباراتهم الربّانيّة وأحوالهم العَلِيَّة وحقائقهم الإِلَّيَّةِ السَّنِيَّةِ. فبداياتُ الأنبياء نهاياتُ الأولياء، فمن لم يَحْظَ بصحبة نبيّ، فليلزمْ ميراثَه في وليّ. ولِمُنْكِرٍ أن يُنْكِرَ ما نَقول، وله العذرُ على ما يقول، وكيف يُصَدِّقُ وهو عاطل من حِلية الاعتقاد في الولاية، ولم يَخضْ تجربةَ البداية، فأحرى أن يصلَ إلى النهاية. لا يَدخُلُ غِمارنا ولا يَسيحُ في ميداننا إلّا من عَرَكَتْهُ المجاهدات، وصَقَلَتْهُ المشاهدات، وانْتَظَمَتْهُ المكاشفات، فعلمُه عن يقين، وحالُه عن يقين، وتجربتُه ناطقة، ونفسُه سابحة دافقة. ومن أراد النجاةَ فعليه بصحبة الأخيار والصدِّيقين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، فسوف يرى عَجَبًا، وينتهي نبيهًا أَرِبًا. ومن عَدِمَ الذوقَ، عليه بمجالسة أرباب الذوق، فليسمع منهم ولْيَرْوِ عنهم، ولا يسخرْ من ولههم ووَجدهم، ولا يُنكرْ مقالاتهم ممّا انتهى إليه علمُه، وليعقِدْ ضميرَه على أنّ الاعتقاد

ولاية، فمن لازمها انكشفَتْ له الحجب، وسُلِكَ في سِلْكِ المحبوبين والأصفياء، فهم القوم لا يشقى جَليسُهم.

دخلت الخلوة مرّة، فرأيت نفسي صورةً حقيقيّة لمفتتح سورة النمل، ولبستُ ثلاثَ خِلَعٍ، الخِلْعَة الأولى للعفريت، تحقَّقْتُ فيها بأسماء الأفعال من «طا»، ثم لبستُ الخلعة الثانية للذي عنده علم من الكتاب، وترادَفَتْ عليَّ أسماء الصفات السبع، السميع البصير المتكلّم القدير المريد العليم، وأخيرًا الحيّ من «سي»، ثم لبستُ الخلعةَ الثالثة السليمانيّة، فتخلَّقْتُ باسم الذات، الله، من «ن» ثم تلوتُ قوله تعالى ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي آَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾. فلمّا خرجتُ من الخلوة جلستُ إلى أصحابي، وكان من بينهم شابّ، تفرَّستُ فيه مَخَايِلَ النَّبَاهَةِ والولاية، فحَكَيْتُ لهم الرؤيا وعَمَّيْتُ عن صاحبها، وسألتهم قائلاً: أخبروني يا سادة، لقد ذَكَرَ العفريتُ أنّه يستطيع أن يجلب عرشَ بلقيس قبل قيام سليمان عليه السلام من مقامه، وذَكَرَ الذي عنده علمٌ مِنَ الكتاب، وهو من أولياء أمّة سيّدنا سليمان عليه السلام، أنّه بإمكانه أن يُحضِر عرشَ بلقيس قبل أن يَرْتَدَّ طَرْفُ سليمان، فلنفترض أنّ الواقعة نفسها وَقَعَتْ في أُمَّةِ سيّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام، فماذا كان يستطيع أن يَفْعَلَ وَلِيٌّ محمّدي،

أَكْمَلَ مِنْ إحضار عرش بلقيس قبل ارتداد الطرف؟ إذ لا بدّ من ظهور مَزِيَّةِ وَرَثَةِ المصطفى على ورثة غيره من الأنبياء والمرسلين.

اِسْتَهْالَ الحاضرونَ هذا الاحتمال العجيب، وعلِموا أنّ تحرير السؤال دليلٌ على الوِلاية الكبرى، فأحرى الجوابَ عنه، وسكتوا جميعًا، حتى نطق أحد تلامذتي من الأشراف، اسمه عبد القادر الجيلاني فقال:

حين يَرْتَدُّ الطَّرْفُ تَنْسَدِلُ الأَجْفَانُ، فتَنْحَجِبُ العينُ عن العينِ فَتُولَدُ عَوَالم وتموتُ أخرى، وهذا عين الحجاب عن الحقّ وشؤونه. وبقدر انْسِدَال الجَفْنِ على العين في ارتداد الطرفِ يكون قد فَاتَ مِنَ العِلْمِ بالله بقدر ذلك الانسدال. ولا معنى هنا للزمان عند مالك الزمان، فاللحظة والطرفة في هذا الشأن كمسيرة خمس مائة عام. أمّا الوليّ المحمّدي فهو في عَيْنِ التكوين لا يَطْرِفُ أبدًا، إذ به يكون ذلك الإتيان، فلا قبليّة ولا بعديّة ولا زمان في ذلك الأوان سوى عين الأمر ذاته.

ثم أخذه حال عجيب فأنشد:

فَمَا بَيْنَ **إِطْبَاقِ الجُفُونِ وَفَتْحِهَا** جِبَارٌ كَسِيرٍ وَانْفِكَاكُ أَسِيرِ[1]

(١) حين كنت أكتب هذا الحوار الأدبي المتخيّل، المقتبس من حادثة واقعيّة حَصَلَتْ لأحد المنتسبين في زماننا، أَلْفَيْتُ نفسي أُدَنْدِنُ فجأة بهذا البيت، ففطنت إلى ما فيه من الدلالة على ما كنتُ أكتُبه. ثم علمت بعد ذلك بأنّ هذا البيت هو للشيخ عبد القادر الجيلاني. فتعجَّبت وحمدتُ الله أن أجراه على لساني من غير تَعَمُّلٍ منّي في هذا الموقف الروحاني المناسب (الكاتب).

فتحتُ عينيّ في الشابّ المتكلّم وسرى السِّرُّ بيننا، وعلمتُ بالمكاشفة ما كان عليه الأمر، فلقد أبان وأجاد بهذه الدرَّة العجيبة والجوهرة الفريدة التي لا يُحَرِّرُها إلّا مَنْ غَرَفَ مِنْ بحر النُّبُوَّةِ الزخَّار. وكيف لا، وهو الغُصْنُ الرطيب من دَوْحَةِ النبوّة السامقة.

ثم قلت: صدقتَ يا أخي، فمن نقائِصِ العين أنها لا تُبصِرُ نفسَها، ولا تُبصِرُ القُرْبَ المُفرِطَ ولا البُعْدَ المُفرط، فارتداد الطَّرْفِ مُؤْذِنٌ بالحِجَاب ومُبْعِدٌ عن حضرة العين التي لا تَرِفُّ ولا تنام.

جعلك الله بَازَ الحَقائِقِ الأَشْهَب، الذي إنْ طَلَعَ في سماءِ الولاية خَرسَتْ عَصَافِيرُ الطريق، وحقَّقَنَا وَإِيَّاكَ بِدَوَام المُشَاهَدَةِ واليقظة، حتى لا نَلْتَفِتَ عن ذلك الجَنَابِ الأَقْدَسِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ولا أَقَلَّ من ذلك.

أَمَّنَ الشابُّ على دُعَائِي، وكان يجلس إليَّ في تلك الأيّام يَغْرِفُ من بحر الولاية، ثم سألني يومًا عن الحلّاج، فأجبتُه قائلاً: إنّ الموجودَ الحقَّ، والنورَ الحَقَّ هو اللهُ، وقد تَرَقَّى العارفونَ مِنْ حَضِيضِ المجاز إلى يَفَاعِ الحقيقة، واستكمَلوا معارِجَهُمْ فَرَأَوْا بِالمشَاهَدَةِ العِيَانِيَّةِ أَنْ ليسَ في الوجود إلّا الله سبحانَهُ وتعالى، وأنّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، أزلاً وأبدًا. ومنهم من كانت له هذه الحالة عرفانًا علميًّا، ومنهم من صار له ذلك حالاً ذوقيًّا. وانتفَتْ عنهم الكثرةُ بالكلِّيَّةِ، واسْتُغْرِقُوا بِالفَرْدَانِيَّةِ المَحْضَةِ، واسْتَوْقَفَتْ فيها عُقولُهُمْ فَصَارُوا كَالمبهوتينَ فيه، ولم يبق فيهم مُتَّسَعٌ لا لذكرِ غير الله، ولا لذكر أنفسهم أيضًا. فلم يكن عندهم إلّا الله،

فَسَكِرُوا سُكْرًا وَقَعَ دُونَهُ سُلطانُ عُقُولِهِمْ فقال بعضُهُمْ: أنا الحقُّ. وقال الآخر: سبحاني ما أعظم شاني. وقال الآخر: ما في الجُبَّةِ إلّا الله. وكلامُ العُشَّاق في حَالَ السُّكْر يُطْوَى ولا يُحْكَى. فلمّا خَفَّ عنهم سُكرُهُم، ورُدُّوا إلى سلطان العَقل، الذي هو ميزانُ الله في أرضه، عَرَفُوا أنَّ ذلك لم يكن حقيقةَ الاتّحاد، بل يشبهُ الاتّحاد. وهذه الحالةُ إذا غَلَبَتْ سُمِّيَتْ بالإضافة إلى صاحب الحالة فناءً، بل فَنَاءَ الفَناءِ، لأنّه فَنِيَ عن نفسه، وفني عن فنائه. وتُسمَّى هذه الحالة بالإضافة إلى المُستَغْرِقِ به بلسان المجاز اتّحادًا، وبلسان الحقيقة توحيدًا». وقد قال الجنيد الذي تُوفّي قبل صلب الحلّاج بثلاث عشرة سنة: «كلُّ أَحَدٍ حَلّاج، لكن ليس كُلُّ أَحَدٍ خَرَّاجٌ». فالبحر الذي دخله، رحمة الله عليه، بحر خِضَمٌّ، فغرق بين أمواجه.

فقال الشابُّ، وقد أخذه حال عجيب، أدهشني: عَثَرَ الحَلَّاجُ ولم يَكُنْ في زَمَانِهِ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ، ولو أَدْرَكْتُهُ لَأَخَذْتُ بِيَدِهِ.

تعجَّبَ الشابُّ من نفسه يقولُ هذا الكلامَ، وسارعَ إلى وضع يده على فمه في حركة سريعة، وبدا عليه أَثَرُ المفاجأة، فكأنّما نطق به ناطق، أو **انْذَكَرَ** به هذا الكلام من غير تَعَمُّلٍ منه ولا إرادة. فهمتُ عنه وقلتُ له: صَدَقْتَ يا أخي، لا بُدَّ من ميزان الشرع في هذه الحقائق، ولكنّ المحبَّ إذا أحبَّ هام في حبّ حبيبه، وتلك وردةٌ تُشَمُّ ولا تُفْرَكُ.

حمدتُ اللهَ أن جعل في تلامذتي مَنْ يَفْهَمُ عنّي حتى كأنّه

لساني في ميدان الحقائق. فقلتُ، وقولي وكلامي له، ولكلّ سامع: يا عبدَ القادر، كَمْ مِنْ سَاكِتٍ والناطقُ به غيرُه؟ وكَمْ مِنْ نَاطِقٍ والكلامُ لغيره؟ وكم من ناطقٍ والنطقُ فيه؟ وكم من ناطقٍ والنطقُ لديه؟ وكم من ناطق والنطقُ به؟ ثم كم من صامتٍ والصمتُ نطقُه؟ وكم من صامت، والأخرس أنطقُ منه؟ تفاوتَ عباد الله في كلّ ذلك وظهرت مراتبهم. ولقد ينطقُ واحد بعد زمان من استعدادِ همَّةٍ آخر للكلام بلا كلام. لكنَّ زماني زمانُ الكلام، فلا بُدَّ للأُمَّةِ مِنْ ناطق باسمها، وقد نطقْتُ كما أنطقني المولى، وأخرسني كما حصل لي في بغداد حتى سُلِبْتُ كلَّ قدرة على النطق، يا عبد القادر. فسبحانَ مَنْ أَخْرَس، وسبحانَ من أنطق، وسبحانَ مَنْ بِهِ النطْقُ وبه الخَرَسُ.

وتَعْسًا لأُمَّةٍ خَرْسَاءَ، لا ناطقَ فيها ولا ناطقَ بها وعَنْهَا. فالقولُ الإلٰهي يُنْتِجُ الوجودَ، والكلامُ الإلٰهي ينتجُ العلمَ. وأُمَّةٌ بلا قَوْلٍ، أُمَّةٌ بلا وُجُودٍ، وأُمَّةٌ بلا كَلامٍ، أُمَّةٌ بلا عِلْمٍ. ومن كان بلا قول ولا كلام، أي بلا وجود ولا علم، فَهُوَ والعَدم سِيَّان. وقد قَيَّضَ الله لهذه الأُمَّةِ القولَ والكلامَ، إن هي تمسَّكَتْ بهما حُفِظَتْ وحَفظَتْ غيرها، وإن كانت الأخرى، فَعِنْدَ ربِّكَ المُلْتَقَى، وسيسأَلُهَا عن تضييع القول، وتضييع الكلام. جعلنا الله ممَّنْ سمع فوعى، وتكلَّم فَوَفَى. وكيف ينتهي كلام من نطقَ بكلام من لا يحويه مكان ولا يَحُدُّهُ زمان؟

نظر إليَّ عبد القادر وأنشد:

على الدُّرَّةِ البَيْضَاءِ كانَ اجْتِمَاعُنَا وَفِي قَابِ قَوْسَيْنِ اجْتِمَاعُ الأَحِبَّةِ

فأجبتُ: لقد عَقَلْتَ عنّي يا عبدَ القادر، ولا يخفى عليكَ أنّي كنتُ أخاطِبُ القلوبَ الحيَّة في الأُمَّةِ في كلِّ زمان، لا حياةَ لهذه الأمّة إلّا في قولها وكلامها. وقد أرادَه الله بالحَرْفِ العربي القرآني الوجودي، فَمَنْ زَاغَ عن السبيلِ وَاتَّبَعَ بُنَيَّاتِ الطريقِ وَلُسَيْنَاتِ الأُمَمِ، فَقَدْ حَصَلَ في خِضَمِّ البَلْبَلَةِ، وَضَلَّ ضَلالاً بعيدًا. لُحْمَةُ الأُمَّةَ في دينها، ودينُها بلسانها، ولسانُها ناطقٌ بكتابها، وكتابُها مُتَرْجِمٌ عن القول الإلٰهي، والقولُ الإلٰهي أَوْجَدَ الوجود. فمن كان يريد الوُجودَ عَلِقَ بِلِسَانِ الوُجُود.

اهتَزَّ عبدُ القَادِرِ لهذه الترْنِيمَةِ الوُجُودِيَّة فصاح بلسان الحال:

لَوْحُ الوُجُودِ بِصَدْرِنَا مَحْفُوظَةٌ وبِسَعْدِنَا فِيهِ جَرَتْ أَقْلامُنَا

قَدْ قَالَ لِي رَبُّ البَرِيَّةِ لا تَخَفْ قُلْ مَا تَشَاءُ فَأَنْتَ مِنْ أَحْبابِنَا

ثم توادعنا أملاً في لقاء مرتقب.

طاسين التجديد

في سنة ٤٩٨، تُوفّي السلطان بَرْكِيَارُق بْنُ مَلِكْشَاه، شابًّا، وكان قد عَهِدَ، قبل وفاته بقليل لولده، المسمّى باسم جدّه ملكشاه بولاية العهد، وهو صبيّ ابن أربع سنين، لكنّ السلطانَ محمّد قصد بغداد طلبًا للسلطنة بعد وفاة أخيه، فخُطِبَ له هناك، وانعقد الصلحُ مع أمراء أخيه بركيارق. أمّا الباطنيّة، فقد عاثوا في الأرض فسادًا حتى قطعوا الحجّ خلال هذه السنة في بلاد ما وراء النهر وخراسان والهند، وقتلوا جمعًا كبيرًا من الحجّاج وسلبوهم أموالهم وأمتعتهم. كما اغتالوا أبا جعفر المشّاط، وهو من شيوخ الشافعيّة، حين قتله أحد فتيانهم لمّا نزل من كُرسيِّ التدريس في مدينة الريّ. أمّا الفرنج، فقد كانت بينهم وبين المسلمين وقائع في حلب ودمشق، ومع أهل مصر. ثم استتبَّ الأمر بعد ذلك في أصبهان، وعمَّ الأمن بنزول السلطان محمّد فيها.

أمّا في خراسان، فقد تَولَّى فخرُ الملك، ابن نظام الملك،

الوزارةَ لدى سنجر، سلطان خراسان، فاستدعاني الوزيرُ للتدريس في نظاميّة نيسابور، لِمَا كان بيننا من المودَّة في حياة والده. توقَّفتُ في الأمر، وكنت قد أَلِفْتُ العزلةَ والخلوةَ. أَلحَّ عليّ السلطان بعد شُيوع الفتن، وألزمني إلزامًا بالنهوض للتدريس في نيسابور بعد شيوع الضلالات، فماذا تُغني العُزلة والخلوة، والخَلْقُ في غُمَّة؟ لقد عمَّ الداءُ وأُصيبَ الأطبَّاءُ، فكيف تُجَوِّزُ يا أبا حامد الخلودَ إلى البطالة والاشتغالَ بنفسِكَ عن إِسْعَافِ الخلق؟ تعلَّلْتُ مِرارًا للوزير حتى كاد التعلُّلُ أن يُفضي إلى وَحْشَةٍ بيني وبينه، مع ما فَرَطَ بيننا مِنَ الصداقة والمحبَّة والإحسان، فَتَيَقَّنَ لي أنَّ ما ترخَّصتُ به سابقًا لم يَعُدْ قائمًا، وأنّي اشتغلتُ حَدَّادَ نفسي مُدَّةً كافية، صَقَلْتُ فيها معدني الخَسيسَ حتى عاد مثل الذهبِ النفيس، وقرأتُ قوله تعالى ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾. فَأَقْنَعْتُ نفسي أنّ هذه الفتنةَ الجديدة فيها الكثير من الخير والبركة على الأُمَّة. ثم شاورتُ جماعةً من أرباب القلوب والمشاهدات، فنصحوني بترك العُزلة والزاوية، والتصدُّرِ للتدريس والعلم. ثم ترادَفَتْ على أصحابي مَناماتٌ كثيرة، وكلُّها تَحُضُّ على تَرْكِ ما كنتُ عليه مِنَ الاستيحاش مِنَ الخلق، والإقبالِ على ما دعاني له الوزير. ثم جاءتني بِشاراتٌ أخرى مِنْ بعض الصالحين، بما في هذه الحَرَكَة من الخير والرشاد على رأس هذه المائة الخامسة. وقد وَعَدَ الله على لسان نبيّه بإحياء دينه على رأس كلّ مائة. وأشارتِ المنامات كلُّها إلى حُجَّةِ الإسلام، صاحبِ الإحياء، ولم يكن في الدنيا مَنِ انعقَدَ عليه الإجماع بذلك. فسلَّمتُ

أمري لله، وانطاعَ لي قلبي، وانْكَتَبَ بذلك أمري. تفاءلتُ خيرًا بهذه البشارات وعزمتُ على المسير إلى نيسابور في ذي القعدة سنة تسعٍ وتسعينَ وأربعِ مائةٍ.

عدتُ إلى بيتي وأخبرتُ زوجتي بالأمر الجديد، فاستبشَرَتْ خيرًا وسُرَّتْ بذلك سُرورًا لأنّنا سنعود إلى المدينة التي تحابّنا وتزوَّجنا فيها. وقلت لها: يا حوّاء، لقد رجعتُ إلى العلم، وليس في الأمر رجوعٌ البَتَّةَ، فإن كنتُ في مُستهَلِّ عُمْري أنشرُ العلمَ الذي يُطْلَبُ به الجَاه، وأدعو إليه بقولي وعَمَلي، وكان ذلك قصدي ونِيَّتي، فإنّي اليومَ أَنْشُرُ العلمَ الذي يُطْلَبُ به إسقاطُ الجاهِ، فما ثَمَّةَ رُجوعٌ أصلاً ويَعْلمُ الله أنّي لم أَتحرَّكْ لكنّه حرَّكني، وأنّي لم أَعمَلْ لكنَّه استعمَلَني، فأَسأَلُهُ أن يُصلِحَني ويُصْلِحَ بي. لقد كنتُ سابقًا أُفَكِّرُ بعقلي، وأَعقِل به، وأَنْسُبُ كلَّ شيء مِنْ ثَمَرَاتِ مداركي إلى مداركي. وأنا اليومَ بخلافِ ذلك، فإنَّ فكري وذكري وكتبي كلُّها مِنَحٌ وعَطايَا ومَوَاهِبُ. فإن قلتُ ذَكَرْتُ أو حَفِظْتُ، فإنّما قصدي أَنّي **انْذَكَرْتُ** هناكَ أوِ **انْحَفَظْتُ** هنالك، وإن قلتُ قد فكَّرتُ، فلا أعني بها اليوم إلّا أنّي **انْفَكَرْتُ**. ثم إن ادَّعيتُ سابقًا أنّي كتبتُ، فقولي اليوم أنّي قد انْكَتَبْتُ. لم أعد قلمًا مُفيضًا، بل لَوْحًا خَفيضًا. وعلى الجملة، فإن كنت أعتقد أنّي كنت فاعلاً، فإنّي اليوم أَتبرَّأُ من ذلك الاعتقاد، وأؤمن أنّي منفعل، لا حول لي ولا قوّة، فأحقرُ ذَرَّةٍ في الوجود تُحَرِّكُني ولا أَمْلِكُ أَنْ أَدْفَعَهَا فقالت لي حوّاء: ألا تخشى أن يقول عنك البعض إنّ عقل الغزالي قد استقال، أو إنّك تُبَشِّرُ وتدعو إلى **عقل مستقيل**.

سيكون جوابي لهم: إنّ العقل لا يَسْتَقِلُّ بإدراك كلِّ شيء، بل لا يَسْتَقِلُّ بإدراك شيء أصلاً، إلّا إذا نفحه القرب بمادّة الوصول إلى مَراقي العُروج. وبدل أن يَتَشَيَّأَ الإنسان إلى مَدارِكَ مُتشاكسة، فمذهبي أنّ الإنسان، بلسان أهل البصائر، دُرَّةٌ بَيْضَاء وَزَبَرْجَدَة خَضراء ويَاقُوتَةٌ حمراء. وهو السِمْسِمَةُ المُلقاة في فَلاةِ الوجود، والنخلةُ الشامخة من عَلياء الإمداد والجُود. وبلسان الحكماء، هو العقل الأوّل والقلم الأعلى. فَمَنْ رَكِبَ النورَ استَفَادَ السرور والحُبور. والعقلُ مركبة مِنْ مَراكب الإدراك يستَقِلُّها الإنسانُ ليسافرَ بها، فإن عَدِمَتِ المَادَّةَ المحرِّكةَ توقَّفَتْ به في أيِّ مَنْطِقَةٍ، فلاةً كانت أو يَبَابًا. ومن يَضْمَنُ له أَنْ سيصلُ إلى غايته؟ وإن استَقَلَّ مركبةً أخرى تمشي بالنور، فإنّها ستصل به في لمح البصر، من دون أن يَستقِيلَ عَقْلُه، بل يكون إمدادُه بالسدادِ، وتأييدِ الروح القُدسي، ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وتكونُ نَفحاتُ القُرْبِ مُحرِّكًا له للوصول إلى بلاد لم يَطمَعْ أن يَصِلَهَا يومًا. هناك يتحرَّرُ العقل من عِقَالِهِ، ويتحَوَّلُ عَيْنًا للباطن تُبْصِرُ سَنَا الأنوار. هذا هو عَقْلُنا المسَدَّدُ والمُؤَيَّدُ بِنُور الشرع، الذي هو وراء طَوْرِ عالَم العقل عند عامّة العقلاء.

فقالت حوّاءُ: نحن معاشر النساء أَمْيَلُ إلى هذا النوع من التفكير، لأنّنا ألواح طاهرة، يُكْتَبُ فيها بالأقلام السَّنِيَّة، ففطرتُنا أقربُ إلى القَبول والانفعال. وقد أشبَهْنا في ذلك الملائكة. في حين أنّ لعَامَّة الرجال، عدا الأنبياء والأولياء والصالحين، شُفوفًا وتطلُّعًا إلى الفِعل والدعوى، مثل الأبالسة والشياطين. وإنّي

أُوافِقُكَ الرأيَ يا غَزَالِي على أنّ العقل لا يستقِلُّ بمعرفَةٍ أصلاً، بل تُمْطِرُهُ سَماءُ الأَنْوَاءِ بأمطار المعارف. فمن أين جاءته تلك المكاسب؟ أَمِنْ عَقْلِهِ، وهو عاجز عن إيصال العلوم والمعارف إلّا عَبْرَ نَوَافِذِ الحَوَاسِّ. فلماذا يَدَّعي استقلالاً عن مملكة المدارك حين تتضافر هذه الخُدَّام على إيصالها إلى النفس الناطقة؟

سُرِرْتُ بهذا الفَيْض الحَوَّائي، وحَرَّكْتُ رأسي بالإيجاب ثم نهضنا نتَجَهَّزُ للسفر. قصدنا نيسابور ونزلنا في عُشِّ الغرام، ومَأْوَى الهدهد والبَازِ والطاووس والحَمَام، في بُستان المعرفة وخزانة العلم وصُندوق الإِحْكَام.

اجتمع إليَّ الطلبةُ والعلماء من كلّ حَدْبٍ وَصَوْب، بعد أن تسامع الجميع بخروج الإمام من عُزلته وتَصَدُّرِهِ للعلم من جديد. لكنّي افتتحتُ الدروس بصورة غير معهودة لِمَا كانت عليه من قبل. ثم أقبلتُ على التأليف، فأَلَّفْتُ المستصفى في علم الأصول: وهو كتاب بديع في موضوعه، إذ أَسَّسْتُ الفقه على المنطق، فأحدَثْتُ نَقْلَةً جديدة في الدراسات الفقهيّة منذ الإمام الشافعي، رحمة الله عليه، حتى لُقِّبْتُ بالشافعي الثاني. ثم أَلَّفْتُ كتابًا آخر حول الأسماء الحسنى، أسميتُه المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. وكنت أُدَرِّسُهُمَا في نظاميّة نيسابور. كما أَلَّفتُ رسالة بديعة أسميتُها مشكاة الأنوار، شرحت فيها آية النور والحديث المشهور «إِنَّ لله سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ، وإِنَّهُ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كلَّ ما أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ»، قسَّمتُها إلى ثلاثة

فصول، تنبيهًا على أنّ موضوعَها متعلِّق بالنور، وحروفُه ثلاثة (ن و ر). وهي معراج سلوكي وضعتُه للكُمَّل من أصحابنا، والسائرين لبلاد النور. والكاملُ مَنْ لَمْ يُخْمِدْ نُورُ المَعْرِفَةِ لَدَيْهِ نُورَ الوَرَعِ. وهذه الرسالة لم أَكُنْ أُجِيزُ فيها إلّا النابهين من طالبي الكمال. وإنّي أعتبرها تُنَاظِرُ كتابَ الإحياء، إلّا أنّه مبنيٌّ على التفصيل، وهي على الإيجاز والاختصار. فالسلوك المطلوب في الولاية هو السير إلى الحقِّ بمادَّةِ النور. والرسالةُ تُوجِزُ الطريقَ لطالبيه، وتُبَيِّنُ لهم مَحَطَّاتِهِ، ونماذجَ الكَمَالِ فيه، وأنواعَ الحُجُبِ الصارِفَةِ لهم عن الوصول إلى بلاد النور المحض. وليس الأمر مختصًّا بملَّة من الملل، بل جعلتُها لكلّ طالب من الأُمَم. فالعارف في الملّة الخاتمة لا ينحصر بأوهام الحدود، بل هو مُهَيْمِنٌ على كلّ البُدُود، إذ النور إذا أشرقَ عَمَّ الجميع، فلا يُفَرِّقُ بين الأمير والبعير، وبين الرائح والسائح، وبين المُؤْمِن والمُزْمِن، لكنّه يَمْنَحُ على قَدْرِ الصفاء، وقَبول الإناء لِرَحِيقِ النور، فترى الزجاجَ الصافي يُزْهِرُ بذلك النور ويُضاعفه، وترى الزجاجَ الأَكْهَبَ يُخْفِتُهُ حتى تكادُ وَمْضَتُهُ لا تُرَى إلّا لعينِ المُدَقِّق.

ثم كاتبتُ أخي أحمد بكتاب **المضنون به على غير أهله**. فراجعني في مسائل منه بَيَّنْتُ له أمثلةً منها، وجعلته على أربعة أركان، ركن في الربوبيّة، وركن في الملائكة، وركن في المعجزات، وركن أخير في ما بعد الموت والانتقال من الدنيا إلى العقبى. ثم أَلَّفْتُ له عِلْقًا أَنْفَسَ منه هو **المضنون به على أهله**، ضَمَّنْتُ فيه صَرِيحَ الحَقِّ، وأَوْدَعْتُ فيه بعضًا مِنَ الأَسْرارِ التي يَضِنُّ

بها العَارِفُ المحقِّقُ على أهلها غَيْرَةً عليها، حتى يَسْتَحِثَّهُمْ على طلبها مِنْ ذواتهم ذوقًا، فمَا كُلُّ كلام يُقَالُ، كما أَنَّ العِبارَةَ لا تُفِيدُ في التعْبِيرِ عن هذا المقام، بل قد تُفْسِدُهُ، وتَجْلُبُ التهْمَة على **المُتَقَائِل**. وقد أَشَرْتُ إلى بعضها في الإحياء إشارات خفيّة. وإنّي أعترف أنّي التجأت إلى التأويل العقلي فيما أخبر الله به عن نفسه، تأليفًا منّي لأهل الفكر والنظر، وإلّا فإنّ ركوب هذه الموجة مَزَلَّةُ قَدَم، لكن لم يكن في نفسي إلّا هدف واحد، هو استجماع المعرفة بالله في مشروع واحد، فأبقيت على إعمال الفكر والنظر حتى في الإلٰهيّات، مع أنّه لا يُجْدِي ولا ينفع هناك، ثم إنّي كنت أخاطبُ أهلَ النظر، فكان أن أَبْقَيْتُ على ما يعتقدون أنّه الغاية والنهاية في كلّ معرفة، حتى إذا ما انْشَرَحَتْ صدورُهم للإيمان اكْتَفَوْا بعد ذلك بالإخبار الإلٰهي عن ذاته المقدّسة، وتركوا النظَرَ والفِكْرَ لعدم جَدْواهُ ولكثرة الغَلَطِ الناتِج عنه في ذات الله. فالمعرفة بالله لا تكون بالنظر، وإنّما بالتصديق لكلّ ما أخبر به الله عن نفسه ممّا جاءت به الرسل صلوات الله عليهم. فأهل الله توقَّفُوا ولم يتأوَّلُوا الإعلام الإلٰهي حتى أفاض عليهم بإعلام آخر أَوْقَفَهُمْ على حقيقة الأمر وجلِيَّتِهِ، وشَرَحَ صدورهم لتلَقِّي الفهم منه تعالى فَعَرَفُوهُ به لا بنظرهم.

والمنتهى والمقصود هو أَنَّ من تَخَطَّى رِقَابَ الصدِّيقِينَ وَقَعَ في النبُوَّةِ. لكنّ من أَدَّبَتْهُ المعارفُ وحَذَّقَتْهُ العلومُ، أبقى حبلَ الوَصْلِ مُتَدَلِّيًا تحت سَدَفِ الكلام، وراءَ غَزْلٍ رَقِيقٍ لا يَكادُ يُسَام، فلا يَفْطنُ لذلك إلّا مَنْ.، وَمَنْ. ، ومَن. وذلك المنزلُ هو

للمقرَّبين الذين يُلْحِقُهُمْ بالملأ الأعلى، ولا يُدْرِكُهُمُ الصعْقُ. وهم طبقات، وكلّ طبقةٍ لا ذوقَ لها في أذواقِ الطبقاتِ الأُخرى.

أمضيتُ مُدَّةً في نيسابور، بين العلم والتأليف والذِّكر والمذاكرة. والمدينة عجيبة، فقد وصلتني أخبار المناظرة التي حَصَلَتْ بين بديع الزمان الهمذاني، واللغوي الكبير أبي بكر الخوارزمي قبل ما يزيد على قرن بقليل. ولا زال الناس يذكرونها بتفاصيلها، ويحفظون الكثير من مقامات بديع الزمان، وحكايات شخوصها، راوي المقامات عيسى بن هشام، وبطلها أبي الفتح الإسكندري، المتسوِّل المحترفِ للكُدْيَةِ، حتى إنّك تسمع في أوساط النيسابوريّين تلك المقامات البديعة، التي ينتحل الناسُ أدوارَها وكنت أُحِبُّ سماعَها ترويحًا عن النفس، وإحماضًا من الجِدِّ الذي ألزمتُ نفسي به منذ خرجتُ عنّي وعن صفاتي.

وفي سنة ٥٠٠، وصلني خبر وفاة أمير المسلمين وناصر الدين، يوسف بن تاشفين، ملك بلاد المغارب. وكان رحمه الله حسنَ السيرة ممّا بلغني عنه، وقد سبق أن أفتيتُه بوجوب محاربةِ أمراءِ الطوائف الذين شَتَّتوا بلادَ الأندلس إلى دويلات صغيرة، فكانت الحركة التي قام بها مباركة في جمع شمل تلك الممالك، وتوحيدها تحت راية المرابطين. وهم قوم من الملَثَّمين، يعيشون عيشةَ الزهد والشظَفِ.

ثم وقعَتْ فاجعة أخرى، هي مقتل الوزير فخر الملك أبو المظفر عليّ بن نظام الملك يوم عاشوراء، وكان صائمًا. وقد وَزَرَ

للسلطان بركيارق منذ ٤٨٨، ثم فارقه إلى نيسابور، ووزر لأخيه سنجر بن ملكشاه. وقد بلغني أنّه ليلة مقتله رأى في المنام سيّدنا الحسين بن عليّ، عليهما السلام، وهو يقول له: عجِّل إلينا وليكن إفطارك عندنا. واشتغل فكرُه بهذه الرؤيا، فنصحه رجاله بملازمة داره. أمضى فخر الملك يومَه صائمًا، مصلّيًا، تاليًا للقرآن، متصدّقًا. وعند العصر خرج إلى دار نسائه فسمع صوتَ مُتَظَلِّم، يصيح بحُرقة: ذهب المسلمون، فلم يبق من يكشفُ مَظْلَمَة، ولا يَأخذُ بيد مَلهوف. فدعا به فأُحْضِر، ثم سأله عن مسألته، فدفع له رقعة. وبينما هو يقرأ فيها انْقَضَّ عليه المتظلِّم الغادر بخنجر فقضى عليه ومات. وكان هذا المجرم باطنيًّا. وهذه الفرقة الآثمة قد اسْتَعْدَتِ رجالات النظَامِيّة لسياستهم الحازمة حيالها منذ والدهم، نظام الملك، رحمه الله.

لم تكن هذه الأَنباءُ سارَّةً بل كانت مَدْعَاةً لي كي أعتزل أمور الدنيا، فقد كنتُ مطلوبًا لأمر آخر. لم أُغادرِ التدريسَ في النظاميّة إلّا بعد فترة مِنْ مَقْتَلِ فخر الملك، وَتعَلَّلْتُ باعتلال صحّتي. وقد كانت العزلة ورِقَّةُ الحال والتَّقَلُّل من المأكل والمشرب، عواملُ ساعدَتْ على ضعْفِ بُنْيَتِي، فَأُجِبْتُ إلى ما طَلَبْتُ، لمعرفة القوم بما سَلَفَ معي في اعتزال نظاميّة بغداد، فلم يُراجِعْنِي أَحَدٌ في الأمر إلّا بالأدب. وكان هدفي أن أقضي آخر أيّامي في طوس ملازمًا زاويتي، أعلِّمَ طلبتي البرنامج الذي وضعتُه في الإحياء، وَأَلْزَمْتُ نفسي به. لم أَعُدْ أَرْهَبُ هجمات الباطنيّة النزاريّة عليّ، بل أكاد أجزم أنّهم لم يعودوا يَهتَمُّون كثيرًا لأمري. وكان أمرهم قد

استفحل في قلعة شاه دز قرب أصبهان، حيث كان صاحب القلعة، وهو أحمد بن عبد الملك بن عطّاش، يرسل رجاله لقطع الطريق وأخذ أموال الناس، مُستغِلًّا الخلاف الذي كان واقعًا بين السلطانين بركيارق وأخيه محمّد. فلمّا صَفَتِ السلطنة لمحمّد، ولم يبق من ينازعه، عزم على هذه القلعة، فماطلوه مماطلة طويلة بكثرة حيلهم. لكنّه قضى عليهم في الأخير وقطع شَأْفَتَهُمْ، وأُسِر ابن عَطَّاش وسُلِخَ جِلْدُهُ حتى مات، ثم حُشِيَ تِبْنًا، وحُمِلَ رأسُهُ ورأسُ ولده إلى بغداد. أمّا ابن الصبّاح، فكان في قلاعه المنيعة قرب قزوين التي لا يصلها أحد.

ثم جاءني بعض مَهْوُوسِيهِم بأسئلة شَوَّشُوا بها على الناس في همذان، كما بلغني، فقام يسأل، مُظهرًا البراءةَ منهم، مع أنّه مُتَلَبِّسٌ بِنِحْلَتِهِم: مَا قَوْلُ سيِّدِنَا الشيخِ الإمام، حُجَّةِ الإسلام شرفِ الشريعة، مُقتدى الفِرَقِ، إمامِ الأئمّة، في هذه المسائل الأربع التي لبَّس بها هؤلاءِ القومُ الذينَ طَغَوْا في البلاد فأكثروا فيها الفَسَادَ، ومَوَّهُوا بها استجلابًا لقلوب الخلق؟

المسألة الأولى: أليس أهلُ الإسلام مُتَّفِقِينَ على أنَّ الباري جلَّ ذِكْرُهُ، غَنِيٌّ عن كُلِّ شيء. ومع ذلك كلُّهم متَّفِقُونَ على أنّه كلَّفَ العِبادَ العبادَةَ وأَقَرَّ بها، فكيفَ نراكَ نسيتَ بحُجَّة العقل أنّ غَنِيًّا عن كلِّ شيء يُكَلِّفُ مَنْ لا يَحتاجُ إليه، أَنْ يَعْمَلَ عمَلاً هو غَنِيٌّ عنه، بَيِّنْ لي ذلك، لعلِّي أَنْ أكونَ مِنَ العالمين؟

المسألة الثانية: إنّ الله كلَّفَ العِبادَ الطاعةَ ونَهَاهم عن

المعصية ليُثيبَ من أطاعَ ويُعاقِبَ من عصى، وهذا مستحيل جدًّا في العقول. فأيُّ حاجةٍ به إلى معاقبة خلقه حتى يدعوه ذلك إلى أن يُكلِّفَهُم أمرًا إذا لم يأتوه عاقبهم عليه؟ وإن كان لا حاجة به إلى ذلك، فالقول مستحيل جدًّا لا توجبه حكمة. وإن كان تعالى به إلى ذلك حاجة، فما يصنع بالتكليف، وهو قادر على أن يُثيبَ مَنْ يُريدُ، ويُعاقِبَ مَنْ يُريدُ؟ فالتكليف أيضًا حَشْوٌ لا تُوجِبُه حكمة، والحاجة نقص. وإنّه سبحانه وتعالى لا يُنْسَبُ إلى نقص، وهو غنيّ غير محتاج.

المسألة الثالثة: إنّ الله تعالى كلَّفَ العباد الطاعةَ لِيَنْفعَهُمْ بها، أَتُرَاهُ جَلَّ ذكرُه، عجز عن أن يَنفعَهُم بغير التكليف حتى احتاجَ أَنْ يُكَلِّفَهُمْ ثم ينفَعَهُم؟ إن كان غرضُهَ نفعَهُمْ فالتكليف ساقط، وهو حَشْوٌ. وإن كان يَعْجِزُ عن ذلك إلّا بالتكليف، فالقدرة ساقطة والعجز ثابت، وهو محال.

المسألة الرابعة: إنّ الله تعالى لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون. وهذا باب تَحِيرُ فيه العقول: هل يجوز أن يَأْمُرَ حكيم بأمر يَخْرُجُ عن الحكمة ويَنْبُو عنه العقل، ثم يخطرُ على العاقل البحثُ عنه؟ أليس ذلك ضربًا من الجَوْرِ والظلم لأنّه جعل الحُجَّة على هذا الخلق، العقلَ، وأمر أهلَهُ ونهاهُم، وخصَّ غيرَهم مِنَ البهائم على ما خُلِقُوا عليه بالآلات التي خُلِقَتْ لها، وأَلْهَمَ العقلَ استعمالَها بمثل اللِّجام الذي تُرَوَّضُ الدابَّةُ به وغيرِ ذلك من حُبالات الصيد والحِيَلِ المعروفة التي يَطولُ شَرحُها؟ وإذا كانت حُجَّةُ العقل على

المكلّفين والمأمورين والمنهيّين بأمره، ثم يُكلَّفون أمرًا ويُمنعون من الفحص عنه والتماسِ سببٍ يُتَصَوَّرُ به ما يُكلَّفُونه عندهم، ويصحُّ في معقولهم ومعلومهم الذي هو حجّة عليهم: أليس يكون ذلك ظلمًا صريحًا»؟

أجبتُ السائل عن هذه الأسئلة ورددت على كلّ واحد منها، بتنزيه الألوهيّة عن الظلم والعبث، ووضع الإنسان في قلب المسؤوليّة التي عليها مناط التكليف. وبيَّنتُ له أنّ العقلاء قد تحيَّروا في هذه القضيّة التي لا يخرج المرء منها بطائل، إذا أُعمِلَ العقلُ بمفرده دون تنويره بلطائف اليقين والإيمان، ممّا أخبر به الشرع الحكيم ونَطَقَتْ به الآيات البيّنات والبيان النبوي الشريف.

قرَّرتُ أن أبتعد بنفسي عن أهل الأهواء والإنكار؛ إذ لم تكن مصابيحُ قلوبهم مُسْرَجَةً لتلقِّي النور، فانفردتُ بأصحابي وتلامذتي ومَنْ كان على شاكلتي، وهداني الحقّ لفتح مدرسة للطلبة وزاوية محاذية لبيتي. لقد أعيتني السنُون وشَظَفُ العيش فأحسستُ باعتلال صحّتي، ولم تعد لي طاقة على كثرة الأسفار. كانت حوّاء منشرحة لهذا القرار لكي أعتني بها وبالبنات وأسعى في تزويجهنّ. كانت الزاوية التي بنيتُها بمساعدة أصحابي متواضعةً، وهي عبارة عن فناء في وسطه نافورة صغيرة للوضوء، وإيوان جوفي لجهة القبلة، نستعمله للصلاة وإعطاء الدروس وجلسات السماع والذكر. ويحيط بالنافورة من جوانبها خلوات صغيرة بأبواب جدّ منخفضة، معدّة للطلبة، ولمن تَأَهَّبَ لذكر الاسم المفرد. كما جعلت لنفسي خلوة

لا يدخلها غيري، أختلي فيها الليالي ذوات العدد أَتحنَّثُ وأذكر، صائمًا قائمًا ومصلّيًا الفرائض من غير نوافل، مُخَصِّصًا كلَّ أنفاسي لذكر الاسم المفرد واسم الهويّة. ولا شيء سوى هذا يشغلني. فمرّة أقضي يومًا كاملاً، ومرّة ثلاثة أيّام، ومرّة ثالثة أسبوعًا أو عشرة أيّام، أو شهرًا أو أربعين يومًا وهي أقصى مدّة مَكَثْتُهَا في خلوتي **وعُشِّ غرامي**، متمثّلاً بالأبيات التالية:

قد كنتُ أَحْسِبُ أنَّ وَصْلَكَ يُشْتَرَى ... بِنَفَائِسِ الأَمْوَالِ وَالأَرْبَاحِ

وَظَنَنْتُ جَهْلاً أَنَّ حُبَّكَ هَيِّنٌ ... تَفْنَى عَلَيْهِ كَرَائِمُ الأَرْوَاحِ

حَتَّى رَأَيْتُكَ تَجْتَبِي وَتَخُصُّ مَنْ ... تَخْتَارُهُ بِلَطَائِفِ الأَمْنَاحِ

فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لاَ تُنَالُ بِحِيلَةٍ ... فَلَوَيْتُ رَأْسِيَ تحتَ طَيِّ جَنَاحِي

وَجَعَلْتُ في **عُشِّ الغَرَامِ** إِقَامَتِي ... فِيهِ غُدُوِّيَ دَائِمًا وَرَوَاحِي

وكم كنت سعيدًا غاية السعادة بالمشاهدات والمكاشفات التي كانت تحصل لي! فأرى أرواحَ الرسل والأنبياء وأتباحث معهم في شتّى القضايا، ثم أرى الأولياء والملائكة وأذاكرهم فيما يَعِنُّ لي. لقد أصبحتُ جسمًا شفَّافًا مُشِعًّا للنور، بل أصبحتُ عينَ النور، مُكتَنَفًا به من جميع الجهات. وكثيرًا ما كنت أرى نفسي كُرةً من نور، ارتفعَتْ عنّي الجهات وأشباه الهُويَّات، إلّا الهويّة السارية في كلّ شيء، فكنت أدعو بالدعاء النبوي: اللهمّ اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي

نورًا، واجعلني لي نورًا، واجعلني نورًا. فكانت تتراءى لي الهويّة المحمّديّة نورًا في نور. فإذا كان عدد الجهات سِتًّا، فإنّ جهات العبد الكامل، وفق هذا الدعاء الجامع، إحدى عشْرَةَ جِهَة. ومعنى ذلك كما أُخْبِرْتُ به في الخلوة أنّ العبدَ الكامل المطلق لا تَحُدُّهُ الأقطار ولا تَكْتَنِفُهُ الجِهات والأمكنة والأزمنة والأغيار. بل هو مطلق عن القيد، وقيد القيد. فهو على الصورة الإلّيَّة. نور على نور، نور الحسّ ونور المعنى. أو هو نور الأبدان ونور الأرواح. أو هو نور لنفسه ونور لغيره. أو هو نور يبصر نفسه، ونور يبصر غيره. وإذا كانت هويّة سائر الخلائق محدودة بالجهات، فإنّ هويّة هذا العبد فوق الجهات، محفوظة بالنور. ألزمتُ نفسي هذا الذكر واعتبرته أعظم الأذكار. ولا يختصُّ به إلّا الأقطاب الذين عليهم مدار العالم. وقد كنت ذلك المدار، وحجّة الإسلام وزين الدين.

وخلال أيّام خَلوتي بطوس، زارني طالب نبيه من بَدْوِ أهل المغرب، يُدعى محمّد بن عبد الله بن تومرت المصمودي. لزمني ملازمة كبيرة وأخذ عنّي. وذكر لي أنّه أبحر من بلده إلى قرطبة ثم إلى مصر. ثم حجّ ودخل العراق وخراسان حتى وصل إليَّ في طوس. أَكَبَّ على الإحياء يطالعه ويعمل به ويُدرِّب نفسَه على كثرة الخلوات وشظف العيش. وقد رأيت منه عجبًا، فقد كان قَوَّامًا بالليل صَوَّامًا بالنهار، لا يفطر إلّا على كِسرة صغيرة وتمرتين وجرعة ماء، ثم يُواصل الصوم والذكر. فلمّا استوفى، أَمَرْتُهُ بالخروج فخرج إلينا وقد عاد نورًا مضيئًا. لكنّ مَشربَه فيه شِدَّة، فكان كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ممّا أوحش منه

كثيرين ممّن عمَّتهم الرحمة والعطف الإلٰهي. لقد كان ابن تومرت شديدًا، مُتقلِّلاً، منقبضًا عن الخلق، حادَّ الزعَارَة، خَشِنَ العيش، شُجاعًا مِقْدامًا، لا يَرْهَبُ أحدًا ولا يتورَّعُ عن الجهر بما يعتقد، فصيحَ اللسان، صادق الهمَّة، غلب عليه الصبر وتَحَمُّلُ الأذى. تفقَّه عليّ في مذهب الشافعي، مخالفًا أهلَ بلده الذين كانوا على مذهب مالك رضي الله عنه. ثم أخذ عنّي علم الكلام الأشعري. ووجدتُ فيه ميلاً إلى فكرة المهدويّة، إذ كان يعتقد ذلك اعتقادًا راسخًا. وكان كثير المرائي، حتى إنّه حكى لنا أنّه رأى أنّه شَرِبَ ماء البحر كلَّه مرّتين. وسألَ تَعْبِير ذلك، فَعبَّرَ له أصحابُنا بما اهتدَوا إليه، وهو أنّه سيملكُ البحرين، بحر الشريعة وبحر الحقيقة. أخبرني المعبّرون بما ذكروا له، لكنّهم أخطأوا في بيان معنى البحرين، فهداني الله إلى أنّ المقصود هو ملك البلاد المجاورة لبحر الزقاق وبحر الظلمات في حدود المغرب. كان الرجل واثقًا ممّا يريد. ألحّ عليّ في أن أصطحبه هناك بعيدًا عن مشاكل المشرق وعبث الباطنيّة والفِرَق المنحرفة، فذكرت له أنّي غير مراد لذلك. ثم استنصحني، فنصحتُه بأن يبني دولةً في تلك البلاد على أساس كلمة التوحيد، وفق ما درسَه عليّ، وإدخال الإحياء في برنامج الدعوة. وأن يصبر في تبليغ الدعوة وإحياء التوحيد بفقه القلوب. ثم قلت له: واحلُلْ عنكَ رابطةَ التقليد، واجعل الهدايةَ ثمرة بحثك، والاسْتِكْدَادَ في طلب الفهم. واحرص على الانفكاك عن داعية العِنَاد وضَراوة الاعتياد، فإنّهما مَجْلَبَةٌ للفساد والجُمود. ولا تَقْتَدِ بأُستاذٍ دَأْبُهُ نَقْلُ الأقوال من دون أن يَستَقِلَّ برأي، فإنّ إضلالَه

أكثرُ من إرشاده. ولستَ تَعْدَمُ رهطًا من الناس مُسْتَجْمِعِينَ شَرَائِطَ العِلْمِ، لكنّهم سُلِبُوا الإنصاف، فَتَراهُم يَستخرجونَ الأسرارَ مِنْ أَمْثَالِ كتاب الإحياء ثم يُقابلونها بالجُحُود والكِتمان والكُنُود، ويَسْتَدِرُّونَ فوائِدَهُ باطنًا، وتَراهُم في الظاهر يَذُمُّونَ ويُزَمْجِرُون. وكما قال تعالى في سورة **النمل** ﴿وَجَحدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا﴾. سمع الطالب فوعى، والتزم بتطبيق البرنامج وتأسيس دولة التوحيد.

ثم سألته عن بلدته فأخبرني بأنّها تدعى **تينمل**. دعوتُ له وأخذني حال أعقبه وارد عُلْوِي، فقلت له: بعد سنوات ٥٣٠ ستنطلق جيوش دولتك انطلاقًا من بلدتك، تينمل، كما وطئ سليمان وادي النمل مع جيشه، فافهم السرّ في تينمل.

ثم أجزته في الإحياء فاستأذنني في إدخاله للمغرب فأذنت له. وأخبرني أنّ قاضي قرطبة ابن حمدين يُشَغِّبُ عليّ وعلى كتابي الإحياء، ويُوغِرُ صدورَ حُكَّامِ المرابطين على إحراقه وإذهاب أعيانه.

* * *

مكتبة الرحمن أحمد

كنت كثير المرائي والمبشّرات، وحدَث بعضها لأصحابي وطلبتي، وتسامعَ بعضُ المترسِّمةِ بما يخبر به هؤلاء الطلبة من بشارات السماء، فأنكروا عليّ وعلى أصحابي واستعظموا الأمر. وجاءني أحدهم يريد أن يغيّر المنكر في زعمه فقال: ليس لله مِثْلٌ حتى يُرى، فكيف جوَّزت هذه المقالة يا غزالي؟ ولعلّ الشيطان قد لَبَّس عليك.

فقلت له إشفاقًا عليه: لكلّ شيء مثال، وهو غير المِثْل، لأنّ المثلَ أو المثيلَ هو المساوي في كلّ الوجوه والصفات لمن مُثِّلَ به. أمّا المثال، فلا يلزم منه ذلك.

فقال: وكيف ذلك؟

فقلت: هل بإمكانك أن تعطيني مثالاً للعقل؟

فَكَّرَ قليلاً، ثم قال: لم أَجِدْ له مِثْلاً أو مِثالاً

عجبتُ من ضعفه عن الإتيان بمثال للعقل، وتَصُدُّرِهِ للإنكار على تلك الصفة فيما هو أعظم، فقلت له: فأنا أُمَثِّلُهُ لك بالشمس.

فقال: الأمر بعيد جدًّا.

فقلت: هلّا تَرَيَّثْتَ قليلاً؟ فالشمس تكشف المحسوسات والأشياء بنورها، والعقلُ يكشف المعقولات بنوره. فالشمس إذن مثال للعقل. وكيف تنكر قوله تعالى ﴿الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، فأيّ مماثلة بين نوره تعالى والمصباح والمشكاة والشجرة والزيت؟

فالله قد ضربَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً مِنَ المِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

كما ذَكَرَ تعالى القرآنَ ووَصَفَهُ قائلاً ﴿أَنْزَلَ مِن السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾، والقرآن ليس له مِثْلٌ، فأيُّ مناسبة بين صفة الكلام الأزليّة القديمة، وبين مثال الماء؟ والأمر نفسه يُقال عن المنامات التي عَرَضَتْ للنبي عليه الصلاة والسلام، لمّا رأى الإسلام في مثال اللبن، ورأى القرآنَ في صورة القَيْدِ، للمماثلة الحاصلة من أَنَّ التقَيُّدَ به سببٌ للنجاة، كالحبلِ لمن عَلِقَ في مكان عالٍ. والأمر نفسه يُقال بالنسبة للمماثلة بين الإسلام واللبن، لأنّ أحدَهُما غِذاءٌ للأرواح، والآخر غِذاءٌ للأجسام. فهذا وأشباهه ليس بِمِثْل وإنّما مِثَال. فالمثال في حقّ الله تعالى جائز، والمِثْل باطل. وهذا هو الفرق بينهما. فمن قال إنّه رأى الله تعالى في المنام، فمعناه أنّه رأى مثاله لا مِثْلَهُ. وقد يكون ذلك المثال صادقًا وقد يكون غير ذلك. ولا حُجَّة للمُنْكِرِ، لأنّه قد

تواتر عند أئمّة السلف جوازُ رؤيةِ مثالِ الحقِّ في المنام.

فقال ذلك الفقيه: هَبْ أنّنا جوَّزنا هذا الأمر، فإنّه لا يَصِحُّ إلّا بعد إذن منه تعالى.

فقلت: لا شيء من حيث النقل يمنع من الرؤية، يقظة أو منامًا. فهذا جبريل قد تمثَّل في صورة دِحيَة الكلبي، كما أنّه تمثَّل للسيّدة مريم في صورة بشر سَوِيّ. وإن صحَّ هذا، وهو صحيح، فلا مانعَ يمنع من رؤية المثال. فالرائي لا يرى ذاته تعالى، وإنّما يرى مثالاً لها، كما أنّ حقيقة جبريل لم تتغيَّر بتَمَثُّلِه في صورة دحية الكلبي، ولا تمتنع حقيقةُ الملَك عن الإبصار، إلّا إذا خَضَعَتْ لقوانينِ الرؤية في العالم الطبيعي، ولهذا رُئِيَ في صورة إنسان، ولم يُرَ في صورة الملَك. فالمرئي إذن هو المثال، ولا إنكارَ على من جوَّز الرؤية بذلك لأنّ تنزيه ذات الله عن المثال لا يَصحُّ، بل يَصِحُّ من ذلك تنزيهُه عن المِثْل، ولله المَثَلُ الأعلى.

ثم صرفتُ الفقيهَ إلى حال سبيله، فهذه أذواقٌ لا يَعرفُها إلّا أهلُها، ولا تَقْبَلُ المعانَدَة والخصام حولَها، وإلّا ولَّتْ هاربة إلى لطافة عالم الملكوت. والغيرة، كلُّ الغيرة من ابتذالها وكشفها للمنكرين. وهذا من العلم المضنون به على غير أهله، ولا شكّ أنّ مِثْلَ هذا الفقيه ممّن يُضَنُّ بهذا العلم على أمثالهم.

لزمت زاويتي مع أصحابي نمضي وقتنا في الذكر والمذاكرة وختم القرآن، أو أشتغل بالتدريس والتأليف. كما انصرفت إلى دراسة الحديث النبوي الشريف في صحيح البخاري ومسلم دراسة

مستفيضة، وأسأل الله أن يفسح لي في العمر حتى أستكمل الحذق به والتأدّب بآداب البيان المحمّدي.

وكان أخي أبو الفتوح أحمد يزورني مرارًا، ويذاكرني في العلوم والرقائق، حتى إنّه قرَّر تلخيص الإحياء. كما خاطبني بشأن وضع كتاب الذخيرة في علم البصيرة، يريد أن يَبُثَّ فيه ما فرَّقْتُهُ في سائر كتبي. وقد أخبرني بعزمه على تقسيمه إلى أربعة أصول، في معرفة النفس، في معرفة الربّ، في معرفة الدنيا، في معرفة الآخرة. وهذه هي أركان المعرفة. فمعرفة النفس مقدَّمة على معرفة الربّ، مِصداقًا للأثر «من عرف نفسه عرف ربّه». وبعد حصول هذين النوعين من المعرفة، فإنّ المرء يَتَصَدَّرُ لمعرفة السبب من وجود الدنيا حتى يجعل منها مزرعة الآخرة.

مرَّت سنوات قليلة شعرتُ فيها بسعادة بالغة، بعيدًا عن مشاغل الدنيا وهمومها، سوى ما كان بلغني من إحراق كتابي الإحياء في صحن جامع قرطبة بفتوى من قاضيها ابن حمدين. ولا شكّ عندي أنّه كان من بين الناقمين على ما كنتُ أُفْتَيْتُ به يوسفَ بن تاشفين من محاربة أمراء الطوائف. وقد كان كثيرٌ من القُضَاةِ والفقهاء يستفيدون من وجود تلك الإمارات، فلمّا انفرط عِقْدُهَا، قام بعضهم بالدعوة إلى إحراق الإحياء، انتقامًا ممّا أفتيتُ به في تضييع مصالحهم بانقضاء تلك الممالك. تَأَلَّمْتُ لهذا وتعجَّبت لكوني كنت أُستَفْتَى من أمير صالح في هذه الدولة فأصبح يُفتى بحرق كتبي عند خليفة هذا الأمير.

كنت أجلس إلى زوجتي أتباحث معها، وأَحْدِبُ على بناتي بعدما عَمِلْتُ على تزويجهِنَّ لبعض ذوي الفضل، ثم بدأَتْ صِحَّتِي في الاعتلال نتيجةَ التقَلُّلِ من الملَذَّات ولُبْسِ الخَشِنِ من الثياب، وأحسستُ أنّ نهايتي قَرُبَتْ وأنّي مُوَدِّعٌ أهلَ الدنيا كنت أرتقبُ ذلك اليوم بفارغ الصبر للالتحاق بالرفيق الأعلى، فقد أدَّيْتُ ما عليَّ وتركتُ للأمّة كتبًا لم يُنْظَمْ مثلُها من قبل. ثم أنشدت آخِر أبيات المنفرجة:

يَا رَبِّ بِهِمْ وَبِآلِهِمِ عَجِّلْ بِالنَّصْرِ وَبِالفَرَجِ
وَاجْعَلْ ذِكْرَ الإِخْلاَصِ لَنَا مُحْيِي قَلْبًا يَا ذَا الفَرَجِ
وَاخْتِمْ عَمَلِي بِخَوَاتِمِهَا لِأَكُونَ غَدًا فِي الحَشْرِ نَجِي

وفي يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة عام ٥٠٥، الموافق ١٨ من آخر شهر عجمي من سنة ١١١١، لمّا كان وقت الصبح توضَّأْتُ وصَلَّيْتُ وقلت لأهلي: عليَّ بالكَفَنِ فَأَحْضَرَتْهُ لي حوّاءُ باكيةً شاجِبَةً.

أَخذتُه وَقَبَّلْتُهَا ثم قبَّلْتُه ووضَعْتُه على عينيَّ، وترادفَتْ عَلَيَّ اثْنَتَا عَشْرَةَ صورة، يَعْرِفُها أهلُ الله مِمَّنْ بَلَغُوا دَرَجَاتِ الكَمَال:

فكانَ ما كانَ ممّا لستُ أَذْكُرُهُ فَظُنَّ خَيْرًا وَلا تَسْأَلْ عَنِ الخَبَرِ

وقلتُ: سمعًا وطاعةً للدخول على الملك. ثم مَدَدْتُ رِجْلَيَّ واستقبَلْتُ القِبْلةَ وقلتُ: الحمدُ لله. ورأيتُ آياتِ الله فعَرَفْتُهَا، ثم أَسْلَمْتُ الرُّوحَ على سَمَاعِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

للمزيد من الروايات العرفانية تابعوا صفحتنا على فيسبوك مكتبة الرمحي أحمد

حِساب الجُمَّل الكبير

الترتيب النَّفَسي		الترتيب المشرقي		الترتيب المغربي	
ء	١	ا	١	ا	١
ه	٢	ب	٢	ب	٢
ع	٣	ج	٣	ج	٣
ح	٤	د	٤	د	٤
غ	٥	ه	٥	ه	٥
خ	٦	و	٦	و	٦
ق	٧	ز	٧	ز	٧
ك	٨	ح	٨	ح	٨
ج	٩	ط	٩	ط	٩
ش	١٠	ي	١٠	ي	١٠
ي	١١	ك	٢٠	ك	٢٠
ض	١٢	ل	٣٠	ل	٣٠
ل	١٣	م	٤٠	م	٤٠
ن	١٤	ن	٥٠	ن	٥٠
ر	١٥	س	٦٠	ص	٦٠
ط	١٦	ع	٧٠	ع	٧٠
د	١٧	ف	٨٠	ف	٨٠
ت	١٨	ص	٩٠	ض	٩٠
ز	١٩	ق	١٠٠	ق	١٠٠
س	٢٠	ر	٢٠٠	ر	٢٠٠
ص	٢١	ش	٣٠٠	س	٣٠٠
ظ	٢٢	ت	٤٠٠	ت	٤٠٠

ث	٢٣	ث	٥٠٠	ث	٥٠٠
ذ	٢٤	خ	٦٠٠	خ	٦٠٠
ف	٢٥	ذ	٧٠٠	ذ	٧٠٠
ب	٢٦	ض	٨٠٠	ظ	٨٠٠
م	٢٧	ظ	٩٠٠	غ	٩٠٠
و	٢٨	غ	١٠٠٠	ش	١٠٠٠

ملحوظة: للحصول على الجزم الصغير أو الجُمَّل الصغير، تُخصم الأصفار من قيمة كلّ حرف. مثال: قيمة «طس» ٦٩ (أي ٩ + ٦٠) بالجزم المشرقي الكبير، أو ٣٠٩ (أي ٩ + ٣٠٠ بالجزم المغربي الكبير) فتصير تباعًا بالجمّل أو الجزم الصغير المشرقي ١٥ أو المغربي ١٢.

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

https://t.me/ktabpdf

فهرس المحتويات

إهداء	٥
بيان أدبي	٧
﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين؟﴾	١٩
طاسين التكوين	٢١
طاسين الحبّ	٥٣
طاسين الوصال	٧٩
طاسين القلعة	١٠١
طاسين الكلام	١١٩
طاسين البستان	١٤١
طاسين الخاتم	١٦٥
طاسين الخوف	١٧٥

طاسين الرؤية ١٨٧
طاسين الإحياء ١٩٩
طاسين التجريد ٢١٧
طاسين الحجّ ٢٢٧
طاسين الإبداع ٢٣٧
طاسين الفهم ٢٤٩
طاسين التجديد ٢٥٩
حساب الجُمَّل الكبير ٢٨١

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

مكتبة الرمحي أحمد
https://t.me/ktabpdf

رواية عن إحدى أكبر الشخصيات الخطرة في التاريخ الإنساني، أبي حامد الغزالي، عن يتمه المبكّر وطفولته البائسة المحرومة من حنان الحب، عن تجربة الحب الآدمي مع حواء، عن خوضه الحروبَ الفكرية والعقدية. نخاف عليه حين استهلّ خصومُه من الباطنية سياسةَ الاغتيالات السياسيّة. ونعاني لأجله حين يصاب بذعر شديد، فيُعتقل لسانه عن الكلام ويَترك التدريس في نظامية بغداد ليخرج هائمًا على وجهه إلى الشام وبيت المقدس. لكنّنا نشعر بالأمل حين يولد من جديد ويسلك طريق التزهُّد والانقطاع، ويعيش حياة الصفاء الروحية التي يجد فيها السعادة المنشودة. واليوم بعد مرور تسعمائة سنة على وفاة هذه القمة الإنسانيّة الكبرى، يدعونا الكاتب إلى لحظة تدبّر في سيرة أبي حامد الكثيفة بالأحداث والتقلُّبات، والتفكير في تركته، لبعث روح الإحياء من جديد في إنسانيّة القرن الحادي والعشرين...

ISBN: 978-9953-89-197-2

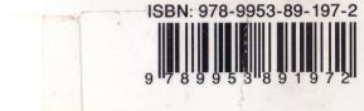

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣-١١ بيروت